الحبيب علي الجفري

معالم السلوك للمرأة المسلمة

دار المعرفة
بيروت ـ لبنان

معالم السلوك
للمرأة المسلمة

الحبيب علي الجفري

معالم السلوك للمرأة المسلمة

دار المعرفة
بيروت ـ لبنان

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار المعرفة بيروت ـ لبنان

Copyright© All rights reserved
Exclusive rights by **Dar El-Marefah** Beirut - Lebanon.

ISBN 9953 - 420 - 96 - 3

الطبعة الخامسة
1428هـ \ 2007 م

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

جسر المطار ـ شارع البرجاوي ـ ص.ب: ٧٨٧٦ ـ هاتف: ٨٣٤٣٠١ ـ ٨٥٨٨٣٠ ـ فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت ـ لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858930, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www.marefah.com E.mail: info@marefah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة العلامة الداعية المربي الحبيب عمر ابن محمد بن سالم بن حفيظ

الحمد لله الذي ينطق ألسنة بالترجمة عن معاني خطابه، ليهيىء لمن يسمعها، فتلج إلى قلبه سبيلاً لفتح بابه ﷻ، وصلى الله على حبيبه المصطفى مؤدي الأمانة من رفع الله مكانه، وأوضح برهانه، وشيَّد بنيانه، وعلى آله الأطهار معادن سره، وأصحابه الأخيار ومن اقتفى أثره.

أما بعد:

فهذه أنفاس مباركات وتنبيهات سنيات، وإشارات حسنات إلى معادن بديعات احتواها خطاب الحق تبارك وتعالى للبريات، من دلالات الآيات البيِّنات تفضي بمتأملها والعامل بها إلى رحاب القرب من الحق، والزيادة في اليقين والإيمان، أجراها الله على لسان السيد المبارك المنور: **علي بن عبد الرحمٰن الجفري**. فالحمد لله على بروزها دالة على الطريق، ومرشدة إلى الانتهاج في نهج أكرم فريق.

يسّر الله بها واسع الانتفاع، ونفع بها كل قارىء ومصغ بأذن الاستماع، ورزقنا جميعاً حسن الاتباع للمصطفى ﷺ.

والحمد لله على تيسير طبعها ونشرها، والله يضاعف لقائلها والقائمين بخدمة نشرها، والقارئين لها خيرها الواسع، وبرّها وفائدتها ونورها وبالله التوفيق، والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم.

قاله العبد الأقل

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ ابن الشيخ أبي بكر بن سالم

معالم سلوك المسلمة

الإقبال على الله

الحمد لله.. الحمد لله الكريم الوهاب.. جزيل الثواب.. المعطي بغير حساب.. الذي نادى الأحباب إلى ساحات الاقتراب.. وهيج أشواقهم إلى ذلك الجناب، ينادي في كل ليلة من السحر هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ هل من ذي حاجة فأنيله المطالب؟ وينادي في كل نفس من الأنفاس.. وفي كل لحظة من اللحظات.. بأن أبواب الإقبال عليه مفتوحة.. وعطاياه للصادقين ممنوحة.. وإحساناته للمتعرضين مسموحة.. خلقنا لنربح عليه لا ليربح علينا، فيا فوز من تشوق إلى حضرته.. وسلك سبيل أهل مودته.. نشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له.. شهادة ينفتح بها للقلوب باب الإقبال عليه.. وتتهيج بها في الأرواح معاني التشوق إليه.. وتثبت بها الأقدام على حسن الأدب بين يديه.

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وصفيه وخليله، الذي جعله الله باباً للوصول إليه.. وعلماً للدلالة عليه.. فلا سبيل للوصول إلى المحبوبية عند الخالق.. إلا بوضع القدم

على قدم الاتباع لحضرته.. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] هذا المعنى ـ بالصلاة والسلام على الحبيب الأجمل الأعلى الأسنى ـ هو المقصود بالإقبال على الله.. وطلب القرب الخاص لدى الله، وهو مطلب قد أعرض عنه أكثر الخلق في زماننا.. وانشغلوا بما لا شاغل فيه.. ولا طائل لديه.. أخذتهم بهارج الحياة وزخرفتها.. فأعرضت بهم عن حقائق السعادة، والحسنى وزيادة، ورضي الناس بهذا الإفلاس.. مروراً بالأيام والليالي عليهم.. دون طلب لحقيقة القرب من الله ﷻ.

وقفة صدق مع النفس

يرضى المؤمن وترضى المؤمنة.. أن تمر السنة والثانية والثالثة والرابعة بل والعاشرة.. ولم يقف أحد منهما مع نفسه وقفة صدق.. يتفقد فيها حاله مع مرور الأيام والليالي، ماذا زادني هذا الليل؟ وماذا زادني هذا النهار؟ البارحة ليلة قد مرت عليَّ وعليكم.. ماذا ازددنا في الليلة الماضية؟ وبالأمس يوم كامل قد مر عليَّ وعليكم.. فبماذا ازددنا أو من ماذا تزودنا في ذلك اليوم؟ وإذا كان مرور اليوم والليلة يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة.. تمر سدى لا زيادة لنا فيها في معاني الإقبال على الله.. ولم نعرف بهذا حقيقة التشوق إلى الله.. ولم نتخذها سلماً للارتقاء إلى سبيل المصافاة.. فما قيمة هذه الحياة؟؟ هل قيمة الحياة طعام وشراب؟! هل قيمة الحياة لباس وثياب؟! هل قيمة الحياة أموال وذهب مآلها إلى

---

(1) سورة: آل عمران، الآية: 31.

الذهاب؟! هل قيمة الحياة منزلة عند الخلق.. يوشك أن تشاب؟! هل قيمة الحياة أن يرضى الإنسان.. الذي خلقه ربه ﷻ وتعالت عظمته خلقه له سبحانه.. يرضى أن ينحط من رتبة يعيش فيها لربه وهي أرقى الرتب.. إلى مرتبة يعيش فيها لنفسه؟! يعيش فيها لهواه؟! يعيش فيها للدنيا؟! يعيش فيها للناس؟!! إنه الهوان بعينه.. أن يصرف الله قلب العبد عن طلب القرب منه، وإنما أرسل الله سيدنا ومولانا محمداً وأرسل قبله الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين نواباً عن حضرته لينبهونا إلى هذا المقصد.. ليرشدونا إلى هذا المطلب.. ليكون للواحد منا اعتناء بأمر سيره إلى ربه ﷻ .

إن اليوم الذي يمر عليك وكذلك الليلة.. اليوم والليلة فيهما خزائن من جود الله لا تعد ولا تحصى، لا يقف واقف على ما أودع الله تعالى فيهما، بل ولو اتسع المدرك عند أحدنا لوجد أن النَفَس الذي يمر عليه فيه من خزائن جود الله ما لا يتصور ولا يحاط به ولا يحصى؛ لأن الله ﷻ سمى نفسه المعطي.. وسمى نفسه المنان.. وسمى نفسه الوهاب.. وسمى نفسه الكريم.. وسمى نفسه العفو.. وسمى نفسه المحسن، وهذه الأسماء هي نعوت وأوصاف للرب الأعلى ﷻ ولم يقمها الله تعالى عبثاً.

أوصاف الله قديمة أزلية

أوصاف الله تعالى وأسماؤه قديمة أزلية.. دائمة سرمدية، ومعنى قديمة ودائمة أنها لا أول لابتدائها ولا نهاية لها، معنى هذا: أنه ما من وقت يمر ولا زمان، إلا والمعطي يعطي.. والحنان

يتحنن.. والمنان يمن.. والكريم يتكرم.. والوهاب يهب.. والمتفضل المحسن يتفضل ويحسن ﷻ، فإذا كان كل نَفَسٍ من أنفاسك يمر عليك.. ربك فيه محسن وهاب يحسن يعطي يهب يتكرم يتفضل، فما نصيبك أنت من هذا كله؟ كيف ترضين بأن تمر عليك أنفاسك وأنت محرومة من عطاء المعطي، وإحسان المحسن، ووهب الوهاب؟! وإذا تأملت مثل هذا المعنى أدركت أن أمراً من أجله خلق الله ﷻ السمٰوات والأرض بطولهن والعرض.. ومن أجله أرسل الرسل.. ومن أجله سخر لنا هذا العالم.. ومن أجله سمّانا خلفاء في الأرض.. ومن أجله هيأنا لمعاني العبودية.. لا شك وأنه أمر عظيم جلل ينبغي أن يكون له وزن وقدر عندنا.. ينبغي أن تكون له منزلة في أنفسنا.. ينبغي أن لا نرضى أن تمر علينا أوقاتنا ونحن غفل عن هذا الشأن وعن هذا الأمر، ليس لنا استعداد للاستمداد فيه، ولا لطلب العطاء.

كيفية التقرب إلى الله

هذا الأمر ينبغي على أساسه أن يحصل في القلوب تفكر واعتبار، وتهيؤ لطلب القرب من الملك العزيز الغفار.. الذي إذا تقرب إليه العبد أقبل الله عليه، إن معنى تقربنا إلى الله مجازي وليس حقيقي، ما معنى هذا الكلام؟ التقرب إلى الله تعالى الذي ننسبه إلينا.. بأننا اجتهدنا أو أقبلنا أو رغبنا أو طلبنا أو اجتهدنا.. إنما هو مجاز ليس بالحقيقة، ما معنى مجاز؟ معناه: أن صورة الإقبال منا حقيقتها الإقبال منه هو ﷻ .

هل يستطيع الإنسان أن يقبل على الله دون أن يكون الله قد أقبل عليه؟ لا.. لا وعزته.. الملوك لا يُدخل إلى منازلهم إلا بإذنهم.. والأمراء لا يولج إلى محاضرهم إلا برغبتهم.. وملك الملوك ﷻ لا يستطيع قلب في الوجود أن يطلب القرب منه، أو أن يسعى إليه إلا إذا أراده ﷻ ، ومعنى هذا الكلام أن المؤمنة إذا وجدت من قلبها إرادة قرب من الله.. ووجدت من نفسها همة سير إلى الله.. ووجدت من كلياتها استجابة في سعيها إلى الله.. فهي بشارة لها بأن الله قد أرادها وأن الله قد دعاها إليه، وفتح قلبها لحضور مجالس العلم؛ لأن الذي أحضركن في مثل هذا المجلس.. والذي أصغى بآذانكن لمثل هذا الكلام هو الله ﷻ .. كم من واحدة سمعت عن مثل هذه المجالس فلم تحضر؟ كم من واحدة سمعت عن مثل هذه الدروس فلم تستمع؟ فمن الذي أحضرك؟ من الذي جعلك تصغين؟ ومن الذي صرف الأخريات؟ إنه الله ﷻ وتعالت عظمته.

ونحن الذين دعانا الله إلى مثل هذه المجالس.. نحن الذين أسمعنا الله مثل هذا الكلام.. نحن الذين حرك الله فينا الرغبة والهمة.. هل نستحق هذا؟ هل عندنا استحقاق به يعاملنا الله؟ لا وعزته وجلاله! لو عاملنا الله بأصغر ذنب من ذنوبنا لخسف بنا الأرض.. لما أبقى فينا بقية، لو أن الله تعالى أزاح ستره عن معايبنا وعن مخازينا، وعزته وجلاله لما سَلَّم علينا أحد من الناس.. ولا أصغى إلينا أحد من الناس، لو أن الله تعالى قابلنا بما نستحق.. لسحق كل واحد منا سحقاً، لكن كرم الكريم وفضل المتفضل هو

الذي أحضركن إلى هذه المجالس، وهو الذي أنطق اللسان وهو الذي أصغى وجعل الآذان تستمع وتنصت.

الباعث نفحة من الله

أنت الآن في هذه الساعة.. وأنت تقرئين مثل هذا الكلام.. قد دعاك الباري ﷻ إلى ساحته.. وساق إليك خطاباً لتقبلي عليه ولترغبي إليه، معنى الإقبال على الله.. وطلب الوصول إلى الله.. والقرب من الله.. هو أن يقذف الحق ﷻ في قلب العبد باعث الإرادة، ومعنى باعث الإرادة: أن يقذف الله رغبة في الإقبال عليه.. أن يقذف في القلب شوقاً إليه.. أن يقذف في القلب احتراقاً في طلب القرب منه.. أن يقذف في القلب خوفاً منه ﷻ.. أن يقذف في القلب تفكراً، هذا التفكر يجعل الإنسان يتأمل في حال نفسه مع الله.. يقول: خلقني الله من العدم.. وتكرم علي بصنوف الجود والكرم.. ثم بعد ذلك أسأت المعاملة معه.. ثم بعد ذلك غفلت عن المقصد الذي من أجله ميّزني وسخر لي هذا الوجود.. ثم بعد ذلك نسيت أني في هذه الدنيا عابر سبيل.. أني في هذه الحياة يوشك أن أنادى وينادين منادي الارتحال.. وأني لا أعلم متى سيكون هذا النداء.. وأن هذا النداء إذا جاء لا ينتظر.. وأن هذا النداء إذا جاء لا أملك أن أتأخر عن إجابته، وأن ملك الموت عليه السلام إذا تجلى لي.. وقال لي: بحثت لك في مشارق الأرض ومغاربها عن نفس، فلم أجد لك، سيقبض روحي قبل أن أتنفس لا محالة، وأن روحي إذا قبضت فمعنى قبض روحي انتهاء الفرصة التي كانت

لي في هذه الحياة، فلو أن أهل القبور بمجرد وضعهم في القبور أمضوا أوقاتهم جميعها في العبادة والتوجه وطلب التطهير للبواطن والإقبال على الله لما قبل ذلك منهم، لأن الفرصة التي خلقوا من أجلها ولها هي هذه الحياة.. ولأن الله قد ساقهم ودعاهم وهيأ لهم الفرص قبل أن تأتي ساعة الوفاة.

من تأمل هذا المعنى عرف أن ثمرة الإقبال على الله في الدنيا.. أن يُقبل الله على المقبل، أحضري قلبك وتأملي هذا المعنى.. ثمرة إقبالك أنت أيتها الضعيفة المسكينة الفقيرة إلى الله ﷻ.. ثمرة أن تقبلي على الله **أن يقبل الله عليك**، ومعنى أن يقبل الله عليك.. لا يستطيع اللسان العاجز أن يحيط به أو أن يعبر عنه، ساعةٌ يقبل فيها ملك الملوك على قلب المؤمنة إذا أقبلت عليه.. أقبل الله! تأملي وأحضري مع عقلك قلبك.. أقبل الله! من الذي يقبل؟ الله! أي سعادة.. أو مطالب.. أو آمال.. أو مقاصد.. أي راحة.. أو لذة.. أو أنس.. أو فرح.. أو سرور.. أو مزية.. أيمكن أن تتخلف وقد أقبل الله ﷻ؟! إذا كان الله تعالى أقبل.. فمن ذا الذي يستطيع أن يتخلف عن الإقبال عليه وقد أقبل خالقه ﷻ ومعطيه؟!

التي تفقه هذا المعنى تطلب ما عند الله وتطلب السير إلى الله.. وهذا الطلب الذي يحصل في القلب.. والرغبة في الإقبال على الله.. يُسمِّيه أهل علم السلوك وتطهير البواطن: الباعث، والباعث: هو خاطر يخطر في قلب الإنسان يزعجه ويقلقه.. يقول له: إلى متى تعيش في هذه الحياة الدنيا وأنت غافل؟! إلى متى

والأيام تمر وأنت ذاهل؟! إلى متى والفرصة تناديك، إنَّ كل نفس من أنفاسك نقصٌ في عمرك وقرب انتهاء الفرصة؟! هذا العتاب وهذا الخطاب.. الذي ينبعث في قلب الإنسان.. فيخاطب به نفسه.. ليحركها إلى الله تعالى.. يشوِّقها إلى الله.. يرغبها في الإقبال على الله.. يشعرها بالندم.. يشعرها بالندم على ما فات وعلى ما ضاع في حق القرب من الله تعالى، يذكرها ويهزها بمعاني الموت الذي سيقبل عليها وما بعده، هذا التذكر يسمونه: الباعث، لأنه ينبعث أولاً في الإنسان من الله تعالى، ولأنه ثانياً يبعث، أي يحرك الإنسان في طلب الإقبال على الله ﷻ.

وهذا الباعث هو نفحة من الله كريمة.. وعطية عظيمة.. قال فيها الحبيب ﷺ: **«ألا إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها»**(1)، من شفقته ﷺ.. من رحمته بنا.. يقول لنا: **«ألا فتعرضوا لها»**.. اطلبوها.. ارغبوا إليها، تعرضكم هذا لن يكون ثمناً لها؛ لأنها بضاعة غالية جميع أهل الكون لا يستطيعون دفع ثمنها، لكن كرم الكريم وجود الجواد وفضل المتفضل المحسن قد جعل التعرض ثمناً لحصول هذه العطية، من صَدَقَ في التعرض أعطاه الله ﷻ.

هذا المعنى في طلب حصول الباعث إذا اشتعل في قلب الإنسان فهو مقدمات الباعث، إذا تأمل الإنسان حياته التي تمر عليه.. عمري خمسة عشر سنة.. عشرون سنة.. ثلاثون سنة..

---

(1) أخرجه **الطبراني** في «المعجم الكبير» (الحديث: 19/ 234)، **والسيوطي** في «جمع الجوامع» (الحديث: 7046).

أربعون سنة.. خمسون سنة.. ما أحوال صلاتي وصيامي؟ ما حال قلبي إذا قلت: الله أكبر؟ ما ذوق السجود الذي حصل لي في سجدة من سجداتي، الكثيرة العدد صوريًا وظاهريًا.. القليلة الحضور مع الله؟ ما هو تذوقي لمعاني الذكر؟ إذا نطق لساني بلا إلٰه إلا الله.. وما وزن هذه الكلمة في باطني؟ ألهذه الكلمة وقع في قلبي؟ أم أن حياتي ستمر وأنا لم أتذوق ذوق هذه الكلمة؟ حياتي ستمر ولم أفهم معنى حقيقة هذه الكلمة؟ لم يفهمها قلبي ولم تفهمها روحي وإن فهمها عقلي! ساعة الموت ليس السلطان للعقل في الإنسان.. وإنما السلطان للقلب.. ما وقر في القلب هو الذي يبرز في ساعة الوفاة والانتقال.

لَمْ أخلق لأعيش هذا العبث

مرت علي سنوات عمري.. لم أستشعر فهماً لآية من كلام الله تعالى تمتزج بداخلي، مرت أيامي وأنا إن بكيت ليلة غفلت عشرة، مرت أيامي وكلما تبت توبة إلى الله نقضتها، لساني منطلق لا ضابط عليه.. وعيني منطلقة لا ضابط عليها.. وأذني منطلقة لا ضابط عليها.. يدي وقدمي كذلك.. وقتي منطلق لا ضابط له ولا فائدة فيه ولا انتفاع فيه.. أيامي ولياليي مرت وحُسبت علي ولم أنتفع فيها بفهم لعلم يجمعني على الله تعالى، لا زالت تغلب عليّ نفسي عندما تشتهي أو ترغب، أغتاب هذه وأنمّ على هذه.. تلعب علي نفسي بانشغال، بتفقد عيوب الناس مع الغفلة عن عيبها.. تلعب علي نفسي بفرح وتعظيم لما حقر الله من شؤون الدنيا ومظاهرها..

تلعب علي نفسي في طلب القرب من الناس والمنزلة عندهم، فلانة أحبتني فلانة أبغضتني.. فلانة كلمتني.. فلانة قدرتني.. فلانة أهانتني.. هذه ما تعرف حقي.. هذه ما تعرف قدري.. حقي قدري! أي حق لي وأي قدر لي؟! ألهذا خُلقت؟! ألهذا سخر الله الوجود أجمع لي؟! لا!.

لم أُخلق لأعيش هذا العبث الذي يعيشه الناس اليوم! إني صاحب مهمة في نفسي.. مهمة في بيتي.. مهمة في أمة سيدنا محمد ﷺ، الأيام تمر على الواحد وعلى الواحدة منا.. والأمة تحترق بنار الغفلة.. بنار تسلط الأعداء عليها... بنار الإعراض عن الله.. وليس لي إسهام في لحظة أو ساعة صادقة أتوجه بها إلى الله ليرفع عن الأمة ما نزل!! ما الذي حصل لي في التبلد؟! كم من دماء المسلمين الآن تهراق؟ كم من أعراض المسلمين تنتهك؟ كم من المسلمين يواجهون ربهم بما يعود عليهم بالعار والشنار؟ يواجهون نبيهم بما يحزن قلبه؟ ما هي مهمتي في هذا الحال؟ في هذا الوضع؟ أعيش هكذا كالسائمة لا قيمة لي؟! ليس لي شوق إلى الله وطلب في الارتقاء إلى الله؟! لم تنفتح لي أبواب في معرفة الله تعالى وطلب ما عنده؟ لم أخطُ خطوات في تزكية نفسي؟ أتأتي ساعة الموت وأنا على هذا الحال؟! وأنا بهذا العيب؟! والعيب الأعظم من هذا العيب جهلي بهذا العيب!

المرء يصلحه الجليس الصالح

ربما يكون خطر خاطر شريف لحظة من اللحظات.. أو ساعة

من الساعات.. على قلب واحد أو واحدة من أهل الإيمان: كيف يكون عندي عيوب ما انتبهت لها؟ أنا ما سرت إلى الله؟ مرت عليها أوقاتي. عمري الآن يمضي.. ما ازددت قرباً من الله.. كم من الأيام مرت علي ما ازددت فيها قرباً من الله؟ ما ازددت فيها معرفة بالله؟ أنا مضيع.. فلا يلبث هذا الخاطر أن يواجَه بسوء في النفس وخبث.. تأتي النفس بالتسويلات يعينها الشيطان: أنت أفضل من غيرك.. الحمد لله انظري إلى حال الناس في هذا الزمان.. أنت محافظة على الصلاة.. أنت تتصدقين.. أنت تذكرين الله.. أنت تحجين.. أنت تعتمرين.. أنت تصلين على النبي ﷺ... أنت عندك.. أنت عندك.. انظري إلى فلانة وفلانة كيف هي بعيدة عن الله.. أنت أفضل من غيرك، ويأتي هذا الخاطر لينقضّ على الإنسان وليبعد الإنسان عن ساعة نورانية قد لاحت له من حضرة الحق ليعاتب بها نفسه..

وما عاتبَ الحُرَّ الكريمَ كنفسه
والمرءُ يصلحه الجليسُ الصالحُ

ما إن تأتي ساعة لتفقد المعايب إلا وتبرز خبائث النفس لتغطي هذه المعايب، نعم.. كثير في الأمة هم أسوأ منك حالاً، لكن هل خلقت ليكون نظرك إلى من هي أسوأ منكِ حالاً؟! كم مرة نظرت إلى من تركب سيارة أو مركوباً أغلى من مركوبك فتمنيت لو أن لك مثلها؟ كم مرة نظرت إلى ثوب أغلى من الثوب الذي تلبسينه فتمنيت أن لو لبستيه؟ كم مرة سمعت بشيء من عطايا الدنيا مُنحتْ لفلانة فتمنيت أن لو كانت لك، لِمَ لَمْ تقولي الحمد لله، بعض

الناس ما يجدون الأكل وأنا آكل الحمد لله؟ لِمَ لَمْ تَقولي بعض الناس لا يجدون ما يركبونه أو يلبسونه وأنا أجد؟ لم في شؤون الدنيا ننظر إلى من هم أعلى منا.. وفي شؤون الآخرة ننظر إلى من هو دوننا؟ أتعلمين لم؟ إنها النفس التي لم تتزكى ولم تتربى.. إنها عدوك الأكبر في طريقك إلى الله ﷻ : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1].

رسول الله ﷺ علمنا المحاسبة

جربي ليلة من الليالي واجلسي مع نفسك جلسة تخاطبينها في تفقد معايبك التي عندك.. انظري إلى أي مدى سيظهر لك ضعفك الذي كان غائباً عنك، اجلسي هذه الليلة جلسة وتأملي عيوبك التي فيك: ما هي عيوب عيني؟ ما هي عيوب أذني؟ ما هي عيوب لساني؟ ما هي عيوب يدي؟ ما هي عيوب قدمي؟ ما هي عيوب بطني؟ أعظم من هذا ما هي عيوب باطني؟ ما هي عيوب نفسي؟ ما هي عيوب روحي؟ عين منذ شهر ما بكت من خشية الله.. أي عين هذه؟ أي عين هذه؟! شهر كامل مر عليها لم تبك من خشية الله! عين.. مر عليها شهر كامل لم تختم مصحفاً واحداً.. شهران ثلاثة أربعة، عين.. كلما نظرت إلى الدنيا استحسنت وانبهرت، عين... نظرت إلى المؤمنين والمؤمنات بنظرة ازدراء واحتقار، رأت نفسها أفضل وأكبر.. بم؟! بدنيا؟ مخطئة أنت! إن كان نظرك

(1) سورة: يوسف، الآية: 53.

أنك أفضل من غيرك بدنيا أو بجاه أو بمنصب.. فهذا عين الجهل! أي أفضلية هذه؟ إذاً فرعون أفضل منك كان صاحب منصب وجاه.. والنمرود كان صاحب منصب وجاه.. وقارون كان صاحب مال واتساع.. أهذا مقياسك يا من أرسل الله إليك سيدنا محمداً؟!

أذنك هذه.. ما هي معايبها؟ تفقّديها الليلة، كم سمعت كلمات غيبة أو نميمة ففتحت أذنك لها، كم ملت إلى كلام الباطل؟ في المقابل.. كم استماع استمعت هذه الأذن بموافقة القلب للاستماع لآية من كلام الله فاهتز وجدانك؟ لسانك.. آه من لسانك! قال صلى الله عليه وآله وسلم.. لمن؟ لمعاذ بن جبل الذي يحبه رسول الله! بعد أن أوصاه بوصايا عظيمة في توجهه إلى اليمن للقيام بالدعوة ونشر الإسلام والعلم هناك.. قال: «**ألا أدلك على ملاك ذلك كله يا معاذ؟**» قال: بلى يا رسول الله، قال: «**أمسك عليك هذا**» وأمسك بلسان نفسه، فقال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما تنطق به ألسنتنا؟ قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذ.. وهلْ يَكُبُّ الناسَ في النارِ على مَناخِرِهِمْ إلا حَصائِدُ ألسِنَتِهِم؟!**»(1) من الذي يقال له هذا الكلام؟ وما حالي وما حالك؟ معاذ بن جبل! الذي خاطبه رسول الله مرة من المرات.. فقال: «**يا معاذ إني أحبك**» وفي رواية: «**يا معاذ إني والله لأحبك فلا تدعنّ أن تقول عقب كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(2) الذي شهد له رسول الله بالمحبوبية يقول له انتبه من لسانك، وكم مرة من المرات خطر على قلبي أو على قلبك انتبه من لسانك، نعم

(1) رواه الإمام **أحمد** في الحديث: (5/ 237).

(2) رواه **أبو داود** في (الحديث: 1522).

سمعنا من الوعاظ سمعنا من العلماء، قرأنا في الكتب أن اللسان خطره كبير، نعم نعم نعم.. لكن في قلبك هل حلّ من هذا الكلام معنى؟ وكيف تعرفين أنه حلَّ؟ كم مرة حدثك قلبك؟ ليس الشيخ الذي يتكلم ولا الكتاب الذي يقرأ، كم مرة في داخل قلبك انبعث هذا الباعث بحساب للنفس: يا نفس إلى متى واللسان منطلق هكذا؟ كم مرة قبل أن تنامي تأملت حالك منذ أن فارقت الفراش إلى أن رجعت إليه؟ الكلمات التي صدرت منك.. المجلس الأول، الثاني الثالث، الرابع.. هل يسرك أن تري هذه الكلمات مثبتة في صحيفتك؟ هل تصلح بأن تقبلي بها على الله وصحيفتك منشورة؟ إن هذا الكلام الذي قد تحدثت به في هذا اليوم أو في هذه الليلة، هذا الباعث الذي من القلب للتفقد للتنبه أين منزلتك منه؟ أين نصيبك منه؟ كم مرة غضبت في هذا الشهر؟ صعب هذا الشهر... تذكري قليلاً.. صعب هذا الشهر؟ لأنا تعودنا الغفلة ما تعودنا أن نحاسب أنفسنا مع أن نبينا ﷺ، قد قال: «**الكيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لما بعد الموت، والعاجزُ مَنْ أتبعَ نَفْسَهُ هَواها وتمنَّى على الله**»(١) دان نفسه أي: حاسبها، صلى الله عليك يا أبا القاسم ويا أبا الزهراء! ما تركت شيئاً إلا ونبهتنا عليه يا صاحب القلب الشفيق الرحيم.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله، علمنا المحاسبة. ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، يصعب عليك هذا، أعتقد أنه يصعب عليكِ أن تتذكري ما حصل في هذا الشهر؛ لأنك لم تعتادي المحاسبة.. طيب الأسبوع هذا الذي مرَّ عليك.. كم مرة غضبت في هذا الأسبوع؟ تذكري قليلاً.. مرتين؟ ثلاث؟ أربع؟ يمكن

---

(1) رواه الترمذي في (الحديث: 2459).

خمس مرات في هذا الأسبوع غضبت؟ ثلاث مرات؟ مرتين؟ يمكن.. كم مرة من هذه المرات كان الغضب لله؟ وكم مرة كان الغضب لنفسك؟ كم مرة غضبت لأن الولد أو البنت ما انتبهوا للصلاة؟ كم مرة غضبت لأنك سمعت كلاماً لا يرضي الله؟ كم مرة غضبت على نفسك بتقصيرها في حق الله؟ لكن كم مرة غضبت لأن الخادمة لم تحسن تنظيف المنزل؟ كم مرة غضبت لأن الخادمة لم تحسن طهي الطعام؟ كم مرة غضبت لأن الزوج لم يأتك بالهدية التي طلبتها؟ كم مرة غضبت لأن الولد ما ذاكر في المدرسة؟ لكن كم مرة غضبت لأنه ما صلى الفجر في جماعة؟

هذا الأسبوع أو هذا الشهر الذي مر عليك.. حالات مشاعرك ما نصيب الله تعالى منها؟ ما نصيب إقبالك على الله تعالى فيها؟ كان ﷺ لا يغضب لنفسه ولا ينتقم لها فإذا ضُيع حق الله... لم يقم أحد لغضبه، ما يستطيع أحد أن يتحرك من شدة الغضب الذي يظهر على وجهه إذا ضيع حق الله، هذا الأسبوع.. كم مرة فرحت؟ أو في هذا الشهر.. وفي أوائل هذه السنة.. كم فرحت؟ بم فرحت؟ كم مرة حزنت؟ بم حزنت؟ كم مرة سهرت وطار النوم من عينيك أرقاً؟ على ماذا سهرت؟ وعلى ماذا أرقت؟ ومم قلقت؟ ما هو نصيب صلتك بالله تعالى من هذا كله؟

تفقدي نفسك في هذه الليلة.. عودي إلى نفسك بمعنى انتباه: قرأت شيئاً من القرآن في هذا الأسبوع؟ والمعذورة عن القراءة قرأت في هذا الشهر؟ والشهر الماضي؟ بعضنا لم يقرأ، ينتظر إلى أن يأتي رمضان ليبحث عن المصحف في أي رف هو، نسي أين وضع المصحف، وبعضنا بفضل الله أكرمه الله فقرأ، يا من أكرمك الله

فقرأت.. ما كانت ثمرة قراءتك للقرآن؟ كم آية استوقفتك فسالت دمعتك من خشية الله؟ كم من آية قرأتِها فلم تفهمي معناها فحرصتِ على أن لا يمر عليك كلام الله دون تدبر، وأخذت كتاباً من كتب التفسير وطالعت معناها؟ كم آية من القرآن هزت كيانك وأنت تسمعينها؟ أم أنك تقرئين القرآن من دفته إلى دفته والقلب مشغول عن المخاطب لك ﷻ ؟!

ثمرة قراءتي للقرآن

كيف لو أن عظيماً من عظماء الدنيا أرسل رسالة إلى أحد أتباعه أو إلى أحد رعيته.. وبلَغه أن صاحب هذه الرسالة الذي توجهت إليه الرسالة أخذ الرسالة وأخذ يدندن بها.. يقرأها بصوت جميل ومرتل: بسم الله الرحمٰن الرحيم.. من الملك المعظم فلان إلى فلان بن فلان.. آمرك أن تأتي إلي غداً لتحضر مجلسي، وترك الرسالة وجاء اليوم الثاني، وما جاء الرجل للمجلس، أخذ الرسالة مرة ثانية ما خبر فلان؟ قالوا: يمسك رسالتك يتدبرها يا أمير! طيب أين هو؟ في الرسالة أقول له: تعال أقدم علي، يقول: لكنه يحترم رسالتك ويأخذها بيده ويتأملها ويقرأها بصوت حسن متأدب: يا فلان اقدم علي غداً أو بعد غد إن لم تستطع، طيب أين هو؟ يقول: هو يقرأ رسالتك ألا يكفيك؟ يقرأ رسالتك! أيكون هذا الرد مقنعاً عند الملك؟ عند الأمير؟ والقرآن أنزله الله على قلب سيدنا محمد.. ويسره بلسانه.. وأمرنا أن نقرأه وأن نتدبره لنأخذ منه مفهوماً ونقبل به على الله.

قرأت: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[1] ملك الملوك أرسل لكِ رسالة يقول لك فيها: سارعي إليَّ، إلى مغفرتي.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[2].. ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[3]، وجدنا في رسالة ملك الملوك يقول لنا: فروا إليّ.. سيروا إلي.. أقبلوا علي، أحسنت قراءة الرسالة ووضعتها على رف، ولم أقبل عليه. ما معنى هذا الكلام؟ معناه أني لم أحسن تلقي هذه الرسالة.. معناه أني لم أفقه المقصود.

كان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعيب على بعض قراء عصره يقول: «ويحكم إن الله أنزل إليكم القرآن لتقرؤوه فتعملوا به فاتخذتم قراءته عملاً»، بمعنى أن ثمرة قراءتي للقرآن أن تجمعني على وجهة إلى الله ﷻ ... هذا بعض المقصود من قراءتي للقرآن، ثم إلى أي مدى تفهمت هذه الرسالة واعتنيت بها؟

هذه المعاني تأمليها في ليلتك هذه لتخرجي بعد ذلك بثمرة، إن تأملتها مع مصاحبة النظر إلى أحوال الصادقين مع الله وعلى رأسهم سيد الوجود ﷺ وأصحابه وآل بيته والتابعين من الصادقين من أهل العلم والولاية والصلاح من سلف الأمة.. إذا تأملت أحوالهم مع الله وسيرهم إلى الله ﷻ لانبعث في قلبك هذا الباعث، وخرجت بحصول شيء في باطنك في طلب الإقبال على الله، طالعي أخبار النار، وأحوال الذين يلقون فيها والعياذ بالله..

(1) سورة: آل عمران، الآية: 133.

(2) سورة: فاطر، الآية: 15.

(3) سورة: الذاريات، الآية: 50.

كيف يكون حالهم في أول ليلة يبيتون في نار جهنم.. إذا أغلق بابها دونهم.. أغلق بابها عليهم وهم فيها.. لو عقد مجلس في الشمس لما استطاعت واحدة منكن أن تجلس أو أن تنصت، فكيف لو كانت بجانب تنور؟ فكيف لو كانت في التنور؟ فكيف بالحال في نار جهنم والعياذ بالله؟ لو لم يكن في نار جهنم حرق ولا تعذيب وكان فيها خطاب واحد من الله لكفى، لو لم يكن فيها إلا قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1] والله ثم والله ثم والله.. لو لم يكن في نار جهنم ألم ولا عذاب وكانت طعاماً وشراباً وجناناً وكانت أنهاراً وكانت قصوراً لكن الخطاب فيها يأتي ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ لكانت أشد العذاب على من يفقه وعلى من يفهم، أنا وأنت لا بد وأن نمر فوق هذه النار إما إلى دار الجنة والقرار.. والرضوان من الملك الكريم مع المقربين والأبرار.. وإما هوي في قعرها والعياذ بالله.

تأملي أحوال إقبال الله على محبوبيه في الجنة.. تأملي ساعة أن يتجلى عليهم ويقول: «**ألا أعطيكم ألا أحبوكم يا أهل الجنة، أفلا أزيدكم**» فيقولون: أي ربنا. ماذا تعطينا وماذا تزيدنا وقد أبحت لنا الجنة نتبوّأ منها حيث نشاء؟ فيقول: «**أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً**»[2] أبيحكم النظر إلى وجهي الكريم، لو لم يكن في الجنة إلا هذا الخطاب فهو أعظم ما في الجنة، لو كانت الجنة قاعاً صفصفاً ليس فيها شيء من النعيم.. لكن فيها هذا الخطاب من

(1) سورة: المؤمنون، الآية: 108.

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 6549) و(الحديث: 7518)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 7070)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2555).

الملك الكريم.. لكان ذلك كافياً لأصحاب الذوق والفهم واستقامة البال وسلامته من الآفات، بأن يجعلهم يطيرون فراراً إلى الله ﷻ وتعالت عظمته.. فكيف وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!

هذه المعاني!إذا تأملها الصادق وتأملتها الصادقة أقبلت بها على الله.. وهذا الإقبال الذي يحصل بعد سماع هذه المعاني وتأملها والعمل بمقتضاها.. يورث الإنسان طلباً في القرب من الله.. هذا الطلب هو الباعث وهو من أعظم عطايا الله تعالى، إذا كان الإنسان عنده مناسبة.. زواج أو أي شيء من المناسبات التي يدعى إليها الناس.. إذا أراد أحداً أن يحضر إليه يرسل إليه بطاقة، هذه البطاقة فيها: أقدم علينا.. بطاقة القدوم على ساحة القرب من الله والمعرفة بالله والرضوان من الله هي هذا الباعث الذي ينقذف في القلب، إذا مر على قلبك وقتٌ انبعثت فيه هذه الخاطرة، وقويت في القلب واستولت عليه: أنا يجب أن أقبل على الله.. لا أضيع وقتي ربما أموت الليلة، كيف أموت الليلة وما ذقت معنى المعرفة بالله؟ ربما أموت الليلة كيف أموت الليلة وما وصلت إلى معنى الصلة بالله؟

في ساحة العرض

ما ذقتُ.. ما عرفتُ.. ما فهمتُ.. ما حضرتُ مع الله.. ما تهيأتُ للوقوف بين يدي الله ﷻ .. ما تهيأت لساعة يناديني الله فيها.. يقول على رؤوس الأشهاد مناد من الملائكة: لتقم فلانة بنت فلانة للعرض على الله! وكأنها قدمت.. استشعري أنت الآن في

ساحة القيامة.. اسمك واسم أمك قد نودي.. فلانة بنت فلانة قومي للعرض على الله، حالك في ساعة القيام للعرض عليه، له ارتباط بحالك هاهنا بالحال التي تفارقين بها الدنيا، على أية حالة من الاستعداد؟ وساعة يقف فيها العبد الضعيف بين يدي المولى الكبير العظيم اللطيف ليست بالهينة.. ليست بالهينة بالمعنيين، ليست بالهينة على من وقف وهو عاصٍ مبعدٌ عن الله تعالى.. وهو عاص بعيد عن الله.. ويقف ليواجه غضب الجبار.. الذي لا تطيقه السمٰوات والأرض ومن فيهن وما فيهن، وبالمعنى الثاني.. أن يقوم العبد وهو مشتاق إلى القيام ليقف بين يدي الله، من أين جاء الشوق؟ لأنه مرت عليه لياليه وهو متشوق لمخاطبة الله متلذذ آنس إلى الله.. مستشعر لذة تلاوته لكلامه وكتابه.. فهو ذاق لذة أن يخاطبه الله في الدنيا بأن يقرأ خطاب الله في القرآن.. فهو في الآخرة متشوق إلى لذة خطابه في الآخرة.. لأنه ذاق حلاوتها وهو في الدنيا، فلا تستطيع النفس ولا يستطيع قلب ولا عقل.. أن يقف على ما في هذه الساعة التي يقوم فيها العبد.. ليخاطب ربه، ويخاطبه ربه خطاب الرضوان.

الاستجابة لهذا الخاطر

إذا خاطبتِ نفسك بهذا المعنى فحصل عندك هذا الإقبال أبشري! فإن هذه بطاقة دعوة جاءتك من الله، لأنه لولا توفيق الله ما حضرت إلى مجالس العلم ولولا توفيق الله ما أصغيت ولا استمعت، ولولا توفيق الله ما انبعث في قلبك باعث الإقبال على

الله، الآن لا شك أن بعض القارِئات وأسأل الله أن يكون جميع القارِئات وجميع من يقرأن قد حصل لهن ذلك، لا شك أن البعض، وأسأل الله أن يكون الكل، قد انبعث في قلوبهنّ معنى الرغبة في الإقبال على الله، هذه الساعة الآن التي تحدثك فيها نفسك في الإقبال على الله هي ساعة الباعث، وهي رسالة وجهت لك من الله، بطاقة دعوة، الله يدعوك الآن لتردي عليه، بقي أن تجيبي هذه الدعوة، هذا الخاطر دعوة من الله لك؛ لأنه لولا توفيقه ما رغبت في أن تقبلي عليه، لكن إرادته وإكرامه لك قد دعاك الآن بها إليه جلّ جلاله وتعالت عظمته.

هذا الباعث من عظمته وعزته عند الله أن كثيراً من أهل الإسلام مرت أعمارهم فلم ينبعث في قلوبهم لحظة واحدة، هناك الكثير من المسلمين والمسلمات من بلغ الثمانين من عمره.. وبلغت الثمانين من عمرها.. فلم يفتح عليها بهذا الخاطر، لم يخطر على قلبها في الثمانين سنة أن تطلب معنى السير الجاد إلى الله، نعم.. تابت توبة.. رغبة في الإقبال.. ندمت ساعة.. قامت صلت قرأت استغفرت.. لكن أن يكون في قلبها رغبة السير إلى الله.. أن تكون حياتها سيراً إلى الله.. أن يأخذ معنى السير إلى الله والرغبة في القرب من الله جميع كيانها.. أن يكون الأساس في مقصد حياتها.. أن تطلب الله.. كثير من الأمة مرت أعمارهم ما طلبوا هذا المطلب، فإذا بُعث في قلبك هذا الباعث فهو من جند الله الباطنة التي يكرم الله بها من شاء من عباده.

فإذا حصل هذا الباعث.. فأمامكِ أمور ينبغي أن تقابلي بها

هذا الباعث ليثمر هذا الباعث قرباً من الله ووصولاً إليه، الأمر الأول: أن تستشعري منة الله عليك وتشكريه.. لا تقولي: حصل لي هذا الباعث لأني طيبة.. لأني عملت.. لأني حضرت.. لأني.. لأني... لا.. حصل لك هذا الباعث لأن الله أكرمك فتشهدين منّته عليك.. وتعظمي هذا الباعث في قلبك، وتجعلي له المنزلة العظمى في باطنك، اشهدي من هذا الباعث أنها ساعة الله خاطبك فيها لتقبلي عليه، فتستشعري عظمة هذا الأمر وتشكري الله وتحمديه بلسانك وبقلبك، ومعنى شكر حالك لله تعالى ليس فقط باللسان، أن يكون حالك شاكراً لله تعالى بأن تستجيبي لهذا الباعث.. أن تحفظي هذا الباعث.. تحرصي على الحِفاظ على هذا الباعث.. أن تحرصي على أن تقويّ هذا الباعث حتى يحركك إلى الله ﷻ .

المحافظة على هذا الباعث

أولاً أن تخافي على هذا الباعث من الفقد، لو أن الواحدة منكن ملكت جوهرة ثمينة من مجوهرات الدنيا الفانية الحقيرة الثمينة في عقول الغفل من الناس.. لا شك في أنها تخاف أن تسرق هذه الجوهرة، ستحرص أن تضعها في مكان آمن، لن تضعها على باب المنزل في الشارع؛ لأنها تخاف أن تسرق بل وهي عندها. كثير من الناس يخاف السرقة ويضع ماله أو مجوهراته في داخل صندوقٍ، أو في خزانة مغلقة بالأرقام وبالمفاتيح وعليها الحراسة، وجرس الإنذار وهو خائف أيضاً، لِمَ؟ من أين يأتي هذا الخوف؟ من قيمة الشيء في قلب الإنسان، مهما كانت هناك أسباب حفظ.. إذا قويت منزلة

الشيء، وقيمة الشيء في قلب الإنسان، فمن أهم الأشياء التي تحصل عند الإنسان أن يخاف أن يفقد هذا الشيء. فينبغي أن تقابلي هذا الباعث بحرص وخوف أن يفقد.. لأنه ربما إذا أعطيت هذا الباعث مرة فلم تحسني معاملة الله فيه وحسن استقباله، ربما إذا سُلِب وضاع منك فلا تجدينه أبداً إلى الموت، ربما أقبلتِ مرة ودعاكِ الله، وحرك في قلبك معنى الإقبال عليه، فأهملت بعد ذلك وغفلتِ وانشغلتِ.. ربما تمر حياتك ما عاد يبعث في قلبك هذا الباعث مرة أخرى، وإذا ما بعث ما سرت إلى الله.. وإذا ما سرت إلى الله مرت حياتك سدى لا قيمة لها، فينبغي أن يكون في القلب خوف على فواته.. والخوف على فواته يورث الحرص على حفظه.. والحرص على حفظه يورث عملاً بهذا الحرص.. والعمل بهذا الحرص له أمران مهمان.

هذان الأمران المهمان إن حافظت عليهما كانا سبباً في الحفاظ على هذا الخاطر.. على هذا الباعث في الإقبال على الله: **الأمر الأول**: مجانبة مجالسة الغافلين.. تجنبي مجالسة أهل الإعراض عن الله.. أهل الإقبال على معصية الله.. أهل المباهاة بالدنيا من غير الارتباط بالآخرة.. أهل التجرؤ على المعاصي.. أهل تعظيم الكفار وأحوالهم.. تجنبي أن تجالسي الغافلين في حال غفلتهم، فإن الإنسان يتأثر بجليسه شاء أم أبى، يقول ﷺ: **«مثل الجليس الصالح»** تحفظين أنت هذا الحديث.. أكثركن يحفظه.. لكن تأمليه.. ربما تقفين فيه على معنى لم تفهميه من قبل.. **«مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل حامل المسك ونافخ الكير،**

فحامل المسك إما أن يحذيك» يعني: يعطيك هدية.. دخلت عند عطار أعطاك هدية.. قارورة.. قنينة من العطر.. من عنده هدية.. يسمونها: دعاية الآن.. أعطاكِ إياها لتعتادي المجيء إليه «**إما أن يحذيك**».. هذه ترجع إليه إن شاء أن يعطيك وإن شاء لا يعطيك «**وإما أن تبتاع منه**» وهذه ترجع إليك إن أردت تشتريه أو لا تشتريه «**وإما أن تجد منه ريحاً طيبة**»[1] وهذه لا يملك هو أن يمنعها ولا تملكين أنت أن تمنعيها.. إن دخل الإنسان محل العطارة لا بد وأن يشم الرائحة الطيبة، «**ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة**» يحرق ثيابك هذه ترجع إليك وإليه.. إن انتبه وانتبهت لن يحترق الثوب ولكن قال: «**أو أن تجد منه ريحاً خبيثة**» فلا تملكين منعها ولا يملك أيضاً، لابد وأن يشم الإنسان رائحة كريهة إذا دخل إلى محل الحدادة.

هذا المعنى ينبغي أن يفهمه الإنسان في صلته بمن حوله، يقول البعض: يفرض علينا أن نجالس بعض الناس.. يفرض علينا أن نجالسهم بسبب من الأسباب.. ونحن لا نرغب في ذلك.. نخشى من هذه المجالسة أن تعود الغفلة إلينا فنفقد الباعث، إذاً خشية ضياع الباعث.. خشية فوات هذا الخير.. هي ستكون سبباً في الحفظ، إذا فرض على الإنسان مجلس بسبب صلة رحم، أو بسبب ضرورة من الضرورات.. يجلس الإنسان وجسده مع الناس وقلبه مع الله، بمعنى يجالس بالجسد.. إن تحدثوا بخير أصغى

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 2101)، و**مسلم** في (الحديث: 6635)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 4/ 405).

إليهم وشاركهم.. وإن تحدثوا بشر نهاهم إن استطاع، أو أعرض عنهم وانشغل بذكر الله ﷻ ، وأيضاً: نيتك في المجالسة.. إن فرض عليك مجلس غفلة تجلسين بنية دعوتهم إلى الله تعالى.. تذكيرهم.. محاولة نصحهم، وتنشغلين بالذكر والتذكير حتى ينقضي هذا المجلس، وأهم من ذلك ارتياح القلب: المصيبة الأكبر من مجالسة أهل الغفلة ميل القلب إلى المجالسة؛ لأن ميل القلب إلى مجالسة أهل الغفلة يجعل القلب يتشرب من غفلتهم. تسارع إليه ظلمة الغفلة، فإذا استحسنت المؤمنة أن تجالس غافلات لاهيات فالاستحسان هو الذي بسببه تسارع ظلمة المجالس إلى قلبها.

تأملي هذا المعنى واحرصي على أن يكون في قلبك فرح وأنس ورغبة وحرص وبحث عن مجالسة مَنْ إذا جالستهن تحرك في قلبك معنى الإقبال على الله، إما حركت فيهن.. أو حركن فيك، إما نصحتهن أو نصحنك، هذا المعنى ينبغي أن يكون هو القائد لك في المجالسة، فالإعراض في مجالسة الغافلين باب قوي في حفظ القلب.. حفظ الباعث الذي في القلب، يحصل كثيراً أن تحضر واحدة مجلساً فيه موعظة، أو تسمع موعظة، أو تقوم في الليل وتبكي لربها فتصبح وحالها حسن مع الله.. وعندها همة ورغبة ونشاط في الإقبال على الله، لكن تحضر مع صاحبتها أو اثنتين أو ثلاث من صويحباتها يتكلمن بكلام غير لائق.. أو يغلب الغفلة على كلامهن.. أو الغيبة أو النميمة أو كثرة الضحك في غير اعتدال.. تخرج من المجلس هذا تبحث عن الهمة التي كانت عندها فلا تجدها، سبحان الله! أنا كان عندي همة أريد أن أقوم

الليل وأصوم النهار.. أتوجه إلى الله.. أطالع ما ينفعني.. أحضر مجالس الخير.. أدعو إلى الله.. أين الهمة؟ ما عاد عندي الإقبال هذا.. ما عادت تساعدني نفسي على الاستمرار.. سببه مجلس الغفلة الذي حضرته من قبل، فينبغي تأمل هذا الأمر والانتباه له.

والأمر الثاني: الإعراض عن وسوسة الشيطان.. فإن الشيطان إذا رأى الباعث قد انقذف في قلب المؤمن أو المؤمنة.. قَضّ مضجعه؛ لأنه يعلم أنها بداية إقبال على الله ثمرتها الوصول إلى رضوان الله تعالى، وهو لا يريد لمسلم ولا لمسلمة أن يصلا إلى الله جلّ جلاله، فيسلط الوساوس عند ذلك.. «يمكن كذا.. يمكن المسألة كذا.. يمكن كذا.. يمكن يضيع عمري.. لا، الدين يسر ما هو عسر.. المسألة كذا وكذا.. طيب أتمتع بالحياة وبعدين..» التسويف.. التأخير.. «غداً.. بعد غد.. «طيب أخلص هذه المرحلة وبعدين أقبل على الله..» وساوس من الشيطان.. «طيب يمكن الكلام هذا غير صحيح.. يمكن الكلام مبالغ فيه»، ويأتي شياطين الأنس.. يا فلانة لا تضيعي شبابك.. تمتعي بالحياة.. الله ما قال هكذا.. قومي انتبهي لنفسك.. تمتعي بحياتك.. عيشي حياتك.. يمكن تملّي الخير.. يمكن أن تعرضي عن الله.. لا تبالغي.. لا تكثري.. يمكن الكلام هذا غير صحيح.. شياطين الإنس.. يمكن الكلام هذا مخالف للشريعة.. يمكن هذا الكلام فيه كذا وكذا.. فيتظافر شياطين الإنس مع شياطين الجن ليئدوا هذا الخاطر، وعلاج هذا الأمر.. هذه العداوة التي تتوجه: الإعراض، الإعراض.. ليس مناقشة خواطر السوء.. ليس الوقوف معها..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. . . انتهت المسألة، إعراض عن هذه الخواطر وإقبال على الله تعالى. . فإذا حافظ الإنسان على الخاطر ينبغي أن يحرص على تقوية الخاطر.

كيف يقوى هذا الباعث

هذا الباعث في الإقبال على الله؟ يُقوَّى بثلاثة أشياء:

1 ـ كثرة الذكر لله تعالى.

2 ـ التفكر فيما عند الله تعالى.

3 ـ المجالسة لأهل الله.

بكثرة الذكر لله: أن يكثر المؤمن من الذكر ويكون له ورد من القرآن، ورد من الصلاة على النبي ﷺ. . يقرأ أذكار الصباح والمساء الواردة عن النبي ﷺ، يجعل وقته لا يمر عليه ساعة إلا وذكر الله فيها. . إلا وأقبل فيها على الرغبة في الاتصال بالله تعالى.

التفكر فيما عند الله: يتذكر الإنسان ماذا أعد الله للمحسنين. . يطالع أخبار ما أعد الله للمحسنين. . ما أعد الله للمقبلين عليه، إذا نظر إلى الأشياء لا ينظر نظرة الغافلين. . لا ينظر إلى الأشياء بذاتها. . ينظر إلى الحكمة من خلقها. . إلى الاختبار الذي أقامه الله فيها. . التفكر فيما عند الله.

المجالسة لأهل الله من هم أهل الله؟ أهل القرآن. . أهل

الإقبال على الله.. أهل الصدق.. أهل النور.. أهل الاستقامة.. أهل العلم.. أهل الولاية.. أهل الدعوة إلى الله تعالى.. المجالسة لأهل الله، والمجالسة لها معنيان:

المعنى الأول: المجالسة الحسية، تجالسين الصالحات.. تجالسين المقبلات على الله.. تجالسين العلماء النساء اللاتي يعقدن مجالس الخير.. تحضرين مجالس العلماء على النحو الشرعي الذي وجهنا الله تعالى إليه، من عدم الاختلاط بالرجال أو النظر إليهم وهكذا.. تحرصين على ذلك.

المعنى الثاني: وهناك جانب معنوي من مجالسة أهل الله وهي المجالس القلبية، تحرصين على مطالعة سير الصالحين، تراجم الصالحين الذين كانوا من قبل.. همتهم في الإقبال على الله.. لو ثقل عليك قيام الليل اقرئي أخبار قوّامين الليل.. ثقل عليك حفظ اللسان اقرئي أخبار الحافظين اللسان.. ثقل عليك خلق من أخلاق السير إلى الله اقرئي أخبار أصحاب الأخلاق ابتداء من سيدهم ﷺ الذي قال: «**إنّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**»[1] إلى أواخرهم في عصورنا المتأخرة، مجالستهم على هذا النحو تورث القلب محبتهم.. والمحبة مرتبة أعلى من المجالسة.. والمحبة تورث الإعجاب.. وتورث الاقتداء.. وتورث انبعاث الهمة.. وهذا يُقَوّي خاطر الإقبال على الله، إذا شعر الإنسان أنه ليس وحده في ساحة السير إلى الله ورأى أحوال الصادقين في السير وما أنتجت لهم

(1) رواه الإمام أحمد في (الحديث: 2/ 381).

هممهم وما أثمرت لهم يكرمه الله ﷻ بهمة قوية.

قال بعض الصالحين.. بعض السلف الصالح قال: إني ليخطر على قلبي خاطر المعصية، فأنظر إلى وجه بشر الحافي فينقطع هذا الخاطر عن قلبي، وقال الآخر: إني لأضعف في همتي في القيام إلى الليل فأجلس إلى محمد بن واسع فتبعث عندي همة تستمر معي شهراً حتى تضعف، فأرجع وأنظر إلى محمد بن واسع؛ لأن الإنسان يتأثر بمثله، فمطالعة كتبهم وأخبار تراجمهم والتعلق بهم يقوي هذا الخاطر.

فهذه ثلاثة أشياء: كثرة الذكر، والفكر، والمجالسة لأهل الله تعالى، وهناك أمر الإجابة، مر معنا الحفظ ومر معنا التقوية، والآن الإجابة.. الإجابة: سرعة الإنابة إلى الله. لا تتعللي.. لا تتأخري.. لا تسوفي.. لا تقولي غداً بعد غد.. فإن التسويف مدخل لإبليس اللعين على الإنسان.. على المؤمن إذا أقبل على الله أن يصدق، لا تقولي أنا الآن يمكن ما أصدق.. يمكن ما أستمر.. يمكن أن أتقوى.. كان سليمان بن الربيع رحمه الله تعالى يقول: سيروا إلى الله عرجاً ومكاسير، ولا تنتظروا الصحة، فإن انتظار الصحة بطالة، سيروا إلى الله عرجاً: ولو كان سيركم أعرج ما عندكم قوة في السير.. المهم استمري لا تتوقفي.. فإن المقصود من السير أن يرى الله من قلبك صدقاً، فهو الذي يوصلك إليه وليس سيرك.. لا قوة السير ولا ضعفه توصل إلى الله أو تؤخر عن الله، لكن السير: الرغبة بأن تبذلي كل ما عندك بصدق.. كل ما عندك.. كافٍ بأن ينظر الله إليك بعين رحمته.. ويتكرم عليك فيجذبك إليه جذبة صدق يحرك فيها همتك

إليه، فتكوني من الصادقين في الإقبال عليه.

إن وجدت هذا الباعث فاحرصي على حفظه وتقويته وعلى إجابته، احرصي على حفظه: بمجانبة مجالسة الغافلين.. وبالإعراض عن وسوسة الشياطين، واحرصي على تقويته: بكثرة الذكر لله.. والفكر فيما عند الله.. والمجالسة لأهل الله، واحرصي على إجابته: بالإنابة بالإسراع إلى الله تعالى.. وعدم التأجيل يكرمك الله.

وإن لم تجدي هذا الباعث، فإن هذا الباعث يحصل في أحد ثلاث أحوال:

1 ـ إما بالترهيب: اقرئي أخبار العذاب والويل الذي يحصل للغفل واسمعيها.

2 ـ وإما بالترغيب: اقرئي أخبار ما أعده الله للمحسنين.

3 ـ وإما بالتشويق، اقرئي أخبار الصادقين في الإقبال على الله رغبة في الله تعالى.. وما أكرمهم به من حسن المواجهة لحضرته، وما أذاقهم إياه من جميل الملاطفة منه ﷻ.

وأيضاً يحصل بالنظر إلى الصالحين.. وكف العين عن النظر إلى أهل الباطل وإلى أهل السوء؛ لذلك كان الصحابة، ما صاروا صحابة إلا بنظرهم ومجالستهم إلى رسول الله ﷺ، فهذه الأشياء التي بها يحصل وينقذف في القلب باعث الإرادة، وقد يحصل بغير سبب.. منحة من الله.. نظرة من الله.. لكن الغافل هو الذي يقول: أنا أجلس أنتظر أن تأتيني بغير سبب نفحة من الله.. ما هناك

أحد يجلس ويقول: الله يستطيع أن يشبعني من غير طعام.. خلاص ما آكل.. لا! الله جعل أسباباً في الوجود.. كذلك في السير إليه، وطلب القرب منه ﷻ، فألحي على الله.. ألحي عليه.. إنّ الله يحب العبد المِلحاح وألحي عليه في طلب أن يحرك في قلبك همة الإقبال عليه.. وأن يحفظ لك هذه الهمة.. وأن يقويها وأن تكون ثمرتها الوصول إلى ساحات رضوانه ﷻ وتعالت عظمته.

أسأل الله ﷻ أن يحيي في قلوبنا هذه المعاني.. وأن يشيد لنا في بواطننا منها شريف المباني.. وأن لا يجعل حظنا منها مجرد لقلقة لسان.. ولا استماع الآذان.. أسأله أن يجعل لها نوراً يقرّ في الجنان.. فتستجيب له الأركان.. يا حنان يا منان يا قديم الإحسان.. يا من أجريت على اللسان هذا الكلام.. نسألك اللّهم إلا ما جعلته حجة لنا ولا تجعله حجة علينا، نسألك اللّهم نظرة من نظراتك.. ونفحة من نفحاتك.. تنفحنا بها الساعة.. فلا تدع قارئاً ولا قارئة لهذا الكلام إلا وقذفت في القلوب معنى الإقبال عليك، وباعث الإرادة للسير إليك..

اللّهم حققنا بمعنى السير إليك.. وأعنا على أنفسنا بالتقوى.. واجعلنا من أهل الصدق معك يا عالم السر والنجوى، اللّهم اسلك بنا مسالك الأحباب.. واجعلنا من خواص أهل الاقتراب، وأكرمنا يا مولانا بالثبات على الطريقة.. واجعلنا من خواص الخليقة.. الذين أردتهم لك فأفردتهم عمّن سواك، اللهم زين قلوبنا بالتقوى.. واجعلنا من أهل الإقبال عليك حتى نصدق ونقوى، اللهم اجعلنا

من أهل سوابق السعادة.. والحسنى وزيادة، لا تحرمنا خير ما عندك لشر ما عندنا.

إلٰهنا حتى متى وأعمارنا تمر علينا ونحن في غفلة وإعراض! يمر علينا اليوم ثم الليلة ثم اليوم ثم الليلة، ونحن لا نزداد قرباً ولا نزداد اتصالاً، أنفسنا في السوء راتعة.. ومعاصيها متزايدة، ونحن نمنّ مع ذلك أنّا خير من الناس، تداركنا يا متدارك! يا مدرك الغريق في لجج البحار! يا غياث المستغيثين.. يا غياث المستغيثين.. يا غياث المستغيثين.. ويا درك الهالكين.. يا الله.. يا الله.. يا الله.. يا رباه.. يا رباه.. يا رباه.. يا من لا يخيب من رجاه، هذه أكُفّنا قد رُفعت إليك.. وحالنا لا يخفى عليك، نحن عبيدك الضعفاء المساكين المجترؤون المذنبون المُقصِّرون المسيئون.. نتوجه إليك أن تنفحنا نفحةَ فضلٍ من حضرتك.. لا تترك بها قلباً من القلوب إلا وقد أضأته بنور الإقبال عليك.

إلٰهنا نشكو إليك أنفسنا الأمارة بالسوء.. كلما أقبلنا عليك نقضت هذا الإقبال.. وكلما عاهدناك خانت هذا العهد.. وكلما بايعناك رجعت عن هذه البيعة.. وكلما تبنا إليك عادت إلى المعصية، اللهم لا قوة لنا عليها إلا بقوتك.. يا قوي يا متين قونا على أنفسنا بنور من عندك.. نثبت به في أعمارنا على السير إليك.. وطلب القرب منك والبحث عن ذلك.. وعشِّق قلوبنا أمر الإقبال عليك واجعل ثمرة ذلك كمال رضوانك، ادفع عنا كل

دافع.. وامنع عنا كل مانع.. واقطع عنا كل قاطع.. واجعلنا من خواص من أردتهم لك فهيأت لهم السبيل. وسائر إخواننا وأهل موداتنا وأهل لا إله إلا الله.

أَحْيِ في الأمة ما مات وردّ عليها ما فات.. يا مجيب الدعوات، نرفع إليك حاجات الأمة.. أحوال الأمة يا مولانا لا ترضي صادقاً في هذه الأيام، نسألك اللهم نظرة لإخواننا في فلسطين.. فإنهم قد نزل بهم ما نزل.. وقد حل بهم ما حل.. وإنا نعترف ونقر لك.. أن ما نزل بنا وبالمسلمين إنما هو من ذنوبنا ومن إساءاتنا ومن تقصيراتنا، لولا أن قلوبنا لم تفقه المعاملة مع عظمتك.. لما عظَّمت سواك من الخلق.. لما كبر في النفوس حال عدو كبيراً كان أو صغيراً، اللّهم إنَّا نسألك انقذافاً لنور عظمتك في قلوبنا.. واستيلاءً له على كلِّياتنا.. حتى نسلك مسالك الصدق، انظر إلى إخواننا في فلسطين.. ثبت أقدامهم.. أعنهم.. وفقهم.. انصرهم يا مولانا واخذل عدوهم.. فإنهم أعداؤك وقتلة أنبيائك، اللّهم إنه لم يمكنهم منَّا إلا ما ارتكبنا وما أُلْنا إليه.

اللّهم اقذف في قلوبنا وقلوب المسلمين.. من معاني الإقبال عليك ما تعجل به برفع راية هذا الدين.. اللّهم وكن لإخواننا في الشيشان.. كن لإخواننا في كشمير.. كن لإخواننا المسلمين الذين يُنَصَّرون في إندونيسيا ويُعتدى عليهم.. كن لإخواننا المسلمين في المشارق والمغارب، يا راحم الأمة ارحم الأمة.. واجعلنا من أرحم الأمة بالأمة.. ومن أسباب الهداية والرحمة.

بارك اللهم في بلاد المسلمين وفي ولاة أمورها.. وفقهم للسداد.. وهيء لهم البطانة الصالحة.. وأرشدهم إلى معاني الإقبال عليك والصدق معك.. وزدهم من ذٰلك يا أكرم الأكرمين وسائر ولاة المسلمين.. بجودك وكرمك، وارحم من تقدم من أمواتنا وأموات المسلمين.. واجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ.. متحققين بحقائقها حساً ومعنى.. ظاهراً وباطناً برحمتك يا أرحم الراحمين.. على أعلى وأرقى ما أكرمت به المحبوبين عند خواتيمهم.. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأصل في السلوك اتباع السنة

الحمد لله على ما أعطى ووهب والصلاة والسلام على سيد العجم والعرب.. وعلى آله وصحبه وتابعيهم ومن لنهج الحق اتصل وله انتسب.

ونسأل الله ﷻ وتعالت عظمته أن يكون انبعث في القلوب باعث الإرادة في الإقبال عليه.. وأن يوفق من انبعث في قلبها هذا الباعث إلى حفظه بالإعراض عن وسوسة الشياطين ومجانبة مجالسة الغافلين.. وإلى تقويته بكثرة ذكر الله والفكر فيما عند الله والمجالسة لأهل الله.. وإلى إجابته بالإنابة إلى الله تعالى.

التوبة أول مقام من مقامات الإحسان

من انبعث في قلبها باعث إرادة السير إلى الله.. تحسست طالبةً طريق الوصول إلى الله.. فقام أمامها حاجز الجهل وقلة المعرفة بما تحتاج إليه في سيرها إلى الله، وقام بجانب ذلك حاجز الماضي الذي قد مر.. وما كتب في صحيفتها من الذنوب وما استقر.. وما أثر في قلبها من ظلمة المخالفة، فتحتاج مع ذلك إلى تصحيح توبة وأوبة.. يكون بسببها غَفْر ما مضى من الذنوب..

وسَتْر ما كان من الحوب.. وتطهير ما تدنس من القلوب، فالتوبة أول مقام من مقامات الإحسان واليقين، فمن لا توبة له فلا سير إلى الله تعالى له.

التوبة قضاء دَيْن الله ﷻ ، التوبة أساسها النَّدم على ما مر من مخالفة الله وعدم امتثال أمره، التوبة إقلاع عن المعصية وعزم على عدم العود إليها، التوبة أداء لحقوق من لهم حقوق على التائب أو على التائبة، التوبة خشية من الله.. وحياء من الله.. وانكسار بين يدي الله جلَّ في علاه.. وهي أيضاً باب واسع لنيل المحبوبية عند الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].. ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾.. وأنصتي يا مؤمنة بقلبك.. وتذوقي بروحك.. فلعلك أن تفقهي معنى ليدلك على شرف عظيم كبير جليل.. وهو أن يتهيأ المخلوق الصغير ليكون محبوباً عند الملك الكبير ﷻ .. إن الله يحب.. يحب من؟؟ إن الله يحب التوابين، والتوابون صيغة مبالغة للتائبين.. هناك التائبون وهناك التوّابون، التائب: الذي يتوب مرة واحدة أو مرتين فيستقر له الأمر أو العياذ بالله يتنكّس، لكن التوَّاب: هو الذي يستمر في التوبة فلا ينقطع عنها أبداً.. إن عاد إلى معصية جدد له توبة.. وإن استقر في الطاعة فهم معنى أرقى من معاني التوبة.. وهو أن التوبة ليست فقط في الإقلاع عن المعاصي والذنوب.. بل الذي يرتقي في فهمه لأدب المعاملة مع الله.. الذي يدرك أن يعامل رباً كريماً رحيماً عظيماً

(1) سورة: البقرة، الآية: 222.

جليلاً. . يجد في نفسه حياءً من الله ليس فقط من المعصية. . بل من فعل المكروه وإن لم يكن هناك إثم في فعل المكروه لكن الصادق يجد أن فعل المكروه نوع إساءة أدب مع الله يحتاج إلى توبة.

علمت أن الله كره هذا الفعل. . فهل معاملتك مع الله فقط معاملة حسنات وسيئات؟ أم أن معاملتك مع الله تعالى معاملة رغبة قرب منه، وتذوق لأدب الاتصال بحضرته؟ إن كانت المعاملة معاملة تذوق. . معاملة رغبة. . معاملة محبة لله. . فلا شك أن ما يكره الله تعالى منك أن تفعليه فإنك تبتعدين عنه. . وإذا وقعت فيه تشعرين بالحياء من الله فتتوبين من المكروه، ومن ارتقت أعلى وأرقى من ذلك فتح الله لها باباً تذوق به معنى التوبة عن كل ساعة أو نَفَس مَرَّ عليها لم يذق فيها قلبها نور الإقبال على الله.

الصادقون يستغفرون الله ويتوبون إليه من المباحات التي فعلوها ولم يربطوها بنية صالحة؛ لأن فرصة القرب من الله فرصة عظيمة. . فرصة القرب من الله فرصة غالية. . إذا منحها الله لعبده ينبغي أن يتغانمها، وجميع المباحات التي تحيط بك هي فرص لتتقربي بها إلى الله؛ فإن المباح إذا ارتبط بنية صالحة تحول المباح إلى طاعة.

كأس الماء إذا شربتيه. . ونويت به إرواء الظمأ لتتنشطي وتتقوي على طاعة الله. . أخذتيه بآداب المصطفى ﷺ. . بسملت وحمدتِ الله بعده واستشعرتِ النعمة. . الحمد لله الذي سقاني برحمته ماءً عذباً فراتاً ولم يسقني بذنوبي ماءً ملحاً أجاجاً. . إذا

استشعرت ذوق هذا المعنى يتحول شرب الماء من مجرد مباح يشاركك فيه الكافر والفاجر بل والبهيمة.. يتحول شرب الماء إلى طاعة وعبادة تؤجرين على فعلها وعلى الإتيان بها، ومن تعرفت لهذا الأمر وذاقت هذا المعنى.. استحيت من الله أن تُضيِّع فعلاً من الأفعال دون أن تجعله سبباً لقربها من الله تعالى.

استغفارنا يحتاج إلى استغفار

وهناك خاصة الخاصة من أهل الذوق لمعاملتهم مع الله.. فيهم من يتوب إلى الله من الطاعات.. نعم يتوب إلى الله من الطاعات! كيف يتوب من الطاعات؟ بمعنى أن يتوب من تقصيره في فعل الطاعة.. أو في خلوص نيته في فعل الطاعة.. ولهذا كانت رابعة العدوية رحمها الله تعالى تقول: «**إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار**»، قالت: لما أقول أستغفر الله.. أقول أستغفر الله وقلبي غافل.. مثل الذي يعتذر لإنسان آخر على خطأ ارتكبه في حقه.. يعتذر وهو يضحك: هاها.. سامحني.. سامحني.. ويمشي، لا شك أن هذا فيه نوع من إساءة الأدب، الاعتذار معناه أنك تشعر في نفسك أنك أخطأت.. ومن شعر في نفسه أنه أخطأ لابد وأن يعتذر وهو منكسر، وهو مستحٍ، ونحن عندما نقول: أستغفر الله وأتوب إليه، كيف حال قلوبنا في حيائها من الله؟ في انكسارها بين يدي الله؟ في استشعارها لعظمة المعاملة مع الله؟ فكان أهل الصدق مع الله إذا فعلوا الطاعة استغفروا الله من فعل الطاعة.. لما يعتقدونه من أنفسهم أن طاعاتهم لم تبلغ المبلغ الذي يأملونه في الصدق مع الله

تعالى، ولهذا كان ﷺ يقول: «**إِنِّي لَأَسْتَغْفِر الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ في اليَّوْمِ وَاللَّيْلَة سَبْعِين مَرَّةً**»، وفي رواية «**أَكْثَر مِنْ سَبْعِين مَرَّةً**»[1]، وجاء عن بعض الصحابة: إنّا لنعد لرسول الله في المجلس الواحد من قوله: «**ربِّ اغْفِرْ لي وتُبْ عَلَيَّ إنَّك أنتَ التوّابُ الغفورُ**»[2] مئة مرة وفي رواية: سبعين مرة، ماذا فعل سيد الوجود؟! وصاحب المقام المحمود ﷺ؟! ماذا ارتكب من ذنب حتى يستغفر؟! لكنه ذوق المعاملة مع الله.. وكل من ترقى في ذوق المعاملة مع الله طلب الأرقى.. وإذا طلب الإنسان الأرقى رأى الحالة التي هو فيها مهما كانت راقية دون الحالة التي يطلب ما هو أعلى منها فيها.. فيستغفر الله من حالته الأولى طلباً للحالة التي بعدها.. ويستغفر الله في حالته الطيبة هذه من الحالة التي كانت قبلها.. وإن كانت طيبة لكنها دونها في المنزلة.

هذه المعاني ينبغي للصادقة في الإقبال على سلوك طريق القرب من الله أن تتعشقها وأن تعرفها.. أن تعرف معنى التوبة والرجوع إلى الله.. أن تستغفر ربها ﷻ .. أن تستشعر معاني الحياء من الله، وكيف لا نستحي منه وكلنا مغرقون في بحار إنعامه وإفضاله؟! كيف؟ وقد أنعم علينا بنعم استخدمناها في غير طاعته فلم يسلبنا تلك النعم.. ولو أراد أن يسلبنا تلك النعم لفعل ولما ظلمنا ﷻ ، فكل نعمة لا تزال باقية معنا مع ارتكابنا الإساءة بها هي

(1) رواه الترمذي في (الحديث: 3259).

(2) رواه أبو داود في (الحديث: 1516)، والترمذي في (الحديث: 3434)، وابن ماجه في (الحديث: 3814).

تجدد لمزيد من فضل الله علينا، هذا المعنى هو أول ما ينبغي أن يضعه الإنسان في قلبه إذا سار في طريق القرب من الله وانبعث في قلبه هذا الباعث.

كيف السير إلى الله؟

والأمر الآخر الذي ذُكر أولاً هو حاجته إلى أن يتعلم كيف يسير إلى الله، السير إلى الله يكون بالعلم لا بالجهل، يؤثَر عن بعض السلف الصالح أنهم يقولون: ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه، وجاء في الحديث عنه ﷺ: **«طَلَبُ العِلْمِ فرِيضةٌ على كُلّ مُسْلِم»**[1]، هذا العلم الذي هو علم فرض على المسلم وعلى المسلمة هو: كيف يصحح اعتقاده أولاً في فهمه لصلته بربه وإيمانياته، الأمر الثاني: كيف يصحح عباداته بظاهرها من معرفته لأحكام الطهارة والصلاة.. فلا ينبغي للمؤمنة أن تهمل أحكام الطهارة.. أحكام الصلاة.. أحكام الصوم.. أحكام الزكاة إن كان لها مال يحتاج إلى زكاة.. أحكام الحج إن تهيأ لها الحج وقد فُرِض عليها، فينبغي لها أن لا تعمل عملاً من أعمال طاعاتها ومعاملاتها إلا وقد تعلمت حكم الله تعالى فيه، ولا يعذر الإنسان إذا جهل، بعض الناس يقول: أنا معذور لأني جاهل ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، من قال لك أنك ليس في وسعك أن تتعلم أحكام الله؟ من الذي يُعذر بجهله؟ الذي يُعذر بجهله هو الذي كان حديث عهد بإسلام ولم يتسع

(1) رواه ابن ماجه في (الحديث: 224).

الوقت بعد بأن يتعلم، أو يعذر بجهله من كان في أرض جاهلية لا يوجد فيها من يُعلِّم ولا يستطيع السفر إلى من يعلم، وسوى هذين لا يعذر بجهله مهما ادعى أنه لم يكن يعرف.

تطهير القلوب من الأمراض

فينبغي للصادقة في الإقبال على الله.. أن ترغب في تعلم أحكام شريعة الله فيما يتعلق بتصحيح عباداتها.. والأمر الذي نحن الآن بصدده: أحكام الله تعالى في تطهير القلوب من الأمراض التي إذا أصابتها حالت بينها وبين نور المعرفة بالله، أمراض تصيب قلوبنا ونحن عنها غُفَّل! ليت شعري لو أن لنا اعتناء بمعالجة أمراض قلوبنا كمثل اعتنائنا بمعالجة أبداننا لكان حالنا حالاً آخر، والأصل أن الاعتناء بمعالجة القلوب أعظم من الاعتناء بمعالجة الأبدان؛ لأن أمراض الأبدان غاية ضررها أن تُفقد الإنسان الحياة.. لكن أمراض القلوب إذا استفحلت واستحكمت من أصحابها منعتهم ليس الحياة.. منعتهم الحياة الأبدية في السعادة.. منعتهم الجنة.. منعتهم رضوان الله وقرب الله ﷻ.

مَن يستشعر أمراض قلبه؟ هل يستشعر الإنسان أن في قلبه حباً للدنيا؟ هذا الحب للدنيا نهى عنه سلفنا الصالح فقالوا: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» هل يستشعر أن عنده كبراً وحسداً وعُجُباً ورياءً يحتاج أن يتطهر منه.. بل ربما تمر السنوات على المؤمن وعلى المؤمنة وأحدهما لا يعلم الفرق بين الإخلاص والرياء وتفاصيل هذا

الأمر.. لا يعلم ما الفرق بين العجب وبين الكبر.. لا يعلم ما علامة أن الإنسان متكبر أو أنه متواضع.. لم يفقه.. وهذا علم يدرّس ويتعلم وتشد له الرحال، وكان بعض أصحاب الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ ونفعنا الله به يقول: صحبت الإمام مالكاً عشرين سنة.. جعلت ثمانية عشر سنة منها لتعلم الأدب - يعني: تطهير قلبي.. سيري إلى الله - لتعلم الأدب.. وجعلت سنتين لتعلم العلم - يعني: الأحكام - فلما مات مالك ومرت بي الأيام ندمت على أن أمضيت تلكم السنتين في تعلم الأحكام، وودت لو أني أمضيتها في تعلم الأدب؛ لأن العلم سأجده عند مالك وعند غير مالك، ولكن أنّى لي بأدب مالك؟

هذا علم الأدب غير علم الأحكام: علم تطهير القلوب المعبر عنه بالسلوك.. الذي يعرف الإنسان به كيف يفهم عيوب نفسه وكيف يستعين بالله ويأخذ بأسباب تطهيرها.

طريق الاتباع لأمر الله

هذا العلم قلَّ المعتنون به وهو علم أساسه الأول: الاتباع.. فعلى قدر رسوخ القدم على طريق الاتباع لأمر الله.. على نهج الاتباع لرسوله.. يرتقي الإنسان في طريقه وسيره إلى الله تعالى؛ لأن ثمرة السير إلى الله نيل المحبوبية عند الله والتحقق بالمحبة لله، وقد منع الله على الناس حصول هذا الأمر بغير طريق واحد.. وهو حبيب الواحد.. سيدنا ومولانا محمد الحامد، الذي قال له مخاطباً

إيـاه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، أمـره الله أن يخاطبنا.. يقول لنا: يا من أردتم نيل قُرب الله.. يا من اشتقتم إلى المصافاة.. يا من رغبتم في المداناة.. كل هذه ممتنعة إلا إذا جئتم من بابي.. إلا إذا دخلتم من طريقي.. إلا إذا ارتبطتم بحضرتي.. فقال له: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فعلى قدر رسوخ القدم على معنى الاتباع لسيد العجم والعرب.. يصح للإنسان أمر سيره هذا إلى الله ﷻ، والاتباع للحبيب ﷺ هو معنى الاتباع لله ﷻ.

والمقصود بالاتباع وسر الاتباع والحكمة في شرف هذا الاتباع: **أن يخرج الإنسان من مراد نفسه إلى مراد ربه..** وهو المقصود من حقيقة العبادة، لو تأملت يا مؤمنة.. نحن نصلي في اليوم والليلة خمس فروض لا عذر لنا في تركها إلا بقواعد وأحكام معينة.. ومع ذلك حَبَّب إلينا أن نتقرب إليه بالنوافل.. ثم بعد هذا حَدَّدَ لنا أوقاتاً قال فيها لا تتقربوا بنافلة ولا أجيز لكم ومحرّم عليكم أن تصلوا.. بعد الفجر تمنع الصلاة إلى أن تطلع الشمس.. بعد العصر تمنع الصلاة إلى المغرب، يا رب أريد أن أتقرب إليك أن أقوم أصلي لك وتقول لي آثم؟! نعم.. لأن المسألة ليست قياماً وقعوداً وحركة لسان وبدن.. ليست المسألة توجهاً فقط. المسألة اتباع وطاعة.

الله تعالى غني عن صلاتنا وليس محتاجاً إليها.. لكنه أمرنا بها

---

(1) سورة: آل عمران، الآية: 31.

لتكون سبيلاً لنتقرب إليه.. وحتى في هذا السبيل الذي أمرنا به يذكرنا الله بالأصل في الصلاة وهو الطاعة.. الاتباع لأمر الله تعالى ونهج نبيه، هذا المعنى من أجله.. من ضمن الحِكَم في تحريم الصلاة في بعض الأوقات.. أن نتذكر أن المسألة اتباع، الذي أمرني أصلي في هذا الوقت وحبب لي أن أصلي في هذا الوقت منعني من أن أصلي في هذا الوقت لأعرف بأن الأصل الاتباع وليس صورة الصلاة.

الصيام أمر حببه الله وقال كما جاء في الحديث القدسي: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»[1]، هذا الصوم صاحب المرتبة العالية التي خصص الله لصاحبها باباً في الجنة اسمه الريان يدخل منه الصائمون.. جاء الأمر من الله في بعض الأيام يحرم عليكم أن تصوموا.. في أول أيام العيد يحرم أن تصوموا.. والعيد الثاني يحرم أن تصوموا.. في أيام التشريق يحرم أن تصوموا.. للمرأة أيام في الشهر يحرم عليها أن تصوم ولو في رمضان.. يا رب لم منعتني من الصوم؟ لأن الحكمة من الصوم: الامتثال.. الاتباع.. الاقتداء.. الطاعة التي هي سر العبودية، ولأجل هذا حرم الصوم في أوقات أخرى حتى نفهم أن الأمر أمر طاعة واتباع ليس مجرد سير على الهوى.. لهذا جاء شأن الاتباع عظيماً.

(1) رواه البخاري في (الحديث: 1904)، ومسلم في (الحديث: 2700)، والنسائي في (الحديث: 2215، 2216).

مجاهدة النفس

وما الذي يمنع الإنسان من سيره على وفق الاتباع لربه ولأمره؟ ليس هناك مانع أعظم من النفس الأمارة بالسوء.. التي ما خلق الله خلقاً ينازعه في ملكه مثلها، جاء في بعض الكتب السابقة القديمة: أن الله تعالى لما خلق العقل قال: يا عقل أدبر! فأدبر.. يا عقل أقبل! فأقبل.. يا عقل من أنا؟ فقال: أنت الله رب العالمين، وخلق النفس وقال: يا نفس أقبلي! فأدبرت.. يا نفس أدبري! فأقبلت.. يا نفس من أنا؟ فقالت: أنت أنت وأنا أنا، فسلط الله عليها الجوع.. ولما سلط عليها الجوع دبَّ فيها الضعف.. ولما دب فيها الضعف استكانت وخضعت فقال لها: يا نفس أدبري! فأدبرت.. يا نفس أقبلي! فأقبلت.. يا نفس من أنا؟ قالت: أنت الله رب العالمين، فكان في إضعاف سطوة هوى النفس أمر كبير من التقرب إلى الله ﷻ.

لهذا جاء في أوقات الصلاة بعضها ما لا يتناسب مع حاجة النفس ومع راحتها، يأتي وقت صلاة الفجر.. والإنسان مستغرقٌ في نومه.. في حاجة إلى أن ينام.. يشعر أنه قد تعب أن سهر.. لكن يأتي الأمر من الله بأن يستيقظ من نومه ويقض مضجعه ويقوم ويخالف رغبة نفسه في النوم ليثبت بل ليروِّض نفسه على أن تكون على وصف الطاعة للرب ﷻ، هذا المعنى في العبادات العملية.. في مجاهدة الإنسان لنفسه.. باب من أبواب الطاعة، وهناك معنى أعمق.. أعمق من معنى الاجتهاد في الصيام والصلاة، وما يحصل

بعد ذلك من الصدقة ومن كثرة الذكر ومن قيام الليل.. وهي أمور لا بد منها.. الإنسان يحتاج إليها في سيره إلى الله.. لكن أيضاً هناك معنى في مجاهدة النفس أعمق من هذه المعاني كلها وهو: أن يروض المؤمن نفسه على أن تترك ما تريد لما يريده الله ﷻ.

في بعض الأحاديث القدسية: «عبدي أنا أريد.. وأنت تريد.. وتتعب نفسك في ما تريد.. ولا يكون إلا ما أريد.. فكن لي كما أريد.. أكن لك كما تريد»، هذا المعنى هو باب حقيقة العبودية.. وهو دقيق في مسألة الاتباع في القيام بالطاعات والاستقامة.. الذي يعين الإنسان على ترويض نفسه.. السلم لارتقاء الإنسان هو أن يُمكِّنَه الله من أن يملك زمام نفسه فيخضعها لأمر الله: أن يروضها على الاتباع، علمنا رسول الله ﷺ أحكاماً.. علمنا آداباً في سائر شؤون حياتنا.. بل حتى في عاداتنا.. علمنا كيف نأكل.. كيف نشرب.. كيف ننام.. كيف ندخل.. كيف نخرج.. بل حتى كيف نقضي حاجتنا في بيت الخلاء علمنا آداباً لها.. ما المقصود من ذلك؟ المقصود من ذلك: أن نروض أنفسنا على أن تسير على قدم الاتباع للمصطفى ﷺ.. فإن النفس إذا روضت على ذلك اعتادت هذا الأمر وأصبحت تتعشقُهُ بعد ذلك وتحبه.

نرى الخيل الذي لم يروَّض ينفر بصاحبه يريد أن يلقي به من على ظهره.. لكن صاحبه إذا أصر على ذلك، على ترويضه مرة بعد مرة يبدأ الخيل في الامتثال والطاعة شيئاً فشيئاً.. حتى يتحول بعد ذلك إلى متعشق إلى أن يُمتطى ظهره ويسير وينطلق.. وإذا مرت

عليه مدة لم ينطلق يشعر بالضيق في هذا الأمر بسبب الترويض الذي حصل له.. وكذلك أنفسنا الأمارة بالسوء: إنها في أول الأمر يثقل عليها أمر الاتباع.. لكنها إن رُوِّضت على هذا الاتباع انفتح لها باب الأدب مع الله.

فمعنى الاتباع: ترك ما نريد لما يريده الله تعالى على وفق ما جاء عن حبيبه ﷺ، ولهذا لما جاء ثلاثة من الرجال يسألون السيدة عائشة رضي الله عنها عن قيام رسول الله.. قالت: كان يقوم وينام ﷺ.. ووصفت لهم بعض قيامه وبعض راحته فكأنهم استقلوا قيام رسول الله.. فقال الآخر: حدثنا عن صيام رسول الله.. فأخبرتهم أنه كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم وشرحت لهم فكأنهم استقلّوا فعل رسول الله، فقال الأول: أما أنا فأقوم الليل ولا أنامه.. وقال الثاني: أما أنا فأصوم النهار فلا أفطر أبداً.. وقال الثالث: أما أنا فأعتزل النساء فلا أنكح، فلما بلغ الخبر لرسول الله ﷺ قال: «**أَمَا وَإِني أَقُومُ وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِر وَأَنْكح النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1].

يا رسول الله.. الناس أرادوا أن يتعبدوا! نعم.. لكن إرادة التعبد هذه ليست مقصودها الطاعة حقيقة.. وإنما هي اختلطت بمرادات النفس.. هم انتقصوا من فعل رسول الله أكمل الخلق ﷺ وجعلوا عباداتهم ليس على مراد الاتباع له.. لكن على مراد أهوائهم

(1) رواه **مسلم** في (الحديث: 3389)، **والنسائي** في (الحديث: 3217)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 3/ 259).

هم.. لما أرادوها على مراد أهوائهم كان ذلك سبباً في إعراض رسول الله عنهم وفي غضب رسول الله عليهم، بينما جاءتنا نماذج من الصحابة قاموا الليل كله.. ومن التابعين قاموا الليل كله، كان الإمام زين العابدين يصلي كل ليلة ألف ركعة وهو من أكابر أئمة التابعين في المدينة ومن أهل البيت، كان الإمام ثابت البناني وهو من أكابر التابعين من تلاميذ أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود.. كان يحيي الليل بثلاث مائة ركعة، الإمام أبو حنيفة أربعين سنة صلى الفجر بوضوء العشاء بمعنى أنه ما نام الليل كله، لم يكن ذلك منكراً عند السلف.. لكن الذي أنكره رسول الله على ذلك التنطّع.. بمعنى أن يريدوا أن يسيروا إلى الله كما يفهمون هم لا كما يريد الله ﷻ ، فهذا سر خفي في الاتباع غاب عنه كثير من الذين طلبوا صورة الاتباع واكتفوا بمظاهر الاتباع دون أن يفقهوا هذا المعنى.

يأتي الإنسان عنده شيء من المال يخطر على باله أنه يريد أن يبني مسجداً.. وبناء المساجد أمر عظيم كبير: «**مَنْ بَنَى مَسْجِداً لِلَّهِ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ، أو أَصْغَر بَنَى الله لَهُ بَيْتاً في الجَنَّة**»[1]، لكن قد يكون في جهة لا تحتاج إلى كثرة المساجد.. فيها من الفقراء من لا يجدون الطعام وفيها المساجد كثيرة.. هنا في هذه الحالة الشريعة تقول والأدب النبوي يقول أن يطعم لا أن يبني المسجد.. لكن إذا كانت المسألة بالهوى.. يريد له الذكر.. يريد له الشهرة.. مسجد فلان.. فلان بنى مسجداً.. يكون بذلك مائلاً إلى هوى

(1) رواه ابن ماجه في (الحديث: 738).

نفسه ونفسه تقول له أنت تعمل طاعة.. لكن الطاعة ترك بسببها طاعة أكبر منها بسبب أنه اتبع هوى نفسه.. وضيَّع نور الاتباع فيفوت الأجر الكبير والعياذ بالله من ذلك.

فاختلاط أمر هوى النفس على الإنسان يجعله يفوت الاتباع بصور شتى: أولها كما مر معكن أن يجعل الإنسان طاعته على غير وفق ما جاء عن رسول الله.. ليس على القاعدة التي جعلها رسول الله ﷺ، أو أن يضيع الاتباع في تفاصيل هذه الطاعة التي رضيها رسول الله ﷺ والتي سنها لنا رسول الله ﷺ وأمر بها لكن تدخل عليه أمراض نفسه فتحبط هذه الطاعة.

يقوم الإنسان للصلاة.. فتحدثه نفسه: أنك تقوم الليل الآن.. انظر إلى الناس كيف هم نائمون كيف.. يضيعون قيام الليل. هؤلاء فاسدون.. أنت أفضل منهم.. يصدق نفسه بهذا الخاطر.. يعتقد أنه أفضل من الناس.. أضاع الاتباع بأن رضي بالعجب والكبر.. أحبط قيامه لليل والعياذ بالله. أو يأتيه خاطر يقول: ها الآن سوف تمر الوالدة وأنا أصلي.. ويمر أخي وتمر أختي.. يمر الولد، يمر الزوج يرونني وأنا أقوم الليل.. تفرح أن الناس يرونها وهي تقوم الليل، أصبح الأمر رياء أحبط العمل والعياذ بالله؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشركة.. إن رأى القلب ملتفتاً إلى الخلق قال خلاص أعمالكم للخلق.. اطلبوا جزاءكم يوم القيامة ممن عملتم لهم.. أنتم لم تعملوا خالصين لي.

هذه قوادح تحصل في الأعمال بسبب نقص نور الاتباع..

بسبب نقص التعلم لأحكام الله تعالى في قيام مثل هذا الأمر.. ثم بعد ذلك إذا عرف هذا الأمر وطلب العلم وفقه كيف يكون متبعاً.. عرف إذا استقبل طريق الاتباع وطلب حلاوتها أنَّ قبْلَ حلاوتها، مرارتها.. فإن ثمن حلاوة الاتباع وعزة المعبود لا يستطيع إنسان أن يصفها في الدنيا قبل الآخرة، إن ذواق لذة أن تستقر نفسك على قدم الاتباع للحبيب المصطفى تذوقين بها لذة من الإيمان.. الجنة الحسية التي ليس فيها نور الرضوان وليس فيها النظر إلى وجه الله الكريم ومجاورة المصطفى.. هذه الجنة الحسية تتضاءل أمام لذة ذواق جرعة من كأس الاتباع على وصف الصدق الكامل مع الله تعالى.

ولكن هذه الحلاوة التي تنازل القلوب على الاتباع قبلها مرارة.. أتعرفين ما هي هذه المرارة؟ مرارة المخالفة للنفس.. مرارة المخالفة للنفس، إن من أصعب ما يتجرع الإنسان في حياته: جرعة المخالفة لنفسه، نفسي تريد كذا أتركها من أجل الله تعالى.. أخالفها لأتبع أمر رسول الله، هذه المرارة إن جرع المؤمن نفسه كأسها أثابته حلاوة الاتباع.. فإذا استقبلته حلاوة الاتباع انكشف له أمر كان غائباً عنه.. هذا الأمر هو أن الاتباع ليس مرتبة واحدة وإنما هو مراتب؛ فمن الناس من يكتفون بالاتباع بفعل الواجبات وترك المحرمات وهم على خير كبير إن ثبتوا على ذلك.. «**أَفْلَحَ وَأَبِيه إِنْ صَدَقَ**»[1] قال ﷺ في الرجل الذي قال: لا أزيد على فعل

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 46)، **ومسلم** في (الحديث: 100)، **وأبو داود** في (الحديث: 391، 392)، **والنسائي** في (الحديث: 457).

الواجبات وترك المحرمات، لكن هناك معنى أرقى في الاتباع وهو أيضاً الارتباط بالاتباع في فعل السنن وترك المكروهات، ثم يرتقي الإنسان فيتبع في المباحات.. ثم يرتقي الإنسان فيتبع في خواطر قلبه، ما معنى أن يتبع في خواطر قلبه؟

الاتباع نوعان:

نوع مقدور عليه ونوع غير مقدور عليه إلا بتوفيق الله، النوع المقدور عليه: هو الذي يبذل الإنسان فيه جهده في فعل الفرائض وترك المحرمات.. في فعل السنن وترك المكروهات.. في ربط المباحات بالسنن والآداب.. يقدر الإنسان على ذلك، يخالف نفسه.. المؤمنة تريد أن تغتاب.. لا.. الاتباع يأمرني أن لا أغتاب، تسكت، تريد أن تخرج إلى السوق وتختلط بالناس والرجال وتذهب وتخالطهم في شراء البضائع وتعرف أن هذا لا يليق بالمؤمنة.. تمنع نفسها وهي مشتاقة إليه، تريد أن تفاخر أو تباهي.. اشتريت هذا الثوب بقيمة كذا.. أو هذه السيارة من شركة كذا.. أو من نوع كذا.. فتخالف نفسها اتباعاً لله.. هذه مقدورة عند الإنسان بتوفيق الله تعالى.

هناك أمر آخر في البداية لا يكون مقدوراً للإنسان.. أي لم يجعل الله تعالى في البداية للإنسان قدرة على التحكم عليه وهو: برودة هذا الأمر على القلب، بمعنى أن الإنسان مع اتباعه لا يجد

في نفسه ضيقاً من ذلك.. لا يجد منازعة.. لا يجد صعوبة.. لا يجد اعتراضاً في باطنه.. هذا الأمر صعب.. لكن إذا صدق الإنسان مع ربه في الأمر الأول.. وروّض نفسه وأذاقها المرارة.. يحصل على الأمر الثاني، يقول ﷺ: **«لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ»** ما يؤمن بمعنى: لا يكمل إيمانه **«لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَى يَكُون هَوَاه تَبعاً لما جئت به»**[1] ما معنى هذا الكلام؟

تقرئين في السيرة أن أنس بن مالك رضي الله عنه وأرضاه قال: فوالله ما زلت أحب الدباء مذ رأيت رسول الله يتتبعها في الصحفة، الدباء: طعام.. يسمونه القرع الآن.. الدباء طعام.. والطعام ليس له دخل في الصلاة أو في الصيام بهذا المعنى.. اشتهاء الإنسان لنوع الطعام أمر يرجع إلى رغبة الإنسان.. إلى ميل الإنسان.. لا يملك الإنسان أن يشتهي التمر في الإفطار لأن رسول الله أفطر على التمر.. لكن يملك أن يفطر على التمر.. ممكن يؤذن المؤذن والنفس تشتهي شيئاً غير التمر لكن تخالفين النفس وتطعمينها التمر وهي كارهة رغبة في السنة.. لكن أن يتحول التمر إلى مطلوب.. إلى مشتهى.. بمعنى أن يوافق باطنك.. أن توافق نفسك في هواها ما جاء عن الحبيب.. هذه ثمرة الاتباع.. الأول المقدور عليه.. هذا غير مقدور عليه في البداية لكن إن صدق الإنسان، يثمره هذا الأمر.. هذا أمر الاتباع الأول يثمر هذا النوع الراقي من الاتباع بأن يكون هواه تبعاً لما جاء به رسول الله.. وهي

(1) رواه ابن حجر في «فتح الباري» (الحديث: 13/ 289).

أعلى مراتب الارتباط بالمصطفى، قال الله تعالى مخاطباً نبيه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يكمل إيمانهم ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ هذه القاعدة الأولى.. أن أرجع إليه ﷺ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ يخالفوا أنفسهم فيفعلوا ما أردت ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1] بمعنى: أن أهواءهم أصبحت هي تميل إلى ما كنت أنت تميل إليه إلى ما تريده أنت.. وهذا المعنى هو المعنى الراقي لحقيقة الاتباع، وكم أضاع الناس أوقاتهم وأعمارهم.. كثير من الملتزمين الراغبين في السير إلى الله بحثوا عن الاتباع وترك الابتداع وأضاعوا كثيراً من أوقاتهم في التحقق من أمور قد سبق السلف الصالح وتحققوا منها وانتهت.. هذه سنة هذه بدعة.. نمسك المسبحة سنّة أم بدعة؟ أنا أريد الاتباع ما أريد الابتداع.. الاتباع وترك الابتداع في الكلام الذي مر.. في مخالفة النفس وهواها من أجل الله.. في أن تجعلي عباداتك على قدم المتابعة للحبيب.. في أن تبحثي عن تذوقك لرضا نفسك بهذه المتابعة.. وهذه المتابعة الباطنة التي ينبغي أن تقيميها وتقيمي من أجلها المتابعة الظاهرة، أما الوقوف على الأمور التي قد بتَّ فيها السلف الصالح وجعلوا لها قواعد تعود إليها وتحجيمها وجعلها هي القاعدة في المعاملة مع الناس وشغل الناس.. الثوب يطوّل الثوب يقصر.. المسبحة.. نرفع الصوت بالصلاة على النبي أو نخفض.. هذه الصيغة وردت أو ما وردت.. بعد الصلاة نذكر الله أو ما نذكر

(1) سورة: النساء، الآية: 65.

الله. . نصلي التراويح عشرين أو ثمانية. وكأن الإسلام منذ ألف وأربعمائة سنة لم يُخْدَم حتى جاء هذا الفكر في العصر الأخير ليجدد خدمة الإسلام. . هذه المسائل من حيث الحكم هل هي اتباع أو غير اتباع قد انتهى منها السلف الصالح. . وجاءت قواعد أقاموها في فهمها.

كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة:

الكلام عن البدعة: جاء في الحديث في مسلم. . نسمع الكلام. . «**كُلُّ مُحْدَثَة بِدْعَةٍ وَكُلُّ بِدْعَةٌ ضَلاَلَة وَكُلُّ ضَلاَلَة في النَّار**»(1) خلاص كل بدعة ضلالة؟! ما يتأتى نقول هناك بدعة طيبة؟! من قال لك هذا الكلام؟! قال: النبي يقول: «**كل**»! نقول: وهل فهمت الفرق بين معنى: «**كل**» في اللغة ومعنى: «**كل**» في علم الأصول؟ الأخذ بالنصوص دون الرجوع إلى كلام الأئمة مصيبة نزلت بالأمة، بدعوى الاتباع وترك الابتداع شغلتهم عن المعاني القلبية في السير إلى الله فصار الإنسان في سيره إلى الله يشتغل أشهر وسنوات وهو مشغول. . آل فلان مبتدعون. . آل فلان مشركون. . هؤلاء كذا. . الفرقة الفلانية. . ومشغول بالناس وما فكر في لحظة من اللحظات ما عيوب نفسه هو في صلته بالله؟ ما فكر في لحظة من اللحظات ما منزلته في الانكسار والذلة لله؟ ما فكر في لحظة من

---

(1) رواه مسلم في (الحديث: 2002)، والنسائي في (الحديث: 1577)، وابن ماجه في (الحديث: 45)، والإمام أحمد في (الحديث: 4/ 126).

اللحظات في مخالفة هوى نفسه في تعاملاته مع من حوله؟ لكن انشغل: الفرقة الفلانية.. الفرقة الفلانية.. هؤلاء فعلهم.. هؤلاء تركهم.. هؤلاء كذا.. هؤلاء كذا.. وكأن الله أقامه حكماً على الناس، ولكن لو رجع إلى كلام أهل العلم الذين كانوا قبله.. رجعنا إلى شرح البخاري.. ما هو أعظم شروح البخاري؟ فتح الباري للإمام أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني وجدناه يقول أن البدعة تجري عليها الأحكام الخمسة.. ما معنى الأحكام الخمسة؟ يعني هناك بدعة واجبة وهناك بدعة مندوبة وهناك بدعة مباحة وهناك بدعة مكروهة وهناك بدعة محرمة.

البدعة الواجبة: مثل تأليف الكتب في الرد على الذين يعتدون على الإسلام ويضللون المسلمين.. البدعة الواجبة كان ما فعله سيدنا أبو بكر الصديق في جمع القرآن لأن رسول الله لم يأمر بجمع القرآن في مصحف واحد.. لذلك لما تشاور هو وعمر واستدعوا زيداً وقالوا له نريد منك أن تجمع القرآن في مصحف واحد.. قال زيد: ولكن هذا الأمر لم يفعلهُ رسول الله ـ بدعة ـ ما فعله رسول الله.. فقال سيدنا أبو بكر: ولكنه خير يا زيد، بمعنى أن حُفاظ القرآن قد استشهد أكثرهم في معارك الردة ونخشى على القرآن.. مع أن الله قد تكفل للقرآن بالحفظ لكن هذا الفهم لمعنى أن يبتدعوا شيئاً يحبه الله تعالى في حفظ الدين ينبغي أن يقوم، والحجة هنا ليست في فعل الصديق فقط حتى لا يقولوا أنه من الخلفاء وله الحق في أن يسنّ سنة، ولكن الحجة هنا في العلة التي ذكرها أبو بكر عندما قيل له إن هذا أمر لم يفعله رسول الله قال: ولكنه خير ـ

تأملوا ـ **ولكنه خير** أي أن هناك من الخير ما لم ينص عليه الشارع تفصيلاً وإنما يدخل تحت نص عام.

رجل قام وألَّف كتاباً في النَّيل من رسول الله.. وهذا الكتاب أثر على الناس.. يجب أن نؤلف كتاباً في الرد عليه مع أن هذا لم يكن في عصر رسول الله.. تأليف الكتب لم يكن موجوداً لكنه أصبح واجباً.

هناك بدع مستحبة.. مندوبة.. مثل بدعة بناء مدارس تحفيظ القرآن.. هل بنى رسول الله مدارس لتحفيظ القرآن؟ هل أقام رسول الله جامعات لتدرس الشريعة؟ لا، لم يقم ذلك، هل جمع رسول الله الناس، بل هل جمع الصحابة، هل جمع أهل القرون الأولى الناس ليصلوا التراويح ويختموا فيها ختمة كاملة؟ حتى لما جمع الناس سيدنا عمر وقال نعمت البدعة هي على عشرين ركعة كما هو رأي الجمهور لم يكن يجمعهم على ختمة كاملة ولم يكن يحدد ليلة تسعة وعشرين أو ليلة سبعة وعشرين لختم القرآن، كل هذا ما كانت في زمن الصحابة ولا التابعين، بدعة أحدثت ابتدعت لكنها مندوبة.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: البدعة المحمودة هي التي ترجع إلى أصل من أصول الدين.. هذا الشرط الأول.. ترجع إلى أصل في الشريعة.. والشرط الثاني: أن لا تخالف حكماً من أحكام الله، أن يكون لها أصل ولا تخالف حكماً.

وهناك بدع محرمة.. وهي التي نهى عنها رسول الله.. التي تخالف شريعة رسول الله ليس لها أصل في الدين.. قال

رسول الله ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا**» ابتدعوا شيئاً جديداً «**أَمَّا الأَوَّل فَرِجَالٌ يَضرِبُونَ النَّاس بِسِياطٍ كَأَذْنَابِ البَقَرِ وَأَمَّا الثَانِي فَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلاتٌ مُمِيلاتٌ لا يَدْخُلْن الجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا ليوجَدُ مِنْ مَسافَةِ كَذَا وكَذَا**»[1] على اختلاف الروايات، هذا نوع من الابتداع نهى عنه الله ﷻ في الدين.. لأن حكم الدين الحجاب.. ابتدعن سفور النساء فخالفن هذا الحكم.. على هذه القاعدة قال الإمام ابن حجر ومثله الإمام النووي في شرح مسلم قسم البدعة إلى هذه الأحكام الخمس.

وخلاصة ذلك: أن هناك بدعة لغوية وبدعة شرعية، البدعة اللغوية: كل ما أحدث على الإطلاق.. كل محدثة بدعة.. فهي البدعة اللغوية.. واللغوية تدخل عليها الأحكام الخمسة هذه، وهناك بدعة شرعية التي ليس لها أصل في الشريعة.. ابتدع الإنسان في الدين: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ**».. أهل الأصول يقولون: هناك منطوق النص وهناك مفهوم النص، منطوق النص: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهوَ رَدٌّ**»[2]، مفهومه: من أحدث في أمرنا هذا ما هو منه فليس برد، الذي أحدث ما ليس منه رد.. لكن الذي أحدث ما هو منه ليس برد، لهذا فهم الإمام

(1) رواه **مسلم** في (الحديث: 5547) و(الحديث: 7123)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 2/ 355).

(2) رواه **البخاري** في (الحديث: 2697)، و**مسلم** في (الحديث: 4467)، و**أبو داود** في (الحديث: 4606)، و**ابن ماجه** في (الحديث: 14)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 6/ 73).

النووي ذلك في شرح هذا الحديث في شرح صحيح مسلم، وعليه كان عامة السلف الصالح في فهمهم لهذه المعاني، ونرجع إلى إستخدام لفظة «**كل**»: هي في اللغة تعني: الشمول ولكنها في الشرع قد تكون مخصصة مثل قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[1]. والواقع أنه لم يكن يأخذ كل السفن، ولذلك عاب الخضر السفينة لكي يتركها. ولو اعتبرنا «**كل**» هنا عامة شاملة لا تخصيص فيها لوقعنا في تحريم المحدثات الدنيوية كالسيارات والطائرات والنظارات وغيرها: لأنّ النص بأن «**كل**» محدثة بدعة ولا تقسم إلى محدثة دين ومحدثة دنيا، وإن قلنا بجواز التخصيص هنا بأنها للمحدثات الدنيوية إذاً يجوز التخصيص في التي تليها «**وكل بدعة ضلالة**» أنها البدع السيئة.

ما هي قاعدة تلقي الأحكام الشرعية؟

من أين جاء الخلل على الناس الآن؟ حتى صار الناس يُشوّشون ويُشْغَلون في سلوكهم في سيرهم إلى الله، كثير من الأخوات يكتبن رسائل: أنا أحببت أن أصلي على النبي ﷺ.. واحدة من الأخوات كتبت رسالة: شعرت بذوق في صلاتي على النبي وشعرت بخشية وببكاء وبمحبة النبي تسري إلى قلبي وأنا أقرأ شمائله وسيرته قالت: فحذرتني بعض الأخوات: لا تغالي، لا تكثري من الصلاة على النبي، نخاف عليك من الغلو.. نخاف

(1) سورة: الكهف، الآية: 79

عليك من الابتداع.. هذا فعل الصوفية. ما هذا الكلام؟!

أبعد أن يقول رسول الله ﷺ: **«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَة صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً، مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عَشْرة صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا مَائة، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَائة صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا أَلْفاً»**(1) كما جاء أيضاً في الترمذي(2) بسند حسن: جاء أحدهم وقال: يا رسول الله.. كم أجعل لك من صلاتي؟ قال: **«ما شئت»**، قال: أجعل لك الربع.. [ربع وقتي بعد الفرائض أمضيه في الصلاة عليك.. ربع طاعاتي]، قال: **«مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَخَيْر»**، قال: الثلث.. قال: **«مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَخَيْر»**، قال: النصف يا رسول الله.. قال: **«مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَخَيْر»**، قال: إذاً أجعل لك صلاتي كلها يا رسول الله.. [كل وقتي الذي في الطاعة بعد الفرائض والرواتب وقراءة القرآن أشغله بالصلاة عليك]، قال: **«إذاً تُكْفَى هَمَّك ويُغْفَر لك ذَنْبُكَ»**.. يعني أنت المستفيد مهما أكثرت من الصلاة والسلام عليّ.

فما الذي جعل بعض الأخوات يترددن؟ قالت: أورثتني الشك بالكلام هذا الذي أتين به.. السبب: عدم الاستبصار في عمن نأخذ أوامر الله ونواهيه.. من الذي نتلقى عنه الأحكام؟ عمن نتلقى الأحكام فنثق بهذه الأحكام؟ تلقي الأحكام ليس عن كل من هب ودب.. هناك قاعدة في تلقي الأحكام الشرعية.. ليست

---

(1) رواه **مسلم** في (الحديث: 911)، **وأبو داود** في (الحديث: 1530)، **والترمذي** في (الحديث: 485)، **والنسائي** في (الحديث: 1295)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 2/ 372).

(2) رواه **الترمذي** في (الحديث: 2457).

القاعدة أنواع المؤلفات أو الأشرطة، أو حسن الكلام، أو وسائل الإعلام. . القاعدة: الذي سيتكلم عن العلم عمن أخذ هذا العلم؟ وشيخه أخذه عمن؟ السند المتصل. . لأنه كما أن أهل الإسلام اعتنوا بالسند في النص أيضاً لهم سند في فهم النص. . وتأملي حتى تفهمي.

جاء حديث. . نقول ما سند هذا الحديث؟ يقولون: صحيح، من رواه: قالوا: البخاري أو في غير البخاري، حسناً ماذا يقول الحديث؟ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ لَحم القَعود فَلْيَتَوَضَّأ**»[1]، لحم الإبل إذاً ينقض الوضوء. . قال: نعم هذا نص ظاهر. . فعند الإمام الشافعي وعند الإمام مالك لا ينقض الوضوء. . كيف لا ينقض الوضوء؟! هذا فيه حديث! مالك والشافعي يخالفون النبي ﷺ؟! نقول: تأمل وتأدب. . تريث. . المسألة ليست فقط النص لتأخذ منه. . المسألة من أين أتيت بالفهم هذا الذي فهمته. . ليس مجرد أن يكون الحديث صحيحاً لتأخذ به. . ربما يكون حديثاً صحيحاً منسوخاً. . ربما يكون حديثاً صحيحاً ورد حديث صحيح آخر أقوى منه يرده أو يُأوِّل هذا الثاني للأول، فلذلك هناك قاعدة في الأخذ. . الإمام الشافعي ماذا فهم من الحديث؟ الإمام الشافعي فهم أن النبي يقصد رجلاً من الصحابة. . جاء في رواية أخرى أن رجلاً كان أكل من لحم القعود ثم خرج منه ريح. . فلم يُرِدْ رسول الله ﷺ أن يحرجه في المجلس ويقول له أنت خرج منك

---

(1) رواه **أبو داود** في (الحديث: 184)، **والترمذي** في (الحديث: 81)، **وابن ماجه** في (الحديث: 494)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 4/ 352).

الريح، قال: «**مَنْ أَكَلَ لَحْم القَعود فَلْيَتَوضأ**»[1]، وأخذوا برواية أخرى أنه أكل أو رأى من يأكل ويصلي بغير وضوء فلم ينهه ﷺ، والإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ أخذ بظاهر هذا الحديث واكتفى، كلاهما على حق.

فإذاً إذا أخذنا الفهم للنص عن إمام من الأئمة بسند متصل في التلقي كان النص صحيحاً، لكن إن أخذناه بمجرد الفهم الظاهر الذي نراه أمامنا للنص فهذا الأمر يحتاج إلى توقف وإلى تنبه.. لهذا كانوا يقولون: تأملوا أو تحققوا عن من تأخذون دينكم، كنا إذا جلسنا بين يدي شيوخنا ﷺ ورحم الله من انتقل منهم إلى الدار الآخرة، وأمتع الله ونفع الله بمن بقي منهم وأخذوا يقرءون يقولون: هذا البخاري.. هيا نقرأ البخاري.. نجلس في مجلس البخاري.. يقول: أنا تلقيت البخاري عن أبي أو عن شيخي وشيخي تلقاه عن شيخه فلان وشيخه فلان عن فلان ويذكر السند إلى الإمام البخاري نفسه.. إلى الإمام الذي روى هذه الأحاديث.. ثم بعد ذلك يقول: هذا الحديث أبي أخبرني أن الفهم منه كذا وشيخي أو أبي أخبره شيخه وشيخه أخبره شيخه إلى أحد الأئمة المعتبرين مثل شارح البخاري، فيصبح النص وفهم النص متلقى بالسند.. متلقى بأصول عن النبي ﷺ.

ثم إذا تأملنا.. إذا جئنا نستشهد بحديث من البخاري أو من مسلم.. السند إلى البخاري وإلى مسلم كيف كانت وجهتهم؟ هل

(1) تقدم تخريجه بمثل الحديث الذي قبله.

كانوا على هذا المنهج أو على هذا المنهج أو على هذا المنهج؟ نتأمل في تراجم الرجال الذين رووا لنا البخاري.. الذين رووا لنا مسلم.. الذين رووا لنا السنن الأربعة.. الذين نأخذ عنهم سند القرآن.. كيف كانت عقيدتهم؟ كيف كان مسلكهم؟ كيف كان فهمهم للنصوص؟ ما نقرأ في ترجمة من تراجم هؤلاء الأئمة إلا ونجد أنه كان صاحب كثرة صلاة على النبي ﷺ.. كان صاحب محبة للنبي وتعلق به.. كان له من الكرامات ما له.. كان قواماً لليل صواماً للنهار.. كان.. كان.. كان على القواعد التي نسمع الآن من ينقضها.. من يتكلم عليها.. عامة شراح الحديث: الحافظ ابن حجر.. الإمام النووي.. صاحب تحفة الأحوذي.. الإمام الحافظ السيوطي.. الحافظ زين الدين العراقي.. الحافظ السبكي.. الحافظ السخاوي.. عامة حفاظ الحديث أكثرهم إما أشاعرة أو ماتريدية، نسمع الآن من يكفر.. من يرمي بالبدعة أهل المنهج الأشعري أو الماتريدي.. عامتهم أهل مذاهب إما شافعية أو مالكية وإلا أحناف وإلا حنابلة، نسمع اليوم من يذم المذاهب.. عامتهم أهل مسلك تصوف، يعني: تصفية القلب.. نسمع اليوم من يشتم ويسب ويجعل التصوف تهمة أمام الناس.. إذا أرادوا أن يسبوا أحداً يقولون: فلان صوفي.. احذروا هذا الشيخ لسانه مؤثر في القلوب لكنه صوفي لا تسمعوا له.. أصبحت الموازين منقلبة منعكسة في الأمة حتى بين من يتصدر الآن للتعليم.. إذا رجعنا لشرح الإمام النووي لصحيح مسلم في المجلد الأول.. نجده لما يترجم يذكر سنده هو في رواية مسلم من الإمام النووي إلى الإمام مسلم.. الرجال الذين تسلسل

فيهم السند. . فإذا أراد أن يثني على أحد منهم يقول: وكان صوفياً. . وكان من الصوفية. . جعلها لفظة الثناء. . كانوا أكابر أئمة السلف الصالح يفتخرون أن لهم ارتباط بأهل الطريق.

ما معنى الصوفية؟

يعني الذين سلكوا طريق تصفية القلوب. . الإحسان. . كان هذا مسلكهم في السير إلى الله. . إن الصوفية هم صفوة هذه الأمة. . هم خلاصة التابعين وتابعي التابعين، بل حتى الذين يُرجع إليهم اليوم، والذين ينقلون مقالاتهم في الكلام على أهل الله وعلى الصالحين. . نجدهم هم يفتخرون أن لهم ارتباطاً بالصوفية. . نرجع لمجلد التصوف لكتاب ابن تيمية في الفتاوى وهو من الذين يحتج به الإخوان الذين يشتمون، أو يتجرؤون على الصوفية، وعلى الصالحين، وعلى الأئمة السابقين. ابن تيمية في الفتاوى نجده يفتخر في كتابه هذا ذو صلة بسند يتّصل بالإمام عبد القادر الجيلاني. . هذا في كلام ابن تيمية.

نأتي إلى ابن القيم أيضاً الذي يحتجون به. . نجده شرح كتاباً في ثلاثة مجلدات من كتب التصوف اسمه: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين. . كتاب في التصوف، نرجع إلى كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل. . نجده كتاب في التصوف، نرجع إلى سير أعلام النبلاء للإمام الحافظ الذهبي من أكابر حفاظ الحديث الذين يُرجع إليهم. . نجده لما ترجم للأئمة ترجم لأكابر أئمة التصوف. . نرجع إلى صفة الصفوة للإمام ابن الجوزي. . اقرئي صفة الصفوة. .

تجدين أكابر أئمة التصوف في العصور المتقدمة هم الذين يُترجم لهم في هذا الكتاب، لكن لما يصبح الأمر قلب حقائق.. يصبح الشتم بما كان السابقون يمدحون به، فلهذا ينبغي للمؤمنة لتضع قدمها على الاتباع أن تتفقه وتنتبه ممن تأخذ.. ترجع إلى كتب المتقدمين من السلف الصالح.. وترجع إلى الأسانيد في رواية هذه الكتب، وتلح على الله بالصدق في أن يفتح لها باب التنبيه والبيان.. ستجد عجائب من البيان تظهر لها.

كلام المجترئين على الله وعلى رسوله وعلى دينه وعلى الصالحين ليس بحجة على الأمة، تتبُّع بعض السقطات ونقل بعض عبارات مدعي التصوف، أو من نُسبوا إلى التصوف، فلم يُحْكِموا الكلام ليس بحجة، الحجة فيما عليه سلف الأمة، اقرئي كتاب صفة الصفوة لابن الجوزي سترين أقطاب التصوف.. أئمة التصوف هم صدور هذا الكتاب، اقرئي سير أعلام النبلاء للإمام الحافظ الذهبي سترينه يترجم لأكابر الصوفية، ويتكلم عن بعضهم كما روى الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه سير أعلام النبلاء في ترجمة (معروف الكرخي) وهو من كبار أئمة الصوفية.. تلقى عن الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين إمام أهل البيت في عصره، تلقى عنه معروف الكرخي وكان من أكابر الصالحين.. ترجم له الإمام الذهبي في سِيَر أعلام النبلاء ثم قال: «وقبر معروف ترياق مجرب»، أثنى عليهم وأثنى حتى على ضرائحهم فكيف على أشخاصهم؟!

هذا حال الحفاظ الذين في الحديث نقول كلهم قد يخطئون

وقد يصيبون، لكن إذا كان الأمر متعلق بالعقائد كما يزعم الجهلة اليوم إذاً نحن نطعن في عقائد السلف الصالح أجمع.. إذاً عقيدة ابن الجوزي باطلة.. عقيدة الإمام النووي باطلة.. لأن الإمام النووي ترجم لشيوخه في رواية مسلم ومدحهم بأنهم من الصوفية، إذاً عقائد الإمام الذهبي باطلة.. عقائد الإمام السيوطي باطلة.. عقائد الإمام السبكي.. الإمام السخاوي.. الإمام أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر.. أئمة المذاهب كانوا يرجعون إلى الصوفية ويأخذون بكلامهم في ترقيق القلوب، وقصص الإمام أحمد بن حنبل مع بشر الحافي، ومع الحارث المحاسبي معروفة، الإمام الشافعي.. الإمام مالك.. الإمام أبي حنيفة.. هم أئمة هذا الطريق، وكان السلف الصالح إذا أرادوا أن يثنوا على أحد يقولون: صوفي.. أي: تحقق بمقام الإحسان.

وتشكيك البعض في الصوفية لن نسكت عنه، البعض يقول: لو تجنبتموه.. لا لن نتجنبه.. لأن هذا تجني على الأمة بأكملها، اليوم تحويل صورة التصوف في أذهان الناس إلى أنه باطل وضلال وشرك وكفر وخطة يهودية تبث بيننا؛ لأن هذا الكلام معناه.. إن كان أهل الصوفية هم أهل الضلال والباطل والشرك، معناه عدم الثقة بالقرآن ولا بالسنة، لِمَ؟ لأن جميع أسانيدنا نحن أهل الإسلام في رواية الكتاب والسنة مليئة بأئمة التصوف، لا يستطيع أحد بل يعجز أن يروي سنداً صحيحاً في إجازة قراءة من القراءات السبع، أو القراءات العشر للقرآن الكريم إلا وفي أثناء السند إمام من أئمة التصوف.. فإن كانوا ضلالاً مشركين أهل سوء إذاً روايتنا للقرآن

مشكوك فيها؛ لأن سندنا إلى القرآن فيه ضلال وأهل سوء والعياذ بالله من ذلك، لا يتأتى أن يروي الإنسان سنداً واحداً من عصرنا إلى البخاري.. إلى مسلم.. إلى جميع كتب الحديث إلا وهو مُرَصَّع بأئمة الصوفية.. فإن قلنا أنهم مشركون وأهل ضلال، وسكتنا على هذا الكلام معناه الجيل الذي سيأتي بعدنا.. تعلم أن الصوفية أهل ضلال فيقرأ.. إذا تعلم وقرأ.. نحن الآن عندنا كسل في القراءة لذلك تنطلي علينا هذه الأكاذيب التي ترُوَّج في خطب البعض، أو في أشرطتهم، أو في كتبهم ممن لم يراعوا تقوى الله جلَّ جلاله في الكلام عن الصالحين.. لكن سيأتي جيل بعدنا سيقرأ سيبحث.. جيلنا هذا لو قرأ وبحث بعد أن اقتنع أن الصوفية هم الضلال المشركون كما يقول أولئك.. إذا بحث الجيل سيجد أن جميع الروايات عن طريق صوفية، فإذا كانوا أهل ضلال إذاً ليس عندنا روايات موثوق بها في رواية الكتاب والسنة، فهو طعن في أصل الكتاب والسنة في طريقنا إلى الكتاب والسنة، هذا الأمر ينبغي للمسلمين أن ينتبهوا له.

نعم أقول أن بعض من نُسِبَ إلى التصوف، وكثيراً ممن نسب إلى التصوف في عصرنا هذا قد ضلوا وحادوا عن الطريق، لكن ليس هذا بمبرر للكلام عن الصوفية، مر معنا في الكلام أن كثيراً من حفاظ الحديث ومن المحدثين.. من المنسوبين إلى الحديث.. وضعوا أحاديث على رسول ﷺ وكذبوا عليه.. نذم علم الحديث؛ لأن من المحدثين من كذب على رسول الله؟! نذم علم الفقه؛ لأن من الفقهاء من زَوَّر وخان الأحكام والفتاوى لأجل السلاطين؟! نذم

في العقيدة.. في التوحيد؛ لأن بعض علماء التوحيد مالوا إلى التعطيل، أو مالوا إلى التشبيه، وخرجوا عن العقيدة الصحيحة؟ لا.. كذلك التصوف.. لا نذمه؛ لأن بعض منسوبيه أخطئوا في عباراتهم أو اجترؤوا في كلماتهم، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكون حذراً، كما أن عقيدة التوحيد تصحيح للعقيدة.. الفقه تصحيح للمعاملات والعبادات.. التصوف تصحيح لباطن العقيدة ولباطن المعاملات مع الله، باطن العقيدة: اليقين، باطن المعاملات مع الله: الإخلاص والتواضع والأدب مع الله.. هذه المعاني ما تتأتى إلا بالتصوف، كل المواضيع التي خضنا فيها في هذا الكتاب هي التصوف، لو كنا قلنا: كتاب في التصوف لما قرأته واحدة منكن.. صحيح؟ بسبب الذي نسمعه في الإعلام.. بسبب كثرة الهجوم على أهل الله.. لكن لما قلنا معالم سلوك المسلمة الكل اهتمّ وقرأ، هذا معالم السلوك هو علم التصوف.. هذه الصفحات الآتية كلها هي التصوف بعينه.. هي علم التصوف، هل ترين في الكلام الذي سيمرّ عليكن شيئاً، يخالف الدين؟ ليس هذا السؤال.. هل تعتقدن أن سيراً إلى الله يصلح بغير هذا العلم الذي سيمرّ عليكن؟ من غير تحقيق الإخلاص وترك الرياء؟ لا يصح لنا أمر المعاملة مع الله إلا بأساسيات التصوف.

أما الاسم من أين جاء وكيف جاء وما ورد عن النبي.. النبي ﷺ ما قال: صوفية.. هذا من الجهل المركب! هل قال النبي ﷺ: (محدثون)؟ هل قال النبي ﷺ (حفاظ؟) هل قال النبي ﷺ: (أصوليون)؟ هل قال النبي ﷺ: (رُتباً) مثل التي

يقولونها الآن؟ هل قال النبي (شيخ الإسلام)؟ هل قال النبي ﷺ: (المفتي)؟ ما قال النبي بهذه الألفاظ، لكن الأمة اصطلحت عليها ولا مشاحة في الاصطلاح، الإشكال ليس في الاسم.. الإشكال في المسمى.

رحم الله أبا الحسن الندوي.. كان من كبار علماء الصوفية المفكرين في عصرنا هذا.. كان قادريّ الطريقة.. يقول.. يَضرب مثلاً قال: هناك أكلة في الهند وذَكَر مكوناتها.. لتقريب كلامه؛ لأنا لا نعرف الأكلة الهندية نضرب مثلاً قريباً منها يقول: لو قيل لفلان ما رأيك في الخيار مثلاً؟ الخيار مفيد للصحة.. ما رأيك في الجزر؟ ما شاء الله يقوي النظر.. الطماطم (البندورة).. ما رأيك في الخس؟ تمام.. فيه فيتامين كذا وكذا.. ما رأيك في السلطة؟ لا، لا، لا السلطة ما تنفع مضرة! ما هي السلطة؟ خس وخيار وطماطم، ما رأيك في الزهد؟ قال: أوه ما شاء الله هذا أصل في الدين مهم.. ما رأيك في الورع؟ ما رأيك في التوكل على الله؟ ما رأيك في اليقين؟ ما رأيك في الخوف؟ في الرجاء؟ ما رأيك في التخلص من الرياء دقائقه وعظائمه؟ التخلص من العجب؟ من الكبر؟ يقول لك: هذا واجب في الدين.. ما رأيك في التصوف؟ لا، لا، لا لا.. لا تقولوا تصوف!!.... سطحية جهل في الفهم فينبغي للمؤمن أن يربأ بنفسه عن ذلك، هذا الوقت كله نضيعه لنثبت أن التصوف حق.. ما عندنا وقت نضيعه! بدل أن نجلس ونقول الكلام حق أو ليس حق اسلك مسلك التصوف الصحيح.. بدل أن تضيع الوقت على المسلمين يصلح أو لا يصلح.. الوقت

الذي أضعناه في إثبات هل هو صحيح أو لا، كنا سنقطع به مسافة في فهم حقيقته وكيف يتحول إلى عمل بعد ذلك.

ما هو دعاء قضاء الحاجة؟

صلاة الحاجة، التي مرت عن عثمان بن حنيف ﷺ.. يصلي الإنسان ركعتين بنية الحاجة ويقول: «**اللهم إني أتوجه إليك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، يا أحمد، يا أبا القاسم إني أتوجه بك إلى الله في أن يقضي حاجتي**»، تذكر حاجتها ثم تقول: «**اللهم شفعه فيّ بجاهه عندك**»[1]، هذا ورد في سنن الترمذي، وفي مستدرك الحاكم، وفي سنن البيهقي، وفي عدد من كتب الحديث، وسنده صحيح.. وجعل هذه المسألة في حياة النبي ﷺ وتحريمها بعد وفاة النبي جهل قبيح؛ لأن الذي يتوسل بالنبي ﷺ في حياته ثم لا يتوسل به بعد وفاته كأنه يعتقد أن النفع من جسد النبي... من حياة النبي ﷺ الدنيوية وليس النفع من الله.. فإذا مات النبي انقطع النفع.. هذا باطل! لا أحد ينفع من دون الله لا الحي ولا الميت، وبإذن الله الحي والميت، ورسول الله علمنا إياها، وعثمان بن حنيف ورد أنه علمها لبعض من سأله أن يتوسط له عند سيدنا عثمان بن عفان في أيام خلافته فعلمه إياها، علمها لرجل كيف يقرأ هذا الدعاء صلاة الحاجة في عصر سيدنا عثمان بن عفان ويكفينا بعقائد الصحابة حجة لنا.

---

(1) رواه **الترمذي في** (الحديث: 3578)، **وابن ماجه في** (الحديث: 1385).

كيف يميز بين العلم النافع وغير النافع؟

العلم النافع هو الذي يورث القلب الخشية.. كل علم بعد أن يتعلم الإنسان منه باباً يجد خشية في قلبه.. يجد رغبة إلى الله.. يجد شوقاً إلى الله في باطنه.. يجد همة في الإقبال على الله هو العلم النافع، العلم خشية كله.. يعرف بذاك أهله ـ العلم النافع ـ هو الذي يربي الإنسان.. يشعر الإنسان بنقصه.. بعجزه أمام الله تعالى، العلم النافع: قال الله.. قال رسول الله ـ العلم النافع ـ أقوال السلف الصالح من أئمة الدين ـ العلم النافع ـ العلم الذي يبين للإنسان معايب نفسه في صلته بالله تعالى، وهناك قدر من العلم النافع يسمونه العلم الواجب.. فرض العين الذي يأثم الإنسان إذا لم يتعلمه، فالعلم النافع علمان: علم فرض عين وفرض كفاية، فرض العين هو الذي ما تصح العقيدة إلا به.. القدر الذي لا تصح العقيدة إلا به: فالإيمان بالله وبصفاته وبأنبيائه ورسله.. أركان الإيمان.. فهمها.. التحقق بها، في الفقه: الذي لا تصح العبادة إلا به والمعاملة إلا به لمن عامل، في السلوك السير إلى الله.. في مقام الإحسان: الذي يوضح للإنسان كيف يتخلص من محبطات الأعمال حتى يصح عمله في المعاملة مع الله جلَّ جلاله.. هذا العلم الواجب ما زاد بعد عليه في التوسع يسمونه العلم الكفائي.. ما معنى الكفائي؟ يعني إذا علمه البعض كفى عن الكل وإذا أهمله الكل يأثم كل من استطاع أن يتعلمه.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من أهل العلم حقيقة لا

صورة وأن يكرمنا بحقيقة العلم وأن يرقينا إلى مراتب أهل الصدق معه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كيفية الخشوع في الصلاة:

على قدر ما يقرّ في القلب من تعظيم الله يحصل الحضور والخشوع في الصلاة.. وعلى قدر ما ينقص في القلب من تعظيم الله ينقص الحضور والخشوع في الصلاة.. تأملي هذا المعنى.. والذي يملأ ويزيد عظمة الله في القلب: تعظيم ما عظم الله وتحقير ما حقر الله.. لا تجتمع عظمة الله ووهم عظمة الدنيا في قلب قط، بقدر ما يحصل في القلب من تعظيم للدنيا ينقص تعظيم الله في القلب.. وبقدر ما يزداد في القلب من تعظيم الله ينقصُ تعظيم الدنيا.. لا يتأتى أن يتناسبا أبداً إلا بالتضاد.

أيضاً ربط القلب بتعظيم من عظم الله.. الكعبة.. البلد الحرام.. المواطن المقدسة.. الأيام المقدسة.. الأنبياء.. الرسل.. الملائكة.. الأئمة.. الصالحون.. محبتهم وتعظيمهم من أجل الله تورث ملء القلب بعظمة الله ﷻ ، الإدمان لقراءة القرآن مع التدبر.. التفكر في مخلوقات الله كيف أتقن الله صنعها.. تملأ القلب بعظمة الله.. أيضاً الاستعداد قبل الصلاة بحسن الوضوء وحضور القلب مع الله، قالوا: غالباً من غفل في الوضوء غفل في الصلاة.. ومن حضر مع الله في الوضوء حضر مع الله في الصلاة، وأول أمر الحضور والخشوع في الصلاة يكون تكلفاً ثم يصبح تألفاً. يألفه الإنسان بعد ذلك.

السبيل للخشوع عند تلاوة القرآن

قلة دمع العين عند قراءة القرآن إما أن تكون بسبب عدم التفكر والتفهم لألفاظ القرآن.. أو لإخلال بشيء من آداب الشريعة في قراءة القرآن.. فلو راعى الإنسان الأدب عند قراءة القرآن لكان ذلك أقرب إلى خشوعه.. وإذا راعى أن يتفهم معاني القرآن بشيء من التفسير ولو المختصرات كالجلالين أو الموضحات للمتأخرين كتفسير الشيخ الصابوني: صفوة التفاسير.. أو لمن أرادت أن تتوسط في الأخذ والتلقي: البغوي أو التوسع: ابن جرير.. هذه التفاسير لو اعتنى الإنسان بشيء منها وتأمل المعاني كان أقرب إلى الحضور مع الله تعالى، وربما شيء من محبة الدنيا في القلب يحول بين الإنسان وبين الحضور مع الله في القرآن وبين البكاء، أو ربما الشعور بالأفضلية على الغير.

كيف نستطيع التجاوز عن إساءة الآخرين؟

لا تقري نفسك على أن تكرهي أحداً ولو أخطأ معك.. مهما أخطأ بحقكِ إنسان ووجدت في نفسك استثقالاً له ابدئي أولاً بالدعاء لهم وإن كانت نفسك لم ترض بذلك.. ادعي لمن أساء إليك أن يغفر الله له. أن يهديه.. أن يصلحه.. ادعي له أن يوفقه الله.. في البداية سيكون الأمر ثقيلاً لكن لو صدقت مع الله سيخف شيئاً، فشيئاً ثم بعد ذلك ستجدين أن الله قد استل الكراهية من قلبك، ثم تأملي.. هؤلاء الذين أخطؤوا عليك ألم يكن ذلك بتقدير الله؟هم يحاسبون لأن لهم اختياراً لكن ما دام هناك تقدير لله لم

يسلطهم الله عليك إلا لخطإٍ منك.. أو لأن الله يريد أن يرقيك فإذا راعيت مثل هذه المعاني كان ذلك سبباً في أن يكون قلبك طاهراً على الناس الذين يسيؤون إليك.. أيضاً تذكري يوم القيامة.. هل تحبين أن يعفو الله عنك؟ أسأت في حق الله أو ما أسأت؟ أسأت! كلنا أسأنا وأسأنا وأسأنا مع الله ونسأل الله أن يغفر.. وأن يرحمنا ساعة الوقوف بين يديه.. وإذا أردنا أن يتجاوز الله عن إساءاتنا فينبغي أن نتجاوز نحن عن إساءات خلقه فإن الذي يطهر قلبه على الناس يقبله الله تعالى يوم القيامة.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من أهل العلم حقيقة لا صورة وأن يكرمنا بحقيقة العلم وأن يرقينا إلى مراتب أهل الصدق معه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كيف نتجاوز المعوقات الأربعة

الحمد لله.. الحمد لله الموفق المعين.. ونسأله جل ذكره أن يفتح علينا بالفتح المبين، وصلى الله وسلم وبارك وكرم على حبيبه وصفيه ونبيّه سيّدنا محمد سيّد المرسلين.. وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

مرّ معنا فيما قبل في انبعاث باعث الهمة في الإقبال على الله تعالى، وأن أول قدم توضع في طريق السّير إلى الله هي تصحيح التوبة والرجوع إليه، ومر معنا أن شروط التوبة أن يقلع العبد عن المعصية وأن يعزم على عدم العودة إليها، وقِوام ذلك كله هو الندم؛ فإن صح الندم صحت التوبة.. وإن كان الندم معلولاً علت التوبة، ومر أن هناك شرطاً آخر يضاف وهو التخلص من حقوق الخلق.. إبراء الذمة من حقوق الناس، ومر أن من لا توبة له فلا مقام له، ومر أن التوبة باب عظيم لحصول المحبوبية عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[1]، كما مر علينا أن الأساس في السَّير إلى الله تعالى في بدايته لا بد وأن يُؤَسَّس على العلم.. وأن العلم مفتاحٌ لحصول الاتباع.. العلم المأخوذ بنية العمل والتعليم هو مفتاح

(1) سورة: البقرة، الآية: 222.

الدخول إلى دائرة الاتباع. . ومرَّ معنا أن الأساس في السيِّر إلى الله أيضاً هو أن يكون على قدم الاتباع للحبيب المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومر أن السِّر في أمر تعظيم أمر الاتباع هو خروج الإنسان من منازعة نفسه لربه. . بأن يترك ما تريده نفسه لما يريد منه الله ﷻ .

ومر أيضاً مراتب الاتباع والكلام عنها، كيف يترقى الإنسان في اتباعه بداية بترك المنهيات وفعل المأمورات. . ثم يرتقي إلى المحافظة على السنن وترك المكروهات. . ثم يَتَرَقَّى إلى الاتباع في ضبط الآداب في التعامل مع المباحات والنية في ذلك، ومر أيضاً أن هناك مرتبة عظيمة جليلة في الاتباع أسأل الله أن يكرمنا جميعاً بها وهي: أن يثمر صدق الاجتهاد في مخالفة النفس من أجل الله وحملها على صدق الاتباع. . أن يثمر في القلب تذوق لذة الاتباع بعد مرارته. . فيورث القلب استئناساً به يستتبع بهذا الاستئناس النفس. . فتصير النفس هي التي تهوى الاتباع بعد أن كانت تأمر بالسوء. . وشاهد ذلك كما مر قوله ﷺ : «**لا يُؤْمِنُ أَحَدكُمْ حَتَّى يَكُون هَوَاهُ تَبعاً لِمَا جئت بِهِ**»[1]، ومر الاستشهاد بما كان من شأن سيِّدنا أنس بأن لذة الاتباع لما نازلت قلبه. . سَرَت وَوَصَلَتْ حتى إلى مشتهيات طعامه وشرابه فقال: فما زلت أحب الدُّبَّاء مذ رأيت رسول الله يتتبعها في الصحفة.

ومن أقبل في طلب هذا المعنى. . وفي طلب تطهير نفسه عن

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

الصفات الذميمة.. وتحليتها بالصفات المرضية عند الله.. وبدأ في سيره إلى الله.. قابلته في سيره إلى الله بعض المعوقات التي تريد أن تحول بينه وبين وصوله إلى رضوان ربه، ولكن قبل أن يأتي الحديث في هذه المعوقات ينبغي أن نُذَكِّر أنفسنا أن هذا العلم علم عمل.. فما أخبار تهيج قابلية الاتباع في قلوب من سمعن أوامر الله ونواهيه؟ من التي وقفت مع نفسها وقفة صدق تحاسب فيها نفسها عن ما مر من أيامها ولياليها وفي ما يقبل عليها.. بأي همة ستقبل؟ من التي سألت نفسها عن إتقان الفرائض، وضبط الجوارح عن المحرمات؟ من التي خاطبت نفسها في المحافظة على النوافل ابتداءً بالرواتب والوتر والضحى وترك المكروهات؟ من التي حثت نفسها على قيام شيء من آخر الليل، ومن التي قامت؟

فإن الثمرة من هذه المجالس ليس مجرد تحصيل المعلومات وضبطها وكتابتها وحفظها أو تسجيلها.. لأن النفع يبرز بإخراجها إلى قالب العمل، أسأل الله أن يوفقنا جميعاً لهذا الأمر.. وأن يشرح له الصدر، اللّهم يا من وفق أهل الخير للخير وأعانهم عليه.. وفقنا إلى الخير وأعنا عليه.

الإقبال على العلم بالعمل

وهناك سر لطيف في الإقبال على العمل بهذا العلم ينبغي أن تحرص عليه الصادقة في سيرها إلى الله، هذا السر اللطيف هو أن تفقه أن المقصود من إقبالها ومطالبتها لنفسها: أن تُقْبِل مستعينة

بالله، فإن الإنسان إن لم يُكْرَمْ بعون الله تعالى يعجز عن القيام بما يريد، فإذا أَقْبَلتِ على العمل فأقبلي حاثة لنفسك لائمة لها على التقاعس.. مرغبة إياها في الإقبال.. ومع هذا وذاك وقبله وبعده: متوجهة إلى الله.. ملحة عليه.. راغبة إليه.. طالبة منه أن يمدك بمدد التوفيق؛ فإن التوفيق عزيز ومن عِزَّتِهِ لم يذكر في القرآن على وجهه المَعْنِّي إلا مرة واحدة: **«وما توفيقي إلا بالله»**، فمن جاءت وتنبهت من هذا السر وهو أنها في همتها في الإقبال لا تغفل عن الاستعانة بالله لتسير إلى الله بالله لا بنفسها، كان ذلك سبباً لحصول سعادة لا منتهى لها تُنازل قلبها من جود ربها.

المعوقات التي تواجه الإنسان في سيره إلى الله:

العائق الأول: الدنيا

أما المعوقات التي تواجه الإنسان في سيره إلى الله **فأولها**: **الدنيا** التي خلقها الله تعالى.. وأمرها أن تكون خادمة لمن يخدمه.. وأمرها أن تكون سيدة على من يخدمها، قال الله في الحديث القدسي: **«يا دُنْيَا مَنْ خَدَمَنَا فَاخْدِمِيه وَمَنْ خَدَمِك فَاسْتَخْدِميه»**، فقد أمرها الله فلا تملك إلا أن تكون مجيبة. الدنيا خُلِقت لتكون ممراً لنا.. وسيلة لوصولنا إلى رضوان الله.. ولم تُخلق لتكن غاية نطلبها في حياتنا.. ولمّا أنها خلقت لتكون ممراً لنا كانت خادمة، والخادم وصفه الذلّ والمهانة.. ولا يتأتى أن ينظر إليها بنظرة الإجلال والإعظام.

التعامل مع الدنيا

الإشكال الذي يواجهنا في معاملتنا مع الدنيا على وصف الرغبة فيها أنه كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ ـ فيما رواه البيهقي ـ أنه قال: **«حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَة»**، فكل خطيئة تحصل بوسوسة شيطان، أو بدافع نفس أو بتحريض شياطين إنس، أو بسبب من الأسباب لو تتبعها الإنسان بشيء من البصيرة لوجد أن منتهاها له ارتباط بحب الدنيا.

لهذا إذا مَنَّ الله على المؤمنة بالإعراض عن محبة الدنيا ومكنَّها وصدقت في ذلك.. فقد مَنَّ عليها بقطع رأس الخطيئة؛ وإذا قطِع رأس الخطيئة ماتت الخطيئة، والسبب في كونها رأس كل خطيئة أن التوجه إليها بالمحبة فيه نقض لأصل ما وجهنا الله إليه في حياتنا ووجودنا. الأيام التي نقضيها في الدنيا قصيرة مهما توهمنا طولها إذا قسناها على ما بعدها.. لكن مع كونها قصيرة هي خطيرة كبيرة؛ لأنه يترتب عليها ما بعدها، الدنيا الستين سنة أو السبعين أو حتى المائة التي يعيشها الإنسان لا شيء أمام ملايين الملايين من السنوات التي سيعيشها إلى ما لا نهاية في الآخرة، لكن هذه الملايين الملايين التي لا تنتهي ولا تنقضي من الأعمال والدهور كلها قائمة على أساس السنوات القليلة الصغيرة التي نقضيها في الدنيا، فسعادة من يسعد وشقاوة من يشقى والعياذ بالله مربوطة على أساس هذه الأيام.

لن يدخل أحد الجنة فيتمتع بها؛ لأنه كان في بطن أمه ذاكراً لله، أو لأنه كان في صلب أبيه ذاكراً لله، فإن العمر الذي مر بنا قبل عمر الدنيا ليس بمرحلة تكليف.. لا يترتب عليه الأمر، وأيضاً لا

تترتب سعادة ولا شقاوة في الآخرة على فترة جلوسنا في قبورنا؛ لأنها ليست فترة تكليف.. وإنما فترة التكليف التي يدخل أهل الجنة على أساسها الجنة ويدخل أهل النار على أساسها النار.. التي يرضى الله فيها على من يرضى ويسخط على من يسخط هي هذه الأيام القليلة التي نعيشها في الدنيا، فإذا عرفنا أنها الأساس التي ينبني عليه ما بعده فقهنا خطورة التعامل مع هذه الدنيا.. وفقهنا سر قوله: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**».

الدنيا ملعونة ملعون ما فيها

فإذا كان الأمر على هذا النحو واستشعرنا هذا المعنى أدركنا أيضاً أن الله لما خلقها جعلها هي هي كدنيا مستقلة مبغوضة عنده.. حقرها الله وجعلها عدوة له، الدنيا عدوة الله.. وفي الحديث: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فيها إلا ذِكْرَ الله وَمَا وَالاَهُ أَوْ عَالماً أَوْ مُتَعَلِّماً**»(1) بمعنى: أن جميع المقاصد التي يخوض الناس الآن فيها في الدنيا إذا انقطعت عن الذكر أو العلم أو التعلم أو التعليم أو ما والى ذلك من الذي يعين على ذلك من مثل أخذ الأسباب في الحياة من أجل هذا الأمر الأصلي وهو الإقبال على الله.. ما سوى ذلك داخل في دائرة لعنة الله والعياذ بالله.

أيضاً الدنيا منذ أن خلقها الله لم ينظر إليها.. أي: نَظْر اعتبار.. نظر تقدير، أيضاً الدنيا خلقها الله لتكون دار الكدر، فهي

(1) رواه **الترمذي** في (الحديث: 2322)، و**ابن ماجه** في (الحديث: 4112).

مهما صفت لإنسان في يوم لابد وأن تتكدر عليه في الآخر... أيضاً مدتها قصيرة فالأحمق الذي يقيم شأن سعادته وينفق همته ووقته وعقله وجهده وحياته لينال فقط متعة في مدة قصيرة ويُضَيِّع المدة الطويلة... ومتعتها قليلة.. قليلة مهما توهم الإنسان اتساعها وكبرها، فالإنسان مهما نال من الدنيا ومهما حصّل.. فغاية ما يصل إليه من متعتها: خرقة يضعها على بدنه فَتَسْتر البدن إن كانت بألف أو بعشرة آلاف أو بمائة ألف أو حتى بعشرة، وغاية ما يصل إليها منها لقمة مهما كان ثمنها أو لذتها عند الدخول.. فقيمتها إذا انقطعت عن مقاصد الدين تظهر عند الخروج.. فالإنسان مهما أكل من طعام شهي أو غال أو رفيع أو متنوع فالمخروج متحد، كان بعض العارفين يقول: «من أراد أن يعرف اتحاد المطعوم فلينظر إلى اتحاد المخروج».

وغاية ما يتمتع به الإنسان من دنياه مركوب يركبه إن كان بمائة ألف أو بمائتين أو بخمسمائة ألف أو بثلاثين ألف أو بخمسين ألف، أو كان من النوع الصغير بعشرة آلاف فقيمته لا تتعدى أن يوصلك إلى المكان الذي تريده.. هذه حقيقة قيمته، أما التمتع بمظهره.. الشعور بالزهو عند الركوب فيه.. الشعور بالزهو عند لبس الخرقة.. هذه أوهام يعيشها الإنسان بأنها متع وليست بمتع.. لكن حقيقة المتعة.. حقيقة الاستفادة الدنيوية المنقطعة عن الآخرة مهما غلت فالفناء نهايتها، وحتّى مكان يأوي إليه الإنسان لينام فيه.. إن كان بقيمة كذا أو بقيمة كذا محصلته أن الإنسان يجد قسطاً من الوقت يُعَبِّر فيه عن ضعفه وحاجته ليخلد إلى النوم وكأنه ميت أو

كأنه جمادٌ لا يتحرك، ما سوى ذلك من بهارج الدنيا.. من مظاهرها.. من شؤونها.. سرابٌ لا حقيقة له إلا في وهم النفس الأمارة بالسوء.

المتع التي يتمتع الناس بها خارجة عن هذه الأشياء التي ذُكِرت مما يتوهَّمونه متعة.. حقيقته لا ترجع إليه، فليست المتعة في ألوان الثياب.. ولا في نوعها.. ولا في ملمسها.. ولا في قيمتها، لكن متعة الإنسان الموهومة في أمر ذاتي فيه هو وليست في الثياب، وهي صفات قد رضي أن تنطوي عليها نفسه وهي صفات غير مَرْضية، رضي أن يكون فيه وصف الكبر.. ففرح بالثوب الفاخر ليتكبر به على غيره، رضي بوصف حب المنزلة في قلوب الخلق أن يُشارَ إليه بالبنان.. ففرح وتمتع بأن يكون ثوبه بقيمة كذا، إذاً المتعة ليست في الثوب.. متعة الثوب فقط أن تستر البدن أو وقاية من البرد، لكن مظاهر الوهم الذي يعيشه الناس.. يرجع إلى أحوال أمراض في أنفسهم هم.. وليست إلى أحوال متعة فيما يتعاطونه أو يتعاملون به، فضلاً عن أن يكون تمتعهم بشيء قد حرَّمه الله ﷻ ولم يرضه لهم.. فهذا من باب أولى، هنا تأتي متعة النفس الأمارة بالسوء مع الشيطان إذا اتحدا في معاملتهما للإنسان.. وهذا أمرٌ سيأتي الكلام فيه بعد الفراغ ـ إن شاء الله تعالى ـ من الكلام عن التعامل مع الدنيا.

سُئل بعض العارفين: لم زهدت في الدنيا وأعرضت عنها؟ فقال: لخصال فيها.. قالوا: وما تلك؟ قال: لقصر مدتها.. وكثرة كدورتها.. ولقلة غنائها.. وكثرة عنائها.. وسرعة فنائها.. وخسة

شركائها، ما الخبر؟ قال: **لقلة غنائها**.. هي ليست بغنية وإن توهمنا غناها.. **لسرعة فنائها**.. ما تلبث أن تفارقني وأفارقها، **وكثرة عنائها**.. كثيراً ما تجزعني من الإشكالات ومن الآلام ومن المصائب ما لا مزيد عليه، **وخسة شركائها**.. قال: ما دخلت باباً من أبواب الدنيا إلا وجدت كافراً أو فاجراً أو ساقطاً من عين الله تعالى قد سبقني إليه فهو يشاركني فيه، ما من متعة من متع الدنيا هذه التي تحيط بنا إلا ويشاركنا في أمثالها وربما أكثر منها كثير من الكفار.. قال: لما تأملت هذا المعنى قززتها.. مللتها.. احتقرتها.. اشمأزت نفسي منها.

الدنيا عدوة الله

وقال بعض الصالحين: هذا طريقٌ للزهد وليس هو أصل الزهد، وإنما أصل الزهد أن يتأمل الإنسان ويتفكر في كون الدنيا هي عدوة الله.. وهو يطلب أن يكون حبيب الله، يطلب أن يكون محبوباً عند الله وأن يصدق في محبته لله.. وعدوة حبيبي هي عدوة لي.. الدنيا عدوة ربي..، لو قيل لأحدنا: إن فلاناً من الناس عنده كذا وكذا من المال.. وعنده كذا وكذا من العقار.. وعنده كذا وكذا من الاستعداد.. وهو يمكن أن ينفعك.. يمكن أن يتعاون معك.. وأن يتعامل معك.. لكن في كل مجلس سيشتم أباك.. في كل مجلس سيحتقر أهلك.. هل يتقبل التعامل هذا؟ إن كان إنساناً سوياً لا يتأتى أن يتقبل هذا الأمر.. كيف تريدني أن أتعامل مع إنسان يعادي أبي؟!! يعادي عشيرتي! يعادي أولادي وأبنائي!

يسبهم ويتكلم عليهم ويريد أن يؤذيهم! كيف لو قالوا لك فلان.. أو قالوا لكِ فلان سيغدق بشيء من المال أو شيء من متاع الدنيا لكن بسبب إغداقه وعطائه سيأخذ أولادك ويجعلهم مدمنين للمخدرات والعياذ بالله.. هل تقبلين التعامل معه؟ لا.. لأنه سيعادي من أحببت. وأولادنا وآباؤنا وأمهاتنا وعشيرتنا والوجود أجمع ماذا يكون في محبتنا له أمام محبتنا لله تعالى؟ وإذا عرفنا أن الدنيا هي عدوة الله تعالى.. وقد اتخذها الله عدوة.. فكيف يتأتى أن نحب عدوة ربنا؟

هذا الأصل الذي ينبغي أن يقام عليه شأن شهودنا وفهمنا للدنيا، فالدنيا في ذاتها مذمومة.. وإنما يُستحسن منها ما يعين على الوصول إلى الله والدار الآخرة، أما هي في ذاتها فمذمومة...

جاء في بعض الأخبار أنها تأتي متزينة يوم القيامة في أبهج زينتها وحليها وتقول: رب اجعلني لأفقر أهل الجنة وأقلهم منزلة.. فيقول: لأنت أحقر عندي من أن أجعلك لأقل أهل الجنة منزلة أو أفقرهم.. اذهبوا بها فألقوها في النار.. فيلقون بها في النار فتهوي على وجهها.

فإذا عرفنا أن أصلها وذاتها ممقوت.. لم يتأتى لنا أن نتعامل معها إلا تعامل العابر للسبيل، **«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»**[1]، من فقه هذه المعاني.. بَحَث عن ما ينبغي عليه في

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 6416)، و**الترمذي** في (الحديث: 2333)، و**ابن ماجه** في (الحديث: 4114)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 2/ 24).

تحققه بمعنى: الزهد في الدنيا، والزهد في الدنيا أساس من أسس اليقين، فالدنيا معوقة.. تشغل الإنسان عن ربه.. تضيع وقته.. تغشُّه ببهرجتها.. تضيِّع وقته وعقله وجهده، لو تأملنا أحوالنا اليوم في الدنيا.. لوجدنا أن المشتغلين بأسبابها من الرجال أو من غيرهم.. أحدهم على الأقل ثلث وقته في العمل.. ومثله في النوم.. والباقي بين طعام وشراب وقضاء حاجة وتنزه ومجالسة للأصحاب، فما بقي لرب الأرباب؟

إذاً مذمّتها في شغلها إيانا عن الله.. مذمتها في تحبيبها الخطيئة إلينا.. «**رأس كل خطيئة**»، فإذاً عرفنا أنها معوّقة تحول بيننا وبين الله.. تحول بيننا وبين لذة المناجاة.

سُئل بعض العارفين: أيجد كمال التلذذ بمناجاة الله من كان في قلبه حب الدنيا؟ فقال: مه! وهل يشم رائحة التلذذ بمناجاة الله من كان في قلبه مثقال حبة خردل من حب الدنيا؟!

الزهد في الدنيا له معان ومقاصد

فإذاً عرفنا أنها عائق.. فما السبيل إلى التخلص من هذا العائق؟ السبيل هو الزهد في الدنيا، والزهد في الدنيا له معان وله مقاصد.. زهدنا في الدنيا أولاً في البداية لتأملنا لخستها.. لخسة شركائها.. لسرعة فنائها.. لقلة غناها.. لكثرة عنائها.. لكن بعد ذلك نرتقي.. فنزهد فيها؛ لأنها عدوة ربنا.

وما معنى زهدنا في الدنيا؟ معنى زهدنا في الدنيا: إعراضنا عن

الدنيا، الزهد له صورة وله حقيقة.. أما صورة الزهد: فتقلل الإنسان من مظاهر تنوع المطعم أو الملبس أو المتاع الفاني.. وهذه الصورة هي حسنة.. وكان عليها سيِّد الوجود وكثير من أصحابه ﷺ، إلا أنها ليست المقصود بذاتها، التقلل من متاع الدنيا وسيلة لحصول عدم الالتفات إليها في القلب، فإذاً حقيقة الزهد: إعراض القلب عن الدنيا.. حقيقة الزهد: استواء إقبالها وإعراضها.. حقيقة الزهد: أن يستوي عند الإنسان لبسه للثوب الذي قيمته ألف.. أو الثوب الذي قيمته مائة.. أو الثوب الذي قيمته عشرة، إذا صار الإنسان في خروجه إلى من يجالس وهو يلبس ثوباً بقيمة عشرة.. وفي اليوم الثاني مائة وفي اليوم الثالث ألف وفي اليوم الرابع خمسة على حدٍّ سواء فهو زاهدٌ حقيقةً في الدنيا، إذا استوى عنده اليوم الذي يملك فيه ألف ألف واليوم الذي لا يملك فيه إلا عشرة أو خمسة أو مائة.. قلبه وراحته وأنسه على حد سواء.. فهو زاهد في الدنيا حقيقة لا صورة، إذا استوى عنده ركوبه المركوب الذي قيمته مائة ألف والمركوب الذي قيمته عشرة آلاف فهو صاحب حقيقة زهد في الدنيا، فحقيقة الزهد في الدنيا: **استواء الإقبال واستواء الإعراض.. استواء الوجود واستواء العدم**.. إذا استوى هذا مع ذاك فالإنسان صاحب زهد في الدنيا، وهذه مرتبة رفيعة عالية.. لكن التدرج للوصول إليها في مخالفة النفس في إرادتها كثرة التنوع في مظاهر الدنيا.

يتذكر الإنسان مع تذكره بأنها عدوة الله وتفنى.. يتذكر أنه يوشك أن يناديه منادي الموت.. لا إله إلا الله.. يوشك أن يناديه

المنادي: بحثت لك في مشارق الأرض ومغاربها عن لقمة طعام فلم أجد، فلو اجتمع أهل الأرض على أن يطعموه لقمة ما استطاعوا.. ثم يناديه بعد قليل: بحثت لك في مشارق الأرض ومغاربها عن شربة ماء فلم أجد لك، فلو اجتمع أهل المشرق والمغرب على أن يسقوه شربة ما استطاعوا، ويناديه المنادي بعدها: يا هذا بحثت لك في مشارق الأرض ومغاربها عن نَفَسٍ واحد فلم أجد لك، فيقبض روحه قبل أن يتنفس، فإذا قبض روحه تأمل الدنيا التي كان فيها.. هل بقي له منها شيء؟ أين المال الذي أنفقتُ عمري في تحصيله؟ لم أعد أملك منه شيئاً، حتى ما أوصي به قد ضُبطَ بضوابط ليس لي أن أتعداها، حتى الثياب التي عليّ لم تعد ملكي.. أصبحتْ ملكاً للوَرَثة، أين سيارتي التي كنت أزهو بها وأفرح؟ لم تعد ملكي أصبحتْ ملكاً للورثة، أين منزلي الذي أنفقت عمري في تصفيفه وفي تزيينه وفي مظاهره؟ لم يعد لي منه شيءٌ وصار ملكاً للورثة، أين رصيدي الذي أضعت أيامي في تضخيمه؟ لم يعد لي منه فلسٌ واحد.. أصبح ملكاً للورثة، آه! أين متاعي وحليي؟ أصبح للورثة، بل قال بعض الفقهاء: لو أن الميت كان في فمه ضرس أو سِنَّةٌ من ذهب.. وأصر الورثة على انتزاعها لجاز لهم أن ينتزعوها؛ لأن الذهب من المال.. والمال عن الميت قد مال.

غاية ما تخرجين به من الدنيا

ثم بعد ذلك غاية ما تخرجُ أو تخرجين به من الدنيا إن برّكِ الورثة: ماء يغسلون به البدن.. وخرقة بيضاء.. إزار وثوب وخمارٌ

ولفافتان... من أي شركة؟ هل للكفن ماركة؟ من أي دولة استورد؟ أهو على الموضة؟ القماش ناعم أو غير ناعم؟ هل لإزاره قصة؟ هل لخماره زخرفة؟ لا.. قليل من الطيب والحنوط.. وحمل على الأعناق والأكتاف.. من يحملني؟ أحب الناس إليّ.. ولدك الذي ضممتيه في بطنك ثم أرضعتيه من ثديك ثم تعبت من أجل تربيته، إنْ برَّك ووُفقت فغاية أملك أن يحملك على ظهره... ولدي الذي أنفقت عليه وتعبت في تربيته.. واشتغلت الليل والنهار في تحصيل المال لأرضيه هو الذي سيحملني على كتفيه.. إلى أين؟ إلى أين تسيرون بي؟ إلى هذا المسجد الذي طالما قصرت في حقه.. إن كنت رجلاً طالما قصّرتَ في الصلاة فيه.. قصَّرتِ في حقه إن كنتِ امرأة.. فكم من أولادك يواظبون على المسجد؟ المساجد لها حال مع جيرانها.. يفدون بك على المسجد.. والمسجد لم يكن يعرف أبنائكِ مدة حياتك.. صلاة الفجر تشهد عليهم بالنوم وتضييعها.. الجمعة ربما يدركون آخرها.. هم الآن سيدخلونني إلى المسجد الذي بيني وبينه وحشة.. ثم أوضع في المسجد ثم يُصلى علي صلاة لا ركوع لها ولا سجود.

ثم يحملني أحب الناس وأعزهم ليضعوني على شفير القبر.. وهم بأيديهم أو بأيدي من يستأجرونه يحفرون لي قبري.. ماذا تصنعون؟ أين ستضعونني؟ أنا أبوكم أو أنا أمكم أو أخوكم أو أختكم أو زوجكم أو زوجتكم.. من؟ تتركوني وحيداً.. فريداً.. لا صاحب.. ماذا تصنعون؟ ماذا تهيئون لي؟ ينزل من أحب إلى قبري ليتلقاني بيديه. ويضعني في مضجعي.. إيه! بالأمس كنت

على السرير.. وضيّعت أيامي في الانشغال.. هذا الغطاء من نوع كذا وهذه المخدّة محشوّة بكذا، لِمَ لَمْ تأتوا بمخدتي معي؟ لِمَ لَمْ تأتوا بفراشي معي؟ هذه الحجرة التي أدخلتموني فيها لا يوجد فيها مصباح! من كنَسها، أين الخادمة؟ الجو في هذا الفصل حار أما وضعتم لي مكيفاً فيه بارد أما وضعتم لي مدفأة!

إيه! هذا حال سنقبل عليه يقيناً! وضعتموني في لحدي على شقي الأيمن.. أشعر بولدي يفتح العصابة التي على رأسي.. من جهة رأسي في رأس الكفن.. يكشف عن وجهي.. ماذا تصنع يا بني؟ هذا خدُّ أبيك أو هذا خدُّ أمك! أين تضعه؟ على التراب؟! نعم انتهى الأمر، «بسم الله وعلى ملة رسول الله وفي سبيل الله»، إلى أين تذهبون الآن؟ ما لكم ستتركوني في هذا المكان؟! إنهم يصعدون.. بقي قليل من الإضاءة من فتحة القبر، ماذا تفعلون؟ تغلقونها؟ تتركوني في ظلمة القبر؟! أهالوا التراب.. أسمع قرع نعالهم.. هناك من يبكي على فراقي وهناك من يدعو لي وهناك من يتلو القرآن فيُهدي ثوابه إلى روحي وهناك من يلقنني.. وبعدها؟ إلى أين تذهبون؟ أنا أبوكم أو أنا أمكم.. أخوكم.. أختكم.. ستذهبون جميعاً وتتركوني وحدي؟ ما هذه الحقيقة التي كنت في غفلةٍ عنها؟ هي مفاجأة في حق من غفل. من الأصحاب الجدد؟ أنتظر مَن في قبري؟ أحدُ صاحبين لا ثالث لهما: إما صاحبٌ كريه المنظر.. قبيح الصورة نتن الرائحة.. يدخل فيزيد القلب وحشة إلى وحشته.. ثم أقول: من أنت الذي أوحشني الله بك؟ زادك وحشة إلى وحشتك! فيقول: بل أنت زادك وحشة إلى وحشتك.. أنا

عملك الذي قدّمته.. أنا إيثارك للفاني على الباقي.. أنا تضييعك للزكاة.. أنا إهمالك للصلاة.. أنا غيبتك.. نميمتك.. أنا كذبك.. كبرك.. رياؤك.. عجبك. أنا احتقارك للناس.. أنا قطيعتك للرحم.. أنا عقوقك للوالدين.. أنا اجتراؤك على الله.. أنا غفلتك.. أنا عملك الذي قدمته فأبشر بالويل والثبور.

أو يدخل حسن الرائحة.. جميل المنظر.. وضَّاءُ المُحيا.. زكي النفس.. فأقول: من أنت الذي آنسني الله بك في وحشتي هذه.. آنسك الله وزادك أنساً، فيقول: بل أنت زادك الله أنساً.. أنا صلاتك بالليل والناس نيام.. أنا صدقة السر.. أنا المعروف والبر.. أنا تلاوتك للقرآن.. أنا صلاتك.. أنا صيامك.. أنا حجُّك.. أنا زكاتك.. أنا برُّك.. أنا صلتك. أنا زهدك في الدنيا، اطمئِن ولا تخف.. وسيأتي إليك الملكان فلا يهولانك ولا يفزعانك.

فمن عرف أن هذا الأمر هو نهاية الدنيا.. من عرف أن غاية ما يظفر به من الدنيا حنوط وكفن وقليل من الطيب يلف في كفنه ثم يوضع في تراب.. في حفرة.. فأيُّ عقلٍ عنده إذا رضي أن يكون همَّه وفكره وعقله وانتباهه وعمره ووقته وجهده يُبذل في الذي لا يرافقه ولا يسير معه؟! هذا الذي ينبغي أن يتنبّه له الإنسان، فإذا تنبه جعل ارتباطه بهذه الدنيا الغدَّارةِ المكَّارة.. الفرارة التاركة لأهلها الغادرة بهم.. ارتباطه بها على أنها وسيلة لتوصله إلى الله لا غير.. الدنيا رخيصة في ذاتها.. غالية إن صارت سُلماً لنا إلى الله مزرعة للآخرة.. فمن تأمل هذا المعنى جعل جميع تعاملاته مع الدنيا

مربوطة بالمقصد، إن لبس فله نية في ستر عورته، إن أكل فله نية في التنشُّطِ للطاعة. . للتقوي على الطاعة. . إن نام ليتنشط بعد ذلك لطاعة الله. . إن تكسَّب شيئاً من المال لينفق في سبيل الله. . إن حصَّل شيئاً من المتاع ليقدِّمه إلى الدار الآخرة، هذه المقاصد التي بها نتعامل مع الدنيا، وإذا صدقنا مع الله فيها أصبحت الدنيا وسيلة لقربنا إلى الله مهما اتَّسَعَت في أيدينا.

هذا المعنى الذي ينبغي أن نفقهه وأن نبحث عنه وأن نطلبه في حياتنا، إن التي يعسرُ عليها أن تتستر في لباسها ما السبب؟ لأنها بعدت عن المقاصد في التعامل مع اللباس. . لو كانت تلبس بنية أن تستر عورتها. . وتفهم أن هذا المقصود من اللباس. . لما صعب عليها أن تتستر. . لكنها تلبس لتلفت أنظار الناس إليها. . تلبس ليُقال ذوقها. . ليُقال شراؤها. . ليُقال لباسها. . تلبس لتظهر محاسنها. . هذه ليست المقاصد التي من أجلها نلبس. . لا لا. . لا ينبغي أن تكون. . لأنها مقاصد فانية. . جعلت قيمتك ووزنك ومنزلتك بخرقة فأنت خرقة. . جعلت قيمتك ومنزلتك ومكانك بصلتك بالله. . فمنزلتك بعظمة الصلة بالله. . والإنسان أسير ما يحبّ. .

هذه المعاني هي مفتاح لمن أرادت أن تعرف معنى تعاملها مع الدنيا، ومن أحكمَ زمام قاعدته في التعامل مع الدنيا. . مال إلى التقلل منها إلا على قدر الحاجة.

ومما يعين القلب على الزهد في الدنيا: مطالعة أحوال

الزاهدين... تفقد أحوال المساكين، لا تكتفي فقط بأن ترسلي المال إلى من يتصدق.. اجعلي جزءاً من المال لتتفقدي أنتِ به الفقراءُ الذين في بلدتك، اسألي عن النساء الفقيرات.. المحتاجات.. ولا تخلو بلد مهما غنيت من الفقراء، اذهبي وانظري إلى أحوالهم حتى تعرفي قدر النعمة التي أنتِ فيها فلا تسخطي نعمة الله تعالى، أيضاً ابتعدي عن كثرة مجالسة الغافلات اللاهيات المتفاخرات بالدنيا، كلما نظرت إلى شيء من متاع الدنيا بعين الإكرام أو الاشتهاء تذكري مآله.. ماذا أعجبك؟ هذا غداً يصبح لا شيء، فكلما تذكرتي فناءه وانتهاءه فُطمْتِ عن الافتتان به، كان بعض الصالحين يلح على الله بالدعاء فيقول: «**اللّهم أرني الدنيا بالعين التي أريتها عبادك الصالحين**».

والذي يصدق في فهم معنى التعامل مع الدنيا.. سرعان ما يطوى له بساط التعامل مع الدنيا، فيصبح وجودها وعدمها سواء.. وصاحب هذا المعنى مهما كان عنده من الدنيا فهو زاهد، والذي لا يكون هذا المعنى عنده مهما تقلل من الدنيا لم يستكمل نصاب الزْهد... قد يكون الإنسان فقير ما عنده شيء من المال وهو عند الله من أهل الدنيا؛ لأن قلبه متعلق بها ويتمنى أوان تحصيلها.. يحسد هذا الذي نال المال.. ويبغض هذا الذي نال التجارة.. ويتكبر على ذاك.. وينافس.. ويباغض.. هذا من أهل الدنيا وإن كان فقيراً، وهناك من عنده شيء من المال.. الكثير من الدنيا.. لكن لا يعبأ به، ينفقه في سبيل الله. يتصدق به. يخدم به دينه. يستوي إقباله وإعراضه.. لا يكثر من التوسع في مظاهره.. هذا

صاحب زهد في الدنيا، هذا المعنى الذي ينبغي أن نقف عليه في فهمنا لحقيقة الزهد.

فأول عقبة هي الدنيا وعلاجها الزهد.. وعلاجها فهم المقصود منها، فهي دار ممر وليست مقراً، ولو أن واحداً ذهب إلى بلدة.. ونزل في فندق فيها ليسكن ثلاثة أيام فقط.. فرأى أن.. السجادة على أرض الفندق ليست بالقيمة التي يحبها.. فاشترى سجادة بكذا كذا ألف، لم يعجبه لون الطلاء الذي في جدران الحجرة التي ينام فيها ثلاثة أيام أو ليلة، فطلب على نفقته من يغير لون الجدران.. ثم بعد ذلك غيَّر الإضاءة.. ثم بعد ذلك اشترى سريراً جديداً وضمَّه إلى المكان الذي فيه، لو فعل ذلك يقال عنه: أنه غبي.. أنه إحمق.. أنه مبذر.. أنه مسرف.. كيف تنفق هذه النفقة في ثلاثة أيام؟ أنت لم تجلس وليس مكانك هذا حتى تؤثثه.. نعم، والدنيا أقل من ثلاثة أيام نعيشها.. الذي ينفق همه وفكره في تجهيز شؤون دنياه.. كالذي ينفق همه وماله كله في تجهيز حجرة سينام فيها ليلة أو ليلتين أو ثلاث، هذا المعنى إذا تأمله الإنسان مع ما مر استعان بالله على طلب الزهد في الدنيا، رزقنا الله وإياكم ذلك.

العائق الثاني: الشيطان

ثم يستقبله **العائق الثاني وهو: الشيطان**.. مع أن الشيطان كثيرٌ انتشار أثره في العالم.. غير أنه أضعف العوائق التي تحول بين الإنسان وبين الله، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1] الله ﷻ يسمي

(1) سورة: النساء: الآية: 76.

كيده: ضعيفاً.. والضعيف لا يقوى إلا على الضعيف، «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّم**»[1].. الشيطان يوسوس للإنسان ويزين له المعاصي والإعراض عن الله.. السبب: أنَّ في قلبه حسداً على بني آدم، لما ميَّز الله آدم وطرده بسبب إبائِه أن يسجد لآدم حَقَدَ وحَسَدَ وتكبر على بني آدم.. فأصبح عدواً لهم يَثْقُلُ عليه إذا رأى إقبالهم على الله، والمشكلة أن أكثر الناس يُحَمِّل سائر أخطائه على الشيطان وهذا غير صحيح.

الشيطان ما استطاع أن يؤثر فيك إلا بسبب ضعفٍ في نفسك وفي مسلكك إلى الله تعالى.. وإلا ما استطاع أن يؤثر، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2] جعلنا الله من هؤلاء العباد، قال رسول ﷺ لسيدنا عمر ﷺ: «**إيه يَا ابن الخطاب.. مَا سَلَكْتَ فَجّاً**» أي طريقاً «**إلاَّ سَلَكَ الشَّيطَانُ فَجّاً غَيْرَه.. إنْ الشَّيطَان لَيَفْرَقُ مِنْ ظِلِّكَ يَا عُمَر**»[3].. يخاف من ظل سيِّدنا عمر.. ما السبب؟ **نور اليقين** الذي في قلب سيِّدنا عمر.. لا يجعل للشيطان سبيلاً في أن يقترب منه.

ودواء علة وجود الشيطان في ذات الشيطان: الاستعاذة بالملك

(1) رواه **البخاري في** (الحديث: 3035)، ومسلم في (الحديث: 5643)، **وأبو داود في** (الحديث: 2470)، **وابن ماجه في** (الحديث: 1779)، والإمام **أحمد في** (الحديث: 6/ 237).

(2) سورة: الحجر، الآية: 42.

(3) رواه **البخاري في** (الحديث: 3294)، ومسلم في (الحديث: 6152)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 1/ 171).

الديَّان، إذا أكثر الإنسان من الاستعاذة بالله من الشيطان.. والتجأ إلى الله وطلب حمايته.. فإن الشيطان يتضاءل ويصبح لا شيء، جاء في بعض الروايات: «لا تكثروا من سبِّ الشيطان وقولكم: فعل بي.. ترك بي.. فإن هذا يجعل الشيطان ينتفخ ويفرح، ولكن إذا مسَّكم شيء من ضُرِّ الشيطان فقولوا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أو قولوا: رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون.. فإن الشيطان يضمحِلُّ ويتضاءل حتى يصير كالذبابة» يصبح كالحشرة لما يسمع العبد يقول: أعوذ بالله.. ما معنى «أعوذ بالله»؟ يعني في حمايتك يا رب.. أنا عذت بك التجأت إليك.. أنا في جاهك يا رب.. هربت من هذا الشيطان. فإذا صدق الإنسان في الاستعاذة بالله من الشيطان كفاه الله الشيطان.

العائق الثالث: النفس

لكن الأصل في قوة أثر الشيطان فينا **العائق الثالث وهو: النفس**، لولا وجود الظلمة في النفس ما استطاع الشيطان أن يؤثر في أحد، لأن الشيطان ماذا يفعل؟ الشيطان لا يأخذ بيد أحد ويجعله يفعل المعصية.. الشيطان لا يأخذ بيد أحد ويوقعه فيما لا ينبغي.. الشيطان يخبره فقط.. يخاطبه.. بمعنى: الشيطان يوسوس له.. خاطر يقذفه في قلب الإنسان، فإن كانت النفس طاهرة.. زكية مع الله تعالى لما تقبلت هذا الخاطر ولما قبلته.. لكن بالقذر الذي في أنفسنا.. بالظلمة التي في أنفسنا.. ينفذ فينا قول الشيطان وتنفذ فينا حيل الشيطان، وله حيل ومكر.. بأشكال وبألوان.. وخلاصتها في

سبعة مداخل.. من تأملها وصدق في الاستعاذة بالله منها فإنه يُحْكِم إغلاق الباب على الشيطان بإذن الله.

المدخل الأول: صرف الإنسان عن العمل، فإن صدرت همة منك لصلاة.. قيام ليل.. بدأ يوسوس: لا أنت متعب... غداً لديك شغل.. نم باكراً لا تصلِّ! يصرفه عن العمل؛ فإن عصم الله الإنسان.. أو وفقه يقول: لابد لي من ذلك أنا محتاج إليه، فيحاول **بالمدخل الثاني**: وهو التسويف.. معنى التسويف مأخوذ من سوف.. سوف أفعل كذا.. سَوَّف بمعنى أخَّر.. غداً بعد غد، تقولين: فقط الليلة ارتاحي.. غداً ابدئي قيام الليل.. ابدئي قيام الليل من الأسبوع القادم.. طيب أنت الآن لما يصبح عمرك ثلاثين سنة ابدئي قومي الليل، لما تبلغين أربعين سنة ابدئي قومي الليل.. وما يدريك أنك تعيشين إلى هذا الوقت؟

فالمدخل الثاني «التسويف» وعلاجه: تذكر الموت، قل يا نفس السوء ويا شيطان أنا لا أدري هل أعيش إلى النفس القابل أو لا..، فتذكر الموت علاج لهذا المدخل.. وعمل اليوم لا يؤجل إلى الغد، لو أخّرت الطاعة التي أريد أن أعملها اليوم إلى الغد.. فمتى أعمل طاعة الغد؟ أجّلها إلى بعدها؛ فإذن تضييع كل وقت في غير طاعة هو إضاعة لأمر لا يمكن تعويضه أبداً.

المدخل الثالث: الرِّياء، يدخل الشيطان يقول: اعمل.. أصلح العمل.. لينظر الناس إليك.. إذا تصدقت أعْلِن.. تصدَّقت اتركهم يكتبون.. بنيت مسجداً يكتبون مسجد فلان.. طبعت كتاباً يكتبون

على نفقة فلان.. أهديتِ إلى الجمعية لا بد أن يعطوك جائزة.. يسجلونك.. فعلت كذا.. يحب الإنسان أن يُظهر عمله للناس ليستحسن الناس عمله فيستحسنوه، هذا الرياء: إرادة غير الله بالعمل وهو الشرك الذي نخاف منه، ليس الشرك الذي يدندن به الغفلة في هذا الزمان.. الشرك الأكبر، الأمة ـ والحمد لله ـ في عافية منه.. لكن الشرك الذي ينبغي أن ننتبه منه هو الأصغر الذي لا يُخرج عن الملة.. الشرك الخفي.. الذي هو أخفى من دبيب نملةٍ سوداء على صفاةٍ صمَّاء في ليلة ظلماء.. هذا الرياء، فإذا أراد الله أن يعصم العبد ملأ قلبه بشهود عظمة الله، فلا يقبل أن يصرف شيئاً لله إلى غيره، يتذكر أن الله أغنى الشركاء عن الشركة، إذا رأى عبداً أراده وغيره يقول: ابقَ أنت لغيري.. أنا غني غير محتاج إليك ولا إلى عبادتك، تذكُّر الإخلاص وحاجته إليه.. وأن الرياء محبط للعمل وأن الله لن يتقبل عمله، وأنه إساءة أدب مع الله.. فيبحث عن ملء قلبه بأنوار عظمة الله ويتذكر أنه مستغن بالله عن الناس.. إن رضي الله فرضاء الناس لا ينفع، فلم أطلب رضاهم بأمر أنا محتاجة فيه إلى رضاء الله تعالى؟! هكذا تتفكر المؤمنة.

ثم يأتي **المدخل الرابع** وهو: العجلة.. بسرعة بسرعة، تقرأ القرآن: هيا بسرعة حتى أُنهي الجزء الأول وبعده الجزء الثاني.. بلا تدبر بلا حسن تلاوة بلا اعتبار بلا تنبه، فالعجلة تحرم الإنسان نور العمل.. ثمرة العمل.. أثر العمل.. ذوق العمل، علاج ذلك: التأني، يقول: الله تعالى لا يريد مني كثرة بلبلة.. الله ﷻ يريد مني أن أنتفع بعملي هذا، أن أذوقه.. فيتأنى الإنسان ويأتي بالعمل كما

ينبغي، ويعين على ذلك القيام بالعمل وفق الأحكام الشرعية والسنة والآداب النبوية.

يأتي **المدخل الخامس**: كان الأول صرف الإنسان والثاني التسويف والثالث الرياء والرابع العجلة والخامس العجب، يأتي الشيطان إذا رأى الإنسان لا يرضى يترك، ولا رضى أن يؤجل، وأراد الإخلاص وما أراد العجلة، وتأنى، يقول: ما شاء الله عليك! انظر الشيطان حاول ـ هو الشيطان الذي يوسوس ـ الشيطان حاول أن يغويك وما استطاع! لا رياء ولا عجلة ولا انحراف.. أنت مستقيم! لا أحد مثلك!.. ينظر إلى العمل على أنه نابع ذاتياً منه هو، والحقيقة أنه بتوفيق الله.. لولا توفيق الله ما استطعنا.. فالعجب: المنة على الله، والعياذ بالله، في العمل، أن يعتقد الإنسان أن العمل بمحض إرادته هو، وعمله هو، وجهده هو: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[1]، أن يشعر الإنسان أن هذا الأمر نابع عنه ويغفل أنه بتوفيق الله.. وأنه لولا توفيق الله ما استطاع أن يطيع الله تعالى، فإذا أعجب بعمله كان العجب سبباً لإحباط العمل والعياذ بالله، والأمر الخامس والمدخل الخامس علاجه أن يتذكر الإنسان أنه عاجز.. بالأمس ما كان يطيع ولولا توفيق الله ما أطاع اليوم.. فينسب المسألة إلى الله، يقول: هذه مِنَّة من الله عليّ أكرمني بطاعته.. لولا الإكرام كنت أنا هين.. لو كنت هيناً عليه لا قيمة لي لرماني وتركني في المعصية.. لكن أراد الله أن يكرمني فهيأني للطاعة.

ثم إن يئس الشيطان من هذا المدخل يأتي **للمدخل السادس**:

---

(1) سورة: القصص، الآية: 78.

وهو مدخل دقيق من مداخل الرياء أُفرد بكونه وحده؛ لأنه يأتي بعد تخطي هذه العقبات، إذا يئس الشيطان من انصراف الإنسان عن الطاعة، أو من تسويفه أو من ريائه ظاهراً، أو من عجبه، أو من تعجله، يأتي له بنقطة دقيقة من الرياء قد تحبط عمله والعياذ بالله، يقول اسمع.. أخلص أنت لله.. لا تقصد وجه الناس بعملك، أخلص لله والله يظهر عملك بعدها للناس.. سبحان الله! كيف؟ كيف؟ قال أنت أخلص لله.. والله يظهر النور على وجهك.. ويجعل الناس هم يحبونك ويقبلون عليك. عجيب! الناس تطلب الإخلاص لماذا؟ لنيل رضوان الله أو نطلب الإخلاص لنيل رضوان الناس؟؟ وهذا الأمر دقيق، أكثر الناس يقعون فيه إذا لم يتعلموا هذا العلم.. علم السلوك.. علم تصفية القلوب.. علم التصوف.. هذا العلم مهم لتنبيه الناس للمصيبة التي يقعون فيها من حيث لا يشعرون.. يقول ماذا؟ قال: أنت أحسن العمل لله أخلص لله وهو يجعل الناس بعد ذلك تحبك وتقبل عليك، إذا أنت أخلصت لأجل الناس أيضاً تحبك وتقبل عليك لكن بطريقة أخرى خفية، ما بين هذه المرتبة الخفية وما بين المرتبة الجليَّة عدد من مراتب الرِّياء تحصل للإنسان في عمله.. ذكرها القوم في كتبهم وحذروا منها.

أيضاً العجب هذا الذي مر الكلام فيه له دقائق كما أن له عظائم، من دقائق العجب أنه خفي.. أمر خفي يشهد الإنسان أن له المنة على الآخرين بالإحسان. قال الإمام حجة الإسلام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ ونفعنا به يقول: أن الإنسان لو أحسن إلى شخص وشخص آخر لم يحسن إليه.. أنت أحسنت إلى واحدة وثانية ما

أحسنت إليها، الأولى التي أحسنت إليها والثانية التي لم تحسني إليها اتفقتا فأساءتا إليك.. تأثرك من الإساءة على حد سواء، أو تتأثري من واحدة أكثر؟؟ غالبنا يتأثر أكثر من الذي أحسن إليه.. أنا أحسنت إليه! أحسنت إليها ثم تقابلني بهذا العمل؟! هذه ما عندها معروف.. هذه طيب ما أحسنت إليها لكن هذه.. هذه.. اتق شر من أحسنت إليه!.. قال: هذه من دقائق العجب الذي عند الإنسان.. لأنه لو لم يكن أقام إحسانه على قاعدة أنه يرى له فضلاً لما كان تأثر أكثر.. لو كان عندما أحسن رأى المسألة من الله ما له دخل فيها.. المال مال الله والعبد عبد الله.. ويرى أن المنة لله عليه لولا توفيقه ما قدرت أتصدق.. أنا أعطيت هذه المسكينة وسخاً من وسخ الدنيا، في المقابل أُعطِيتُ بواسطتها رضوان الله.. أعطيت الأجر والثواب فما تساوي صدقتي هذه؟؟ ما يساوي إحساني أمام المقابل الذي نلته؟ فإذا نرى المنة للفقراء علينا وليست لنا على الفقراء، لكن إذا غفل الإنسان عن هذا الأدب شعر أن له يداً على الآخر.. فلما أساء هذا تألم منه زيادة من غيره قال هذه دقائق العجب التي تداخل الإنسان.

المدخل السابع: من مداخل الشيطان أن يأتي الشيطان إلى الإنسان فيقول له: أنت لماذا تتعب نفسك هكذا؟؟ لو كنت عند الله شقياً خلاص حتى لو عبدت الله في النهاية شقي! ولو كنت عند الله سعيداً حتى لو لعبت في النهاية يكرمك الله وتقول لا إلٰه إلا الله وتدخل الجنة، المسألة سوابق، وهذه من أخطر مداخل الشيطان! علاجه أن يقول الإنسان: أنا لم يخلقني الله لأسأل أنا شقي أو

سعيد. . خلقني الله وأمرني أن أطيعه وأترك معاصيه. . أنا أسير إليه أرغب فيه. . ثم بعد ذلك شقي سعيد هذه تعود إليه هو ﷻ، هذه مهمة الربوبية وليست مهمة العبودية. مهمة العبودية: أن أبذل الجهد في سيري إلى الله وأصدق مع الله في طاعته. . الثمرة هذه عنده ما هي عندي. . قال ﷺ: **«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»**[1].

قالوا إن بعض الصالحين عَبَدَ الله في صومعته عبادة كثيرة كبيرة من بني إسرائيل وكان مجتهداً ليله ونهاره. . ونظر جبريل عليه السلام فوجد الرجل شقياً في اللوح المحفوظ. . فاستأذن من الله بعد أن تعجب من هذا الأمر أن يخبر الرجل فأذن له الله فنزل وقال: يا فلان إني جبريل فرد عليه السلام، قال: إني وجدت اسمك في اللوح المحفوظ فلان ابن فلان شقي. . فأحببت أن أخبرك ما دمت شقياً ستذهب إلى النار تمتع قليلاً بالدنيا بدل أن تضيع حياتك، قال: الحمد لله على ذلك إنا لله وإنا إليه راجعون لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وعاد إلى عبادته لم ينقص مما سبق شيئاً، تعجب جبريل أكثر، نزل قال: أنا قلت لك أنك شقي. . قال: نعم إنا لله وإنا إليه راجعون ولله المراد، قال: فمالك لا زلت في عبادتك وإعراضك عن الدنيا وعدم التمتع بها، قال: يا هذا خلقني وأمرني بعبادته ولم يوكل إليَّ أكون شقياً أو سعيداً. . مهمتي أن أعبد والأمر

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 1362)، و**مسلم** في (الحديث: 6675)، و**أبو داود** في (الحديث: 4694)، و**الترمذي** في (الحديث: 2136)، و**ابن ماجه** في (الحديث: 78)، و**الإمام أحمد** في (الحديث: 1/ 82).

إليه بعد ذلك، فازداد تعجب جبريل فصعد ووجد في اللوح المحفوظ: سعيد سعيد سعيد.. ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1].

فالأصل أن يتنبه الإنسان، وهناك دقيقة من دقائق الشيطان، وهي أن يُغْفِل الإنسان عن إمكانية تأثير الشيطان، هو ضعيف نعم لكن ضعفي أنا الذي فيّ ممكن بسببه أي لحظة يدخل الشيطان عليّ، فلا يمر على الإنسان وقت يشعر فيه أنه خلاص ضمن.. أمن من الشيطان، الشيطان له مكائد من هنا ومن هناك تضل الإنسان، قالوا أن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ إمام أهل السنة نفعنا الله به: لما كان في سكرات الموت كان مَن حوله يقولون له: لا إلٰه إلا الله.. وطلابه يريدونه أن ينطق بالكلمة عند السكرات.. عند سكرات الموت.. ثبتنا الله وإياكم عندها، كانوا يقولون له: لا إلٰه إلا الله، فقال لهم: لا ليس بعد، لا إلٰه إلا الله! أحمد بن حنبل عند الموت يحرم من لا إلٰه إلا الله؟ سوء خاتمة! كيف هذا؟ فأفاق من السكرة التي كان فيها قال: هل كنتم تكلمونني؟ قالوا: نعم وهم مذهولون، قال: ماذا كنتم تقولون؟ قالوا: كنا نقول لك لا إله إلا الله نريدك أن تنطق بها وكنت تقول لنا لا ليس بعد، قال: أما وإني لم أكن أسمعكم ولم أكن أكلمكم ولكني في سكرتي أتاني إبليس وهو عاض على إصبعه ويقول: أفلتّ مني يا ابن حنبل.. أفلت مني يا ابن حنبل.. فقلت له: لا ليس بعد أراد الخبيث أن يختم

(1) سورة: الرعد، الآية: 39.

عمري بالعجب.. أن أقول نعم أفلت منك، فأعجب بنفسي فأموت وألقى الله وأنا معجب بنفسي فيحبط عملي والعياذ بالله. قال فلما قلت له: لا ليس بعد ما دامت الروح في الجسد قال: بكى إبليس وقال: لقد أضللْتُ بهذه الحيلة سبعين عالماً، علماء! أضللتهم بها.. جعلتهم يموتون على غير حال حسنة.

وجاء عن بعض الصالحين أنه كان وهو في سكرات الموت يقولون له: قل لا إلٰه إلا الله فكان يقول بقلبه لأن لسانه قد أمسك.. فجاءه إبليس وقال له: ارفع إصبعك حتى يعرف من حولك أنك نطقت بالشهادتين.. فقال في خاطره: اخسأ يا لعين! يقول: اخسأ يا لعين! تريدني أن أختم عمري بالرياء؟! أنا أقول لا إلٰه إلا الله من أجل أن أقابله هو بها لا من أجل أن يعرف الناس أني مت على لا إلٰه إلا الله.. قال فبكى إبليس وقال: أضللت بهذه الحيلة سبعين عالماً! جعلتهم يموتون على رياء ـ والعياذ بالله ـ في تعاملاتهم.

فمثل هذه المعاني وهي: عدم الأمن من مكر الله تعالى فيما يأتي به إبليس، دائماً الإنسان يستعيذ بالله.. ومن أقوى الأسلحة دوام الوضوء، للتحصن من إبليس، وأيضاً قراءة الأوراد الواردة عن النبي ﷺ في الصباح والمساء مثل: «**رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ**»[1].. «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله**

(1) رواه أبو داود في (الحديث: 3893)، والترمذي في (الحديث: 3528)، والإمام أحمد في (الحديث: 2/ 181).

التَّامَّات مِنْ شَرِّ مَا خَلَق»[1]. . مثل هذه الأذكار والأوراد: قراءة المعوذات. . قراءة آية الكرسي وخواتيم البقرة، الأذكار الواردة عن الحبيب ﷺ فإن فيها حصناً كبيراً للإنسان من كيد الشيطان.

بقي بعد ذلك النفس. . والذي يتفرع عنها وهو الهوى، وهو أخطر ما يحول بين الإنسان وبين الله في العوائق التي تقوم أمامه، الدنيا والشيطان وما يتعلق بذلك من حب المنزلة عند الخلق والأمراض القلبية مرجعها كلها إلى النفس. . ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[2]. . ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ❁ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ❁ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ❁ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[3].

أسأل الله ﷻ أن يجعلنا جميعاً من الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، اسلك بنا مسالك الصادقين واجعلنا من خواص الصادقين يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين.

---

(1) رواه أبو داود في (الحديث: 99).

(2) سورة: يوسف، الآية: 53.

(3) سورة: الشمس، الآيتان: 7 ـ10.

العوارض التي تعرض للسالك

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده.. ونشهد أن لا إلٰه إلا الله شهادة يكرمنا الله بها بنور توحيده.. ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه وعبيده.. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

من أهم العوارض التي تعرض للسالك

التعلق بالدنيا ووسوسة الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وهي أخطر عدو يواجه المؤمن في سيره إلى الله ﷻ؛ ويكمن أمر خطورة النفس في جانبين.. **الجانب الأول**: أنها عدو من داخل المنزل.. اللص الذي يكون من أهل المنزل هو أخطر من اللصوص الذين يكونون من خارج المنزل؛ لأنه يعرف خفايا المنزل ودقائق ما فيه، وأوقات غفلة أهله ونومهم، وخروجهم ودخولهم.

والأمر الثاني: أنها محبوبة إلى الإنسان.. جُبِل الإنسان على محبة نفسه.. والمحبوب يضعف الإحساس بخطئه وتقصيره وبإساءته، ولهذا كان الإمام الحداد رحمه الله ونفعنا به يقول: إن

الإنسان ضعيف الإحساس بقاذوراته المعنوية كضعف إحساسه بقاذوراته الحسية، إذا قيس ذلك بإحساسه بقاذورات الناس؛ بمعنى: أن الإنسان بإمكانه أن يزيل بيده بعض القاذورات عن بدنه.. عن عينه أو غيرها.. ويغسل يده ولا يجد في ذلك بأساً أو تأففاً أو استقذاراً، ولكن يشنع الأمر ويقبح ويثقل إن خوطب بأن يزيله عن غيره.. مع أن القذارة هي القذارة، والوسخ هو الوسخ، والمادة المتقذرة هي المادة، لكن نسبة القذارة إلى النفس غيّب عن الإنسان الشعور بقباحة هذه القذارة.. بينما كون القذارة منسوبة إلى الآخرين أبرز حقيقة ما في هذه القذارة، مما يوجب التقزز والتأفف، قال الإمام الحداد: كذلك الأوصاف المعنوية.. قاذورات قلوبنا وأمراض أنفسنا غائبة عن إحساسنا.. نحن ضعيفو الإحساس بها.. بسبب أنها تنتمي إلينا وتنتسب إلينا.. وهذا من أصل محبة الإنسان نفسه بينما يسهل على الواحد منا أن يتكشف عيب الآخرين.. بل يقبح في عينه شأن عيوب الآخرين.. قد يستنكر من الناس أمراً من الأمور المستقبحة هو يرتكب أضعافه ولا يجد التأفف ولا الاستنكار بسبب أن هذا السوء منسوب إليه؛ فلأن النفس من داخل الإنسان لص من داخل البيت ولأن النفس محبوبة عند الإنسان..

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساوئا

لذا كان شأن الخطر الكبير الذي يحدق بالإنسان من نفسه إن لم يتنبه لها.

قال الله ﷻ بعد أن أقسم بمظاهر الكون: الشمس والقمر

والليل والنهار والأرض والسماء.. أقسم بالنفس فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]، فأخبرنا الله أن الفلاح الذي هو حقيقة الفلاح لأنه بمقياس الرب.. والخيبة وهي حقيقة الخيبة ومنتهى الخيبة لأن الرب سماها خيبة.. ترجع إلى نفس الإنسان وتعامله معها، والنفس قد اختُبِر الإنسان بأنها في مبدأ الإنسان.. بمجرد خلطة الإنسان بغيره من البشر وتَفَتُّح أنواع المدارك.. تسارع إلى التلوث بعد أن كانت نقية على الفطرة، فإذا تلوثت صارت أمّارة بالسوء ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[2] وأمّارة صيغة مبالغة.. بمعنى أنها دائماً تأمر بالسوء إلا ما ندر.. وأمرها بالسوء: إما أن تأمر بالحرام.. أو باستثقال الحلال.. أو بتقديم الفاضل على الأفضل.. أو بمغالطة الإنسان بأن توقعه في الشر في صورة مطالبته للخير وهذه كلها من وسائل النفس.

ومن شدة خطورة النفس أن جميع أعداء الإنسان في خارجه من الشيطان وحب الدنيا وأثر الخلق عليه.. كل ذلك يرجع إلى نفسه، فالذي تزكو نفسه لا يستطيع الشيطان أن يوسوس له.. وإذا وسوس له استعاذ بالله وتسلح بوضوئه وذكر الله فلم يستطع الشيطان القرب منه، وكذلك الدنيا.. ومن زكت نفسه لا يتأتى أن ينظر إليها إلا بعين الاحتقار وينظر إليها على أنها ممر إلى تلكم الدار، وكذلك

(1) سورة: الشمس، الآيات: 7 ـ 10.
(2) سورة: يوسف، الآية: 53.

الخلق.. من زكت نفسه صلحت معاملته مع الناس على أساس معاملته مع الله تعالى، فكيف يكون للإنسان ترقٍ في تزكية نفسه؟

المراتب التي تترقى فيها النفس

النفس في ترقياتها تمر على مراتب ومراحل: أولها التي نحن الآن عليها وهي الأمارة بالسوء، فإذا اجتهد الإنسان في تزكيتها ارتقت إلى **اللوّامة**؛ بمعنى أنها إن حدثته بالسوء وفَعَلَ السوء عادت فلامته على ذلك.. وحثّته على التوبة.. وأشعرته بالندم، ثم إذا تزكت وتنورت ارتقت إلى مرتبة **المُلْهَمَة** التي قال الله فيها: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، والملهمة يسارع إليها نور الفهم عن الله تعالى فتتدارك وتقبل على الله، ثم ترتقي إلى المرتبة الرابعة وهي **المطمئنة**: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[1]، وإذا بلغ الإنسان مرتبة النفس المطمئنة صار متهيئاً لتلقي خطاب الله تعالى والفهم عن الله في قراءته للقرآن.. في شهوده للأكوان التي تحيط به.. في تعامله مع من حوله.. يكون الأمر مربوطاً بصلته بالباري، ثم ترتقي النفس إلى المرتبة **الراضية** بالله وعن الله، ثم ترتقي إلى مرتبة **المرضية** لدى الله تعالى وعند الله، ثم قليل من القليل من يصل إلى مرتبة هي السابعة من مراتب النفس وهي النفس **الكاملة**.. ومعنى الكاملة: الكمال المقيد وليس المطلق، الكمال المطلق لله تعالى، ولكن البشر يحدث لهم نوع كمال مقيد في جوانب سيرهم إلى الله تعالى.. وفي هذا المعنى

---

(1) سورة: الفجر، الآية: 27.

قال ﷺ: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ الكَثِير**»[1] إلى آخر الحديث الوارد عنه ﷺ.

هذه المراتب التي ترقى فيها النفس.. طريقة الترقي فيها ترجع إلى أصول، أول هذه الأصول: أن يفهم الإنسان في باطنه عداوة نفسه له فيتخذ النفس الأمارة عدوة إلى أن تتزكى.. بمعنى: أن يتهمها فيما تقول؛ يتعلم حسن الظن في الله وفي خلق الله وسوء الظن في نفسه، ولهذا قال علماء التزكية: إن الخواطر التي ترد على القلب إن كانت من قبيل النفس فعلاجها أو تمييزها أهي خير أم شر أن يعرض الإنسان الخاطر على نفسه..

ميزان ضبط الخواطر

هذا ما يسمونه ميزان ضبط الخواطر (أهي خير أم شر)، علامة خاطر الخير أو خاطر الشر تتضح بأحد ثلاثة موازين: أولها وأساسها وأعظمها: ميزان الشرع.. فما استحسنه الشرع فهو خير وما استقبحه فهو شر، فإن لم يتضح للإنسان والتبس عليه أمر فليأخذ الميزان الثاني: وهو ميزان الاقتداء بالسلف الصالح فما استحسنه السلف الصالح فهو حسن وما استقبحوه فهو قبيح، فإذا أشكل عليه ودقّ أيضاً فليعرض الخاطر الذي يخطر على قلبه.. يعرضه على

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 3411) و(الحديث: 3433)، ومسلم في (الحديث: 6222)، والترمذي في (الحديث: 1834)، والنسائي في (الحديث: 3957)، وابن ماجه في (الحديث: 3280)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 4/ 394).

نفسه دون تأثر بوعظ أو بتحسين أو بتقبيح.. فإن وجد النفس بذاتها.. بجبلتها.. مستثقلة للأمر نافرة معرضة عنه فهو خير.. وإن وجد النفس مائلة إليه بطبيعتها فهو شر.. لأن النفس أمارة بالسوء.

الأصل الثاني: الذي ينبغي للإنسان أن يعتني به في تطهيره لنفسه: أن يقلل على نفسه أمر التوسع في ملذات الحياة، والمقصود من ذلك: التدرج في تحديد التوسع في مظاهر الحياة وشهواتها، فإن السلف الصالح رحمهم الله تعالى كانوا يقولون: لا بد وأن تترك باباً من الحلال بينك وبين الحرام حاجزاً، الحرام له حد.. ثم بعده الشبهات.. ثم بعده الحلال.. أما الحلال الصرف فلا أدري أفينا من يأكل منه أم لا.. اختلط الحابل بالنابل على الناس.. وتحقق قول الحبيب ﷺ: **«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاس زَمَان لا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْهم إلا آكِلُ الرِّبا، فمن لَمْ يَأْكُلْ، أَصَابه من غُباره»**[1]، ولكن ما رَأَيْنا أنه حلال أو أقرب إلى الحلال.. ينبغي للذي يريد أن يحتاط في دينه.. أن يسلك سبيل التزكية والتطهير لنفسه: أن يترك بعض أبواب الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

كان السلف الصالح يقولون: (إنا لنترك سبعين باباً من أبواب الحلال مخافة أن نقع في باب واحد من أبواب الحرام)، فالإنسان إذا عوَّد نفسه أن يطلق لها العنان في كل ما ترغب به من المباحات.. استشرفت إلى ما وراءها، أرادت نفسك عشرة أثواب

(1) رواه أبو داود في (الحديث: 3331)، والنسائي في (الحديث: 4467)، وابن ماجه في (الحديث: 2278).

أعطها ثمانية أثواب، أرادت نفسك ثلاثة أطقم.. أعطها طقم أو طقمين بالتدرج؛ فإن الإنسان إذا استفرغ كل ما تطلبه نفسه من المباحات استشرفت النفس إلى ما وراء ذلك.. بدأت تستشرف إلى المكروه.. فإن أعطاها المكروه وتساهل في المكروه استشرفت إلى ما وراء ذلك، وهو الحرام والعياذ بالله من ذلك.

تكليف النفس الطاعة

فالذي يتأمل هذا المعنى ويفقه هذا الأدب في المعاملة مع الله يذيقه الله بسبب إذاقته هو لنفسه مرارة مخالفتها فيما تحب.. يذيقه الله حلاوة موافقته هو سبحانه فيما يحب، وهذا المعنى ينبغي أن يقترن مع أمر آخر وهو: تكليف النفس تدريجاً.. قليلاً قليلاً ما لا تحب من الطاعات، مواظبةٌ أنت على الفرائض وعلى الرواتب وعلى الوتر وعلى الضحى.. الحمد لله، لم تواظبي على ذلك: واظبي عليه وإن كرهت نفسك واستثقلت.. اعمليه؛ فإن من أسباب طغيان النفس على صاحبها وشططها ولعبها به وتمكنها من أمره بالسوء أنه يتعود أن لا يفعل الشيء إلا على حسب ميوله إليه.

واستشعار الإنسان أنه لا يعمل إلا بما يشتهيه من أقوى أسباب طغيان النفس على هذا الإنسان، لكن إذا عوّد الإنسان نفسه أن يُكرهها على الطاعة ابتداء بالفرائض والرواتب والوتر والضحى ولو أقل الكمال من الوتر ثلاث ركعات.. ولو أربع ركعات من الضحى.. مع الرواتب والفروض في أوقاتها، إكراهُهُ للنفس ولو كانت كسلى.. كسِلَتِ النفس وغلب الإنسان النوم فلم يصل الوتر،

يصبح في وقت الضحى فيقضي صلاة الوتر حتى لا يعوّد النفس الترك، فإن النفس بطيئة الإلف لعمل الطاعة سريعة الإلف لترك الطاعة، لهذا إذا عوَّد الإنسان نفسه فعل شيء من المندوبات والمستحبات ثم وجد تكاسلاً.. يعمل الأمر مضاعفاً.. يعمل ما فاته ويعمل ما ينبغي أن يعمله في نفس اليوم.. وبهذا الأمر تتأدب النفس وتتروض وترغب في الاستقامة والطاعة.

أيضاً يتدرج بعد ذلك في زيادة: أصلي ثلاث ركعات من الوتر.. الشهر الأول الثاني الثالث، ارتاضت نفسي على ذلك.. أزيد ركعتين من الوتر، آه الوتر ركعتين كثير.. طيب يمكن أن تستطيعي المواظبة بعد ذلك.. ويمكن أن تملي، لا تقولي يُمكن! ثلاثة أشهر الآن مروضة على الثلاث.. ما الذي ينقص أو يصعب عليك لو أضفت ركعتين لا تتجاوز الخمسة دقائق؟ تضيفين ركعتين.. ثم إن ارتاضت النفس أشهر أو شهرين أو ثلاث ألفت ذلك، تضيفي لها ركعتين حتى تبلغي كمال الوتر وهو الإحدى عشر ركعة، كذلك الضحى: ارتاضت على الركعتين اجعليها أربع، ارتاضت على الأربع.. ركعتي الإشراق مع الضحى ثم ركعتي الضحى ونمت وطلع النهار عليك الساعة التاسعة والنصف.. العاشرة.. عندك فرصة في عملك أو في بيتك أو في مدرستك.. اذهبي وصلي ركعتي الضحى.. ثم بعد ذلك ارتاضت نفسك.. أضيفي ركعتين فيكون الضحى بكماله ثمان ركعات.

عملت ذلك.. ابحثي عن حضور قلبك في هذا الأمر، النفس تتحدث بإعجاب: الحمد لله أنا مواظبة على الرواتب.. مواظبة على

الوتر.. مواظبة على الضحى.. قولي: يا نفس السوء! يا نفس السوء.. صليت إحدى عشر ركعة صلاة الوتر.. كم ركعة حضرت فيها مع الله؟ قرأت آيات من القرآن العظيم.. الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. قرأت آيات من القوارع التي تقرع القلوب.. فكيف كان حضورك مع الله تعالى؟ كيف كانت خشيتك يا نفس السوء؟ هل بكيت من خشية الله؟ هل استشعرت عظمة الله؟

فهذه قاعدة أخرى: وهي أن الإنسان مع تكليف النفس الطاعة التي تكرهها تدرجاً شيئاً فشيئاً بالزيادة أيضاً لا يشعرها بالرضوان عنها في ذلك.. لا يشعرها بأنها قد عملت بالمطلوب.. بل دائماً يطالبها بالأرقى ويوبخها على التقصير فإن النفس الأمارة بالسوء مثلها مثل الدابة الحرون.. الدابة الحرون: التي لا تطيع صاحبها.. إن ضربها.. إن حركها.. لا تتحرك، العوام يقولون فلان حرن أي: أصبح معاند لا يتقبل، الدابة الحرون إذا أرادوا أن يعالجوها يقللوا علفها ويكثروا شغلها.. فإن كثرة العلف تورث البطرة وقلة العمل تورث البطرة، النفس الأمارة بالسوء في مرحلة تنقيتها وتزكيتها تحتاج شيئاً من ذلك، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(1)، الله يخبرنا بذلك.

مجاهدة النفس

فمن مجاهدة النفس أن يقلل الإنسان المباحات تدريجياً..

(1) سورة: العنكبوت، الآية: 69.

اعتادت النفس أن تشبع بعد عشرين لقمة يكفيك ثمانية عشر لقمة، ولا تقفزي إلى التقليل المباشر الشديد فلا تطيق نفسك وتتعبين ثم تملّين وتتركين الطاعة بأكملها.. لكن التدرج في ذلك، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم رباهم رسول الله ﷺ على ذلك اختياراً لا اضطراراً.. الصحابة الذين كانت تمر عليهم الليالي لا يجدون الطعام، لم يكن عن عجز.. وقد عُرِض على رسول الله أن يُؤتى جبل أحد ذهباً ومن قَبْلِهِ بطحاء مكة ذهباً فأبى، عُرِضَ عليه ذلك دون أن يُنْقَصَ شيء مما له عند الله تعالى في الآخرة فأبى.. وقال: «**لا يا رب ولكن أشبع يوماً وَأَجُوعُ يَوْماً، فإذا جعتُ تضرّعتُ إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك**»[1]، وجعل أصحابه تمر عليهم الأيام في الجوع والتعب لتزكو أنفسهم، ثم بعد ذلك عودهم النصب في الجهاد في سبيل الله وفي قيام الليل، وفي أول أيام الرسالة المحمدية.. كان قيام الليل فرضاً وليس بالنافلة.. وأُمِروا أن يقوموا نصف الليل فريضة.. فكان أحد الصحابة من رُقِيِّهِ في معاملته لله يصلي حتى ينتصف الليل يقول: ربما لم ينتصف.. أحتاط فأزيد قليلاً، فيأخذه تلذذه بالطاعة فيغيب فإذا به استغرق إلى آخر الليل، يقول: ربما نقص شيء أزيد قليلاً.. فلا يدري إلا وطلع عليه الفجر وهو قائم يصلي طول الليل، فكان في أول أمر ترويض المصطفى للصحابة: قلة في متاع الدنيا.. جهد في طاعة الله تعالى

(1) رواه الترمذي في (الحديث: 2347).

وفي عبادته، يثمر في ذلك زكاةً للنفس.. وفوق هذا عدم إقرار للنفس أو ادّعاء للتزكية.

كيف نزكي أنفسنا

نهانا الله أن نزكي أنفسنا وأمرنا أن نزكي أنفسنا. نهانا الله أن نزكي أنفسنا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾(1): النهي عن تزكية النفس بمعنى: النهي عن الادعاء.. ما هي التزكية الممنوعة؟ ادّعاء حصول التزكية.. أنا أحسن من غيري.. استقمت.. صلحت، والتزكية المطلوبة: بذل الجهد في قيامها.. ومع تقليل التوسع في المباحات وتكليفها تدرجاً بالاجتهاد وإتعابها في الطاعات.. وعدم الرضوان عنها واتهامها فيما تفعل.. مع ذلك كله.. يضيف الإنسان إليه قبله وبعده وفيه وعلى ذلك المعتمد: قوة الإلحاح على الله.. وكثرة التضرع إلى الله.. واستغراق الأوقات في الابتهال بين يدي الله والتذلل لعظمته.. معترفاً الإنسان في ذلك بعجزه وبحاجته وبفاقته.. وهو يقرّ لربه بإساءته؛ فإن من أعظم وسائل تزكية النفس: أن يمضي المؤمن السائر إلى الله تعالى أوقاتاً يناجي ربه، يعترف لربه فيها بنقصه، بعجزه، بتقصيره، بإساءته، ويخاطب ربه بكمال ربه.. بعطاء ربه.. بجود ربه.. فإن ذلك من أقوى الأسباب لتنزل أنوار المدد الإلهي على القلب، فلا يستطيع شيطان ولا نفس أن تحول بين القلب وبين تطهير الله تعالى له، فهذا الأمر أساس في تزكية النفس.

---

(1) سورة: النجم، الآية: 32.

أيضاً مطالعة كتب القوم.. كتب الصوفية العملية.. التي تطهر القلوب، هذا العلم الذي يشتغل أصحابه بإظهار عيوب النفس لصاحبها.. ككتب الإمام الغزالي حجة الإسلام: إحياء علوم الدين.. منهاج العابدين.. بداية الهداية، المبتدئة تبدأ في كتاب بداية الهداية ثم تقرأ آداب سلوك المريد للإمام الحداد، ثم رسالة المعاونة لنفْس الإمام، ثم منهاج العابدين للإمام الغزالي، ثم رسالة «أيها الولد» للإمام الغزالي، القواعد العشر للإمام الغزالي، ثمّ يقرأ الإنسان إذا انتهى ووجد من يعلمه ويشرح له: كتاب إحياء علوم الدين لا سيما المجلد الثالث الذي سماه ربع المهلكات.. ناقش فيه المهلكات التي تنازل الإنسان من نفسه وكيف التخلص من أذاها ومن سوئها ومن قبحها.

ومع ذلك يشتغل السالك إلى الله أيضاً بوقت يطالع فيه سِيَرَ أهل تزكية الأنفس، لما نسمع أن ثابت البناني ـ من كبار التابعين ـ كان يحيي الليل بثلاثمائة ركعة نستحي من الله أن نعجب بأنفسنا إذا صلينا أحد عشر ركعة، ومن الغرائب أنا نسمع في هذا الزمان بعض المتعالِمين المتجرِّئين من الكسالى الذين يبيتون في النوم.. من يتجرأ على أمثال ثابت البناني وعلى زين العابدين.. من أئمة التابعين من أهل القرن الأول.. ثم يقول: هذه بدعة، رسول الله ﷺ ما صلى ألفاً ولم يصلِ ثلاثمائة.. ما أقبح هذا القول! وما أسوأه! يكفيك أنك عاجز عن أن تسلك مسالك القوم فأقِرَّ فيما بينك وبين الله بأنك مقصر لعل الله أن يرحمك.. لكن تقصير وإساءة وغفلة وكسل ثم بعد ذلك اعتقاد أنك أفضل من

الآخرين! وإساءة الأدب على أهل الرتب!

أأنت أدرى بالسنة من ثابت البناني تلميذ أنس بن مالك وتلميذ عبد الله بن مسعود؟! أأنت أدرى بالسنة من علي زين العابدين ابن الإمام الحسين بضعة المصطفى ﷺ؟! أأنت أدرى بالسنة من أحمد بن حنبل الذي كان يصلي في الليلة ثلاثمائة ركعة؟! أأنت أدرى بالسنة من الإمام محمد بن عنان الذي كان يصلي في الليلة خمسمائة ركعة؟! هؤلاء هم أهل الجهل بالسنة؟! وأنا وأنت أهل النوم وأهل التقصير وأهل الإساءة وأكل طعام الشبهات وأهل آخر الزمان الذي تحدث عنه المصطفى بأنه زمان التأخر والتخلف.. نحن أفقه بالسنة وأكثر التزاماً منهم؟! نحن الذين مُلِئَت قلوبنا حسداً وشحناء! الذين مُلئت قلوبنا غفلة وتعلقاً بالدنيا! الذين لو نقص علينا شيء من أسباب الدنيا بتنا نضرب أخماساً في أسداس! نَبيت بطوننا ملأى شَبِعة.. أفضل من الذين كانوا يربطون الحجر على بطونهم؟! أفضل من الذين كانت تمر عليهم الأيام لا يجدون ما يَطْعَمون ليس عجزاً بل زهداً وورعاً، وقد كان الحكام يطلبون وِدَّهم.. يطلبون قربهم.. كان الأمراء يتمنون أن يقبلوا منهم عطاياهم فيأبون تعففاً.. فإن لم نكن مثلهم فلا أقل من أن نعرف قدرنا ونعرف قدرهم!

هذه من أقوى الأسباب لفساد النفس ولقوة سطوتها على الإنسان: أن لا يقر لأهل الصدق بمرتبتهم، أن يخلط على نفسه.. تضحك عليه نفسه تقول: أنا لا أُعظِّم هؤلاء.. لا أقتدي بهم.. لا أكثر من ذكرهم.. لا أكثر من مطالعة أخبارهم.. أنا يكفيني السُنة فقط.. يكفيني السنة! هم مظاهر السنة في الأمة... لا ننفي

الترجيح لكن له أهله.. وإذا مِلْتَ إلى رأي إمام دون إمام أو رجَّحْتَ نصّاً وأنت أهل للترجيح وليس ادعاءً.. ليس معنى هذا أن تُخَطِّىء السلف الصالح الذين كانوا قبلك.. فهذه من أقوى أسباب ظلمة النفوس في زماننا هذا، أما في أخبار أهل الشهوات فواضح سبب ظلمة نفوسهم، لكن فينا نحن الذين نرى في نفوسنا معنى استقامة أو التزام بمظهر الدين أو بخدمة الدين هذه من أدق الأسباب ومن أعمق الأسباب ومن أقوى الأسباب لظلمة أنفسنا، أن نتجرأ على مقام السلف الصالح.

كان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى رأى النبي ﷺ ـ كما جاء في ترجمة الإمام أحمد في طبقات الحنابلة ـ رأى النبي ﷺ يقول: أقرىء أحمد بن حنبل السلام مني وبشره بالجنة على بلوى تصيبه، فأرسل الإمام الشافعي رجلاً من عنده بهذه الرسالة إلى الإمام أحمد إلى بغداد والشافعي في مصر، فلما وصل إلى بغداد وأبلغ الإمام أحمد بن حنبل السلام وبلغه سلام رسول الله ﷺ، والبشارة بالجنة على بلوى تصيبه.. بكى الإمام أحمد وقال: الله المستعان وعلى رسول الله السلام.. وفرح ببشارة رسول الله وسلامه.. ومن شدة الفرح خلع الثوب الذي على بدنه وأعطاه لهذا الرجل الذي أرسله الإمام الشافعي.. هدية البشارة.. لأنه كان سبباً في وصول البشارة إليه، فلما رجع الرجل إلى مصر سأله الإمام الشافعي فقال له: ماذا قال لك ابن حنبل؟ قال: قال الله المستعان وأعطاني ثوبه، قال: أعطاك ثوبه؟ قال: نعم، قال: أخرجه من خزانته أم من على بدنه؟ قال: من على بدنه، قال: من على بدنه؟ قال: نعم، قال: أما وإنا

لن نفجعك في ثوبك ولكن نستأذنك أن نغسل هذا الثوب ونحتفظ بالماء الذي ينزل منه وخذ لك الثوب.. فغسل الإمام الشافعي الثوب وأخذ الماء الذي قطر من هذا الثوب وأخذ غسالة هذا الثوب يتبرك بها من أثر الإمام أحمد بن حنبل، مع أن الشافعي هو شيخ الإمام أحمد.. والإمام أحمد في فقهه عالة على الإمام الشافعي.. لكن كان السلف الصالح هذا دأبهم في نظرهم إلى بعضهم البعض، الشيخ يستمد من المريد من التلميذ.. فكيف التلميذ في نظره إلى شيخه؟!

كان ابن الإمام أحمد بن حنبل يقول له: يا أبتاه! لا أراك تكف عن ذكر الشافعي وتدعو للشافعي، قال: نعم.. منذ أربعين سنة ما صليت صلاة إلا ودعوت فيها لمحمد بن إدريس الشافعي، قال: وماذا يكون هذا الشافعي حتى تذكره وتثني عليه وتدعو له هذا الدعاء كله؟ قال: يا بني.. إن الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، أرأيتَ للناس عن هذين من عوض؟! فقال: لا يا أبتاه.. قال: فذلكم الشافعي... هذه نظرة الأئمة لمن كان قبلهم، بل لمن عاصرهم، بل الأساتذة لتلاميذهم.. فكيف نأتي نحن الجهلة المتعالِمين المُدَّعين ونتجرأ على أئمة الدين؟! نتجرأ على الأكابر ونجترىء عليهم، هذه من أخبث غوائل النفس الأمارة بالسوء.

فإذا تنبه الإنسان إلى تزكية نفسه بما مر الكلام عنه وغيره من أسباب التزكية مما بسطه القوم في كتبهم.. وجد أن خلاصة تزكية النفس في إقامتها على قدم التقوى لله ﷻ .. في مراقبة الله وفي تذكر الموت، وفي الاستعداد لمقابلة الله في كل وقت، هذه المعاني

هي سلم الإنسان إلى تزكية النفس، نسأل الله أن يزكي أنفسنا.. اللّهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها.. أنت وليها ومولاها.

فإذا أكرم الله العبد وأعانه على السير في هذه العوائق وتجاوُزها والاعتناء بها.. عَرَضت له عوارض في طريقه تريد أن تحول بينه وبين استمراره في الطريق.. تريد أن تشتته في طريقه، هذه العوارض إن لم يتنبه لها الإنسان كانت سبباً في تأخره في سيره إلى الله تعالى والعياذ بالله من ذلك، وقبل ذكر العوارض يجب أن يعلم أن التقوى هي رأس الأمر كله، ومِلاك التقوى: الورع، وأبواب الورع حفظ الأعضاء: حفظ العين وما تنظر.. واللسان وما ينطق.. والأذن وما تسمع.. واليد وما تمتد.. والقدم وما تسير.. والبطن وما تأكل.. حفظ الأعضاء عما حرَّم الله ثم عن المكروهات باب قوي في تحصيل التقوى، بل هو أساس التقوى، وهنا تنتشر شبهة بين الناس.. يعتقدون بسببها أن الاعتناء بظواهر حفظ الجوارح ليس بالأمر المهم البالغ الأهمية فالأمر يرجع إلى القلب، الجوارح لها أثر مباشر على القلب.. كل شيء تنظرين إليه ينطبع في قلبك منه صوره، إن كانت نوراً فنور وإن كانت ظلمة فظلمة، وكذلك كل ما تسمعين وكل ما تنطقين، فحفظ الأعضاء باب كبير في ذلك، وحفظ خواطر القلب ومراقبتها باب أكبر في ذلك.

سألوا أحد كبار الأئمة.. كان منطلقاً في الدلالة على الله، من أين جئت بهذا كله؟ قال: وقفت على باب قلبي ثلاثين سنة فما كان لله أذنت له أن يدخل، وما لم يكن لله منعته من الدخول، هذا حال

أهل الصدق.. ثلاثين سنة! وهو يراقب قلبه.. لا يأذن لشيء لا يرضي الله تعالى أن يدخل إلى قلبه.

من المصائب التي تنزل بنا أن السوء إذا دخل إلى قلوبنا يقابِل اعتذاراً لأنفسنا.. ليس اعتذاراً عن أنفسنا، بدل أن نعتذر إلى الله مما فعلت أنفسنا نعتذر عن أنفسنا: لا، لا المسألة بسيطة والدين يسر والله غفور رحيم، ما هكذا يكون العلاج! أنتِ لو أخطأ ابنك الصغير، ولم يعترف بخطئه تتضجرين منه، وتعلمين أن هذا نذير سوء في الطفل الصغير: يا ولد اعترف واعتذر وأسامحك.. لم؟ لأن هذا تقويم لنفس الطفل.. نفسك كنفس الطفل:

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

هذا المعنى ينبغي أن تتنبهي له.

ثم سئل بعض الصالحين عن أنوار كانت تتوالى عليه وفتوحات كانت تصدر من قلبه في خطابه للناس فقال: حفظت أعضائي السبعة لله تعالى.. قمت حارساً لله على أعضائي السبعة فلم أأذن لها أن تتصرف إلا فيما يرضي الله تعالى، فمن أحكم هذا الأمر لم تضره العوارض التي تعرض له.

﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾

أول ما يعرض للإنسان في سيره إلى الله تعالى من العوارض المشتِّتة وهو من أخطر العوارض: عارض خوف الرزق.. خوف الفقر، وهو الأمر الذي استعاذ منه الحبيب ﷺ.. قال: «**اللّهمَّ إنّي**

أَعوذُ بِكَ مِنَ الفَقْرِ»[1]، إن كان المقصود بالفقر: قلّة المال.. فرسول الله إلى أن مات وهو قليل المال، وكيف يعوذ بالله من الفقر ويصبح ويمسي وهو فقير؟! كيف يرفض جبل أحد ذهباً؟ ليس هذا الفقر المقصود.

الاستعاذة من الفقر: هو الاستعاذة من خوف الفقر.. أن يعيش الإنسان غير مطمئن القلب: يمكن أن أفقد مالي.. يمكن أن أحتاج.. يمكن الظروف تتغير.. يمكن المال يُسرق.. يمكن الصفقة ما تنجح.. يمكن كذا.. يمكن كذا، الخوف من الفقر ظلمة تنزل في قلب الإنسان، تعرُضُ له فتشغله عن الله تعالى فلا يستقيم له أمر عبادةِ لله تعالى قط، خوف الفقر والشك في موعود الله في الرزق، الله تعالى قد تكفل لنا بالرزق: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[2].. تأكيد.. النفي إذا جاء بعده استثناء فهو من أقوى أسباب التأكيد، ثم قال الله ﷻ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[3]، يا رب رزقنا في الأرض؟ فلِمَ نقوم نشتغل نتحرك؟ قال: لا.. قوموا اشتغلوا وتحركوا لكن لا تنتظروا رزقكم من الشغل والحركة.. رزقكم ليس في الأرض.. ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2] وتأملي.. ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[4]، لا إله إلا الله.. تأملي هذا المعنى.

إذاً الرزق من الله ﷻ.. كل المسلمين يدركونَ في عقولهم

(1) رواه **أبو داود** في (الحديث: 1544)، و**النسائي** في (الحديث: 5475) مطولاً، و(الحديث: 5477).

(2) سورة: هود، الآية: 6.

(3) سورة: الذاريات، الآية: 22.

(4) سورة: الذاريات، الآية: 23.

أن الرزق من الله، لكن هذا المعنى لم يقر إلا في قلوبٍ قليلة في الأمة.. أندر من النادر؛ بسبب أن الأمة انشغلت بأمر لم تُوَجَّه إلى الانشغال به، وهذا أصل في معالجة خوف الفقر.. في الشك في موعود الله في الرزق.. وهو: الفقه في قلوبنا للأمر الذي خُلقنا من أجله، خلقنا الله لعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، خلقنا للعبادة، للمعرفة، لطلب القرب منه والرضوان.. لنقيم سر الخلافة في الأرض بنور الإيمان، هذه المعاني خلقنا الله من أجلها، ثم يعلم الذي خلقنا ﷻ أننا سنحتاج في أداء هذه المهمة إلى طعام يقوِّم أبداننا وإلى كساء يستر عرينا وإلى مال ننفق منه في شؤون حياتنا.. يعلم أو لا يعلم؟ الله ﷻ يعلم، علمه قديم أزلي دائم سرمدي كسائر صفاته.

الله كلفنا بمهمة، وهو يعلم أننا نحتاج إلى كذا وكذا، أترون الحق ﷻ يكلفنا بأمر ثم لا يتكفل لنا بما نحتاج؟! لو أن الواحد ابتُعِثَ في شركة أو في مؤسسة.. ابتعثته مؤسسة أو شركة كبيرة في مقاييس أهل الدنيا إلى دولة أخرى ليُبرِم عقداً أو يشارك في مناقصة أو يستطلع في أمر.. هل يحمل المُبتَعَث هذا همَّ النفقة؟ لا، لأنه يثق بأن شركته الكبيرة الغنية في نظره ستوفر له التذكرة.. مصروف الإقامة.. مصروف النفقة في السفر.. وفوق ذلك ستعطيه بدل سفر، إذاً سيسافر غير مهتم أبداً بالنفقة.. لِمَ؟ لأن عنده ثقة أن الشركة ما دامت كلفته يجب أن تقوم بما يحتاج إليه، سبحان الله!

(1) سورة: الذاريات، الآية: 56.

أهذا يقيننا في بشر مخلوقين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؟ هذا اليقين القوي في قلوبنا بحيث لا ينتج عنه حتى قلق في النفقة؛ لأن المهمة كُلِّفنا بها من قِبَل شركة مقتدرة، فما بالكِ بالقادر المقتدر الجليل ﷻ الذي كلفنا بمهمة في الحياة.. أترونه يكلفنا بمهمة ثم لا يقوم بما نحتاج إليه؟! هذا فهم ينبغي أن نفهمه في مقابلة ما يرد على قلوبنا من خوف الفقر أو الشك في موعود الله في الرزق أو الاضطراب والقلق.

الأمر الثاني: الولد الصغير لا يحمل هَمَّ الرزق أبداً.. لِمَ؟ لأنه يعرف أنه في كنف أبيه وأمه، وأن أباه قادر على النفقة عليه.. وأن أباه يحبه.. وأن أباه يرحمه فلا يتأتى أن يتركه بدون طعام ولا شراب، فلهذا لا يبالي.. بل يصل إلى حد يقلق الأب أحياناً.. الولد هذا مبذر ما يطفىء اللمبة (السراج) إذا خرج من الحجرة.. الولد هذا مبذر يأخذ طعام كثير ثم يرميه في الزبالة.. الولد هذا مبذر يصرف أموالاً كثيرة على اللعب، ما الذي جعل الولد يتجاوز الحد؟ ليس فقط يعيش بغير خوف من عدم حصول الرزق بل يتجاوز إلى الطمأنينة الغير المحمودة.. ما السبب؟ السبب أنه مطمئن إلى أمرين: الأمر الأول: أن والده قادر على أن ينفق عليه، الأمر الثاني: مطمئن إلى أن والده يحبه ويرحمه، الله! فما حالنا مع الله؟

أنشكُّ في أن الله قادر على أن يقوم بحاجتنا؟! إن الذي قام بأمورنا ونحن في بطون أمهاتنا.. بل خلقنا من العدم.. بل رعانا في حال العجز.. أترون أن مظهر القدرة إذا بدا مِنّا سيكون سبباً في

أن يعجز الله عن إقامة شؤوننا وقضاء حوائجنا؟! حاشا لله! ثم إن كانت طمأنينتي إلى أبي لأنه رحيم بي ويحبني.. أهناك أحد أرحم بنا من إلٰهنا وربنا ﷻ ؟ الله الرحمٰن الرحيم: «**إِنَّ للهِ مَائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً وَخَبَّأَ تِسْعاً وَتِسْعين رَحْمَة لِيَوْم القِيَامة وَأَنْزَلَ رَحْمَة وَاحِدة فَبِهَا تَشْفق الأم عَلَى وَلَدِهَا وَتَحْنُو**»[1]، ثم يأتي يوم القيامة فيضم الرحمة الواحدة إلى التسع والتسعين لتكون مائة رحمة، خالق الرحمة ﷻ الذي أرسل إلينا سيدنا محمداً رحمة.. والذي جعل ديننا رحمة.. والذي جعل كتابنا رحمة.. أترونه تنقص رحمته عن أن يقوم بنا في حاجاتنا؟!

إذا تأمل المؤمن هذه المعاني انبثق في قلبه حياء من الله مما كان في سابق عهده من إساءة الأدب مع الله، وبدأ يتحسس.. يطلب كيف يثبت هذا المعنى في قلبه؟ كيف يتحول من فهم إلى ذوق؟ كيف يستقر في باطنه فلا يقلق؟ يُقال له: ابحث عن تحققك بمعاني التوكل على الله، أولها هذا الذي سمعت.. ثم بعد ذلك: الاستغفار.. الأخذ بالأسباب الغيبية.. هناك أسباب غيبية معنوية وهناك أسباب حسية للرزق.

الأسباب الغيبية:

علَّمنا الله أنها سبب في حصول الرزق مثل الاستغفار..

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 6000)، ورواه **مسلم** في (الحديث: 6911)، و**الترمذي** في (الحديث: 3541)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 2/ 334)، و**الدارمي** في (الحديث: 2/ 321).

﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[1] فثمرة الاستغفار: الرزق، فإذا شعر الإنسان بخوف أو شك في موعود الله في الرزق يسارع في الاستغفار: يا رب سامحنا.. أنا أسأت الأدب في ثقتي بك.. تستغفر بانكسار.. استغفري بانكسار.. الاستغفار سبب لإدرار الرزق.. لقضاء الديون.. لحصول الحوائج، أيضاً من الأسباب الغيبية: صلة الرحم، في الحديث: **«صلةُ الرَّحم مَنْسأةٌ في الأَجَل سِعَةٌ في الرزقِ»**[2] أو كما قال ﷺ، أيضاً بر الوالدين سبب في حصول الرزق وفي تيسيره، أيضاً الصدقة: **«ما نَقَصَ مَالٌ مِنْ صدقةٍ بلْ يزدادُ بل يزدادُ بل يزدادُ»**[3]، كلما حدثتك نفسك بخوف فقد شيء من المال أنفقي توكلاً على الله ويقيناً بموعود الله.. ما لم يكن هذا المال لأداء واجب أو لسد دين أو تحتاجين في إنفاقه في وجه من وجوه البر هو أهم من الوجه الذي عَرَضَ لك الآن.

ومن أهم المعاني في حصول التوكل: علاج الشح الذي في النفس، وعلاج الشح الذي في النفس بكسر حاجز الصدقة، كلما حدثتك نفسك بالصدقة بادري إليها قبل أن تتردي فإن النفس إذا سمحت لحظة بالصدقة تعود فتندم.. الشيطان يهددها بالفقر.. جاء في بعض الروايات: **«ما يُخْرِجُ رجلٌ شيئاً مِنَ الصدقَةِ حتَّى يَفُكَّ عَنْ**

(1) سورة: نوح، الآيات: 10 ـ 12.
(2) رواه **الترمذي** في (الحديث: 1979).
(3) رواه **مسلم** في (الحديث: 6535) بنحوه، **والترمذي** في (الحديث: 2325) بنحوه.

لحيَيْ سَبْعينَ شَيطاناً»[1]، يَعِد المتصدق بالفقر ويهدده ويتوعده.

كان بعض السلف في بيت الخلاء ـ وهو من الأئمة الأكابر ومن العلماء العارفين ـ فلما كان في بيت الخلاء فوجىء ولده به وهو يصيح: فلان.. فلان! (ينادي ولده).. فهرع إليه ولده خائفاً لأنه يعلم أن والده لا يتكلم في بيت الخلاء فالكلام في بيت الخلاء مكروه منهيٌّ عنه.. وأبوه من أشد الناس التزاماً للأدب.. مدة حياته لم يسمع أباه يتكلم في بيت الخلاء، ففوجىء بالأب يصيح: فلان.. فلان.. فلان! فهرع الولد خشية أن يكون قد أصاب الأب مكروه، فقال: لبيك.. لبيك.. أهناك شيء؟ أصابك شيء؟ قال: لا.. سارع إلى الخزانة وافتحها وأخرج كيس المال (النقود) الذي فيها واذهب به إلى أيتام آل فلان، قال: يا أبتاه! أفزعتني وأرعبتني! لو انتظرت حتى تخرج من بيت الخلاء.. قال: اذهب الآن لا تناقشني، فذهب الولد وهو مستغرب وأنفذ الصدقة ثم لما رجع وجد الأب قد توضأ وصلى.. قال: يا أبت.. ما الذي صنعت اليوم؟ لِمَ لَمْ تنتظر حتى تخرج من بيت الخلاء؟! قال: يا بني.. إن نفسي قد سمحت بالصدقة وأنا في بيت الخلاء.. فخشيت أني إذا انتظرت حتى أخرج أن تغالبني هي والشيطان بتوعدي بالفقر أو بتهديدي من حصول الفقر فأتراجع عن الصدقة.. فأحببت أن أنفقها ما دامت قد سمحت بذلك! فهذه أدوية لعلاج مرض الشك في موعود الله في الرزق.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 5/ 350).

أيضاً مطالعة أخبار وسِيَرِ أهل التوكل على الله ﷻ وما كانوا عليه ابتداء بإمامهم وسيدهم ﷺ وآل بيته وأصحابه ثم من جاء بعدهم بعد ذلك، وهذا باب قوي في حصول التوكل، وأيضاً أن يقوِّي الإنسان ـ ويكرر على نفسه ـ اعتقاد أن الذي له لا بد وأن يصل إليه.. مهما كان الأمر الرزق المقسوم سيصل.

هناك رزق يسمى: رزق القَوَام الذي يكون عليه قوام الحياة.. هذا لا بد وأن يصل ولو نمت في المنزل، وهناك رزق وهو المقسوم: أي الذي كُتِبَ في الغيب أنه لك باسمك وهذا أيضاً لا بد وأن يصل إليك.. يسير معك كما يسير معك ظلك، وهناك رزق مكتسب: أي تحدث النفس صاحبها به.. أريد هذا الرزق أن يحصل لي.. أريد هذه الصفقة.. أريد هذه البضاعة.. أريد هذا الطعام.. أريد هذا الثوب، الرزق المكتسب: الذي تتحدث النفس به.. فهذا وهم لا حقيقة له إلا بعد حصوله؛ لأنه قد يقوم الإنسان بالأسباب لتحصيل هذا الرزق المكتسب الذي تأمل أن تكتسبه ثم تفشل الأسباب ولا ينال.. كم مرة حصل هذا؟ أخذوا الأسباب وعقدوا الصفقة ورتبوا الأمور وفجأة من غير مقدمات تخسر الصفقة.. يتدخل شخص يغيرها.. يحصل أمر.. تنتهي.. تفشل.

فالرزق القوام هذا تكفَّل الله به لا يمكن إلا وأن يقوم (يأتي)، والرزق المقسوم وهو الذي في الغيب.

هذه القاعدة.. قد يُفْهم من ذلك أن المقصود أن الإنسان يترك الأسباب ولا يتكسب.. لا ليس هذا المقصود! طلب الأسباب أمر

تعبدنا الله به.. أمرنا الله.. أذن لنا أن نأخذ بالأسباب، لكنه لم يأذن لنا أن نعتمد على الأسباب، وفرق بين من يسعى لتحصيل الرزق طلباً للسبب، وبين من يسعى لتحصيل الرزق منتظراً الرزق من السبب، المؤمن يسعى في تحصيل الرزق وينتظر الرزق من الله ليس من السبب، ما علامة تحقق هذا؟ أنه ذوق في القلب، وليس مجرد كلام يرد على العقل، علامته: أن الإنسان إن أقام السبب ولم ينجح في التحصيل لا يتبرم.. لا يقلق.. لا يهتم.. لا يغضب؛ لأنه لم يكن ينتظر من السبب بل ينتظر من الله، وعلامة صدق هذا الأمر في الإنسان أيضاً: أنه يحصل له كثيراً من الأحيان في حياته أن يأتيه رزق من غير الأسباب التي كان يتوقعها، لهذا قال ﷺ: **«مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَار جَعَلَ الله لَه مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً، وَرَزَقَه مِنْ حَيثُ لا يَحْتَسِبُ»**[1]، فالذي يكون رزقه دائماً دائماً من حيث يحتسب هناك شك في كمال إيمانه.. في صدق إيمانه؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن رزق المؤمن من حيث لا يحتسب، إذاً لا بد مع الرزق الذي يحصل من الأسباب.. لا بد من علامة صدق التوكل وتصحيح الإيمان.. أن الإنسان يأتيه من وقت لآخر رزق لم يكن يخطر على باله.. من مصدر لم يكن يخطر على باله.

أيضاً.. التصرف في الرزق بما يرضي الله، شهود أن الرزق إذا وصل للإنسان ليس بجهده وليس باستحقاقه.. وإنما هو فضل من الله، ويعتقد المؤمن أن هذا الرزق مِنَّة من الله ونعمة تحتاج إلى

(1) رواه ابن ماجه في (الحديث: 3819).

الشكر، وأن هذا الرزق أيضاً بَلِيَّة، قالوا: النعمة ابتلاء تحتاج إلى شكر.. والمصيبة ابتلاء تحتاج إلى صبر، هذه البداية.. وبعدها مراتب يرتقي الناس فيها، فالإنسان إذا تلقى الرزق يستشعر أنه غير مستحق وأنه ليس بجهده وأنه من فضل الله وأنه يحتاج إلى الشكر ويخشى أن يحاسَب عليه.

الله تعالى يسأل عن كل شيء مرة واحدة إلا الرزق مرتين، الحبيب ﷺ قال: **«لا تَزُولُ قَدَمُ ابنِ آدَمَ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّه حَتَى يُسْئَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيما أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيما أَبْلاَه، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيما أَنفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»**[1]، فالمال: دخوله فيه سؤال وخروجه فيه سؤال.. فهو بلية وليس محلاً للفرح، هذا الأمر الذي ينبغي للمؤمن أن يعتني به.

الرزق المعنوي

أيضاً يعتني بالرزق المعنوي كما يعتني بالأسباب المعنوية يعتني بالرزق المعنوي، ما هو الرزق المعنوي؟ هو حقيقة الرزق التي ينبغي للمؤمن أن يطلبه من الله تعالى، أتعلمين ما هو هذا الرزق؟ نور الإيمان.. التوكل على الله.. الرضى بالله.. الخشية.. الخشوع.. الزهد.. الخوف.. الرجاء.. الفتح.. العلم النافع.. العمل بالعلم النافع.. الإخلاص.. تعليم الناس.. خدمة الدين..

---

(1) رواه الترمذي في (الحديث: 2416، 2417).

الأخلاق.. هذه أرزاق يكرم الله تعالى بها من يكرم، هذه التي ينبغي أن تنشغلي بطلبها من الله، أما الأخرى فهي تأتي.. تأتي طلبتها أو لم تطلبيها.

ومن أشد أسباب ضعف الأمة اليوم: خوفها من مسألة الرزق، تجد الإنسان أو تجد المجتمع أو تجد البيئة أو تجد البلاد عندها من الخير ومن الرفاهية.. رب الأسرة هذا عنده من المال ما يكفيه مدة حياته وأولاده ومع ذلك خائف: ربما السوق يتغير.. ربما الصفقة تخسر.. ربما يحصل كذا.. من أين جاء هذا؟ عندك أموال تكفيك وتكفي أولادك: عشرين مليون.. ثلاثين مليون.. مائة مليون عندك.. ومع ذلك خائف.. ما السبب؟؟ ضعف الإيمان.. يجبن.. يخاف.. يكذب.. يسرق.. يقع في المصائب كلها، الإنسان إذا ضعف التوكل على الله في قلبه، إذا وقع في ظلمة الشك في موعود الله بالرزق.. يقع في كل ما يخطر على باله وما لا يخطر على باله من السوء، ينافق.. يداهن.. يحقد.. يبغض.. يسرق.. يكذب.. يصاب بالأنانية.. يتحايل.. يتكبر.. يتجبر.. يعجب بنفسه.. المصائب كلها تتفرع من هذا الأمر.. من الشك في موعود الله في الرزق، لكن لو أنّ القلب مطمئن إلى أن المسألة مقسومة.. لو أخذ فلان عليك الصفقة لن تغضب لأنك تعْلَم أنه لم يأخذها بجهده هو.. بتصرفه.. سواء كان تصرفه مشروعاً أو غير مشروع.. هو أخذها لأنها مقسومة له.. واسْعَ في غيرها يعطيك الله تعالى.. تكون مطمئن الحال صافي القلب، هذا الذي ينبغي للمؤمن أن يتأمله في فهمه لمعنى مقابلته لعارض خوف الرزق.

كان أبو اليزيد البسطامي رحمه الله تعالى من أئمة السلف الصالح، وتاب على يديه نباش قبور كان ينبش القبور ليسرق الأكفان ـ والعياذ بالله ـ ويبيعها، فلما تاب قال له بعض الحاضرين عند أبي اليزيد: ما أعجب ما رأيت؟ أنت تنبش قبور.. أكيد كنت ترى غرائب في القبور.. قال: نعم.. أعجب ما رأيت أني نبشت ألف قبر فلم أجد إلا قبرين صاحبيهما إلى القبلة.. وبقية القبور كلها ـ التسعمائة والثمانية والتسعون ـ أصحابها قد حولت وجوههم عن القبلة والعياذ بالله! فأُرْعِب الحاضرون عند أبي يزيد البسطامي.. قالوا: ما السبب في ذلك يا إمام؟! قال: لا أراه إلا بسبب شكهم في موعود الله في الرزق، الرب يعدهم ويقسم لهم ثم يكذبونه بأحوالهم.. بخوفهم.. بكذبهم.. بسرقتهم.. بتحايلهم.. بأخذهم الربا بغير حق.. ببحثهم عن الحيل وعن الفتاوى المنحرفة في تحليل الربا.. في إباحتهم التعامل بما حرم الله.. كل هذا يرجع إلى ماذا؟ إلى ضعف الإيمان.. إلى نقص التوكل في القلوب.. فهذا أمر من أعظم أمور السير إلى الله ينبغي للمؤمنة أن تعتني بها والمؤمن.

وبعد ذلك القضاء والقدر، يخاف الإنسان من المصائب التي تحصل له.. ربما أمرض.. الأمراض منتشرة.. يا لطيف! فلانة مرضت أخاف أن يحصل لي.. أقلق.. أجزع.. يمكن مصيبة تحصل.. البلد الفلانية فيها زلزال.. أوه يمكن يجينا زلزال.. أوه البلد الفلانية فيها.. فيعدم وجود الطمأنينة.

الخوف من مخبآت القضاء والقدر

وهو نوعين: نوع محمود ونوع مذموم، **النوع المحمود**: الذي يحمل صاحبه على الخوف من المقدِّر لا من القدر، من الذي قضى لا من القضاء، حصل زلازل في بلد، المؤمن الصادق يخاف ويُرْعَب.. ليس من حصول الزلزال والموت لكن يخاف أن يكون الله قد غضب.. يخاف من ذنوبه، من إساءته في حق الله، كان بعض السلف إذا جاءت السحاب وغطت البلد يبكي ويصبح قلقاً، ووردت أيضاً في بعض الأسانيد عن رسول الله ﷺ ولهم كلام في صحة السند أنه كان يقول: **«أَنْتُمْ تَسْتَبْطِئُون المَطَرَ وَأَنَا أَسْتَبْطِيء الحَجَرَ»**، أخاف أن أُرْمى بالحجارة من غضب الله تعالى، هذا الخوف الذي ينبغي أن يكون، وثمرته: أن يقود الإنسان إلى الإسراع في الرجوع إلى الله.. في الالتجاء إلى الله.. في الإلحاح على الله.. في التوبة.. هذه ثمرة الخوف من مخبآت القضاء والقدر.

أما الخوف المذموم: خوف أن يصيبنا القضاء والقدر بالمكروه.. ليس الخوف أن يكون هذا المكروه انتقاماً أو غضباً لكن خوف أن أمرض.. خوف أن أفارق الحياة.. خوف أن أصاب.. خوف أن أؤذى، هذه مخاوف مذمومة لأنها شك في قيام الله تعالى لك بالحماية والرعاية، إن خفتِ من حصول السوء فخافي أن يكون ذلك بسبب إساءتك في حق الله، لا تعتقدي أن السوء سيصل من ذات الأشياء التي تحيط بك، فإنه لا نافع ولا ضار على وجه الحقيقة إلا الله.

فمن فهم هذا المعنى بحث عن حقيقة يتشبث بها في قلبه ليتحقق بهذا المعنى ألا وهي: التفويض إلى الله تعالى، فعلاج الخوف من مخبآت الأقدار (الخوف المذموم): التفويض إلى الله.. أن يتذكر الإنسان أن الذي خلقني الله.. وهذه المصائب التي تحصل كلها بيد الله.. وهو قريب مني.. وإن أسأت وحُقَّ عليَّ أن أُصاب، رَضي مني بالاستغفار والتوبة.. يغفر لي، أرجع إليه وأتوب إليه وأبكي له ثم أطمئن أني رميت الأمر عليه.. هذا هو التفويض، آخُذ بالأسباب التي جعلها الله لي بالالتجاء إليه تحصيناً من السوء الذي أخاف أن أقع فيه.. ثم بعد ذلك أرتاح لأني قد حمَّلْتُها جناب الحق ﷻ .. هذا الأمر الذي ينبغي للمؤمن أن يعيش عليه.

ولهذا قالوا: الطمأنينة فرع التفويض.. والرجاء فرع اليقين.. والمحبة فرع المعرفة.. من يبحث عن الطمأنينة؟.. الناس كلها الآن تبحث عن الطمأنينة، حبوب للنوم.. مشاكل.. مهدئات للأمراض النفسية.. قلق.. خوف.. إزعاج.. مشاكل.. في البيت.. في الأسرة.. في المجتمع.. في الدول.. في العالم كله.. حتى في الكفار.. حتى في المتسلطين.. حتى في من يسمونهم قوى عظمى.. الكل الآن يعاني.. الغني.. الفقير.. الحاكم.. المحكوم.. القوي.. الضعيف.. الكل يعاني مشاكل وقلقاً واضطراباً.. ما سببه؟ سببه انقطاع القلب عن التفويض لمولاه، لكن لو شعر القلب أن هذه الأمور كلها عنده وهو قادر عليها.. وأنا عبده والتجأت إليه.. انتهى الأمر، لا يَتأتى أن يصيبني

شيء إلا إذا أراد هو، والذي بيده الأمر علمني وقال لي: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1] انتهت المسألة! أخاف من ماذا؟ من أن يصيبني مكروه من مرض انتشر؟ آخذ بالأسباب بتطعيم أو غيره لكن أبحث أيضاً عن الأسباب المعنوية.. علمنا رسول الله أن نستعيذ بالله ثلاث مرات: **«أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»**[2].. **«بِسْمِ اللهِ الَّذِي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»**[3].. من قالها لم يرَ ما يكره في الصباح حتى يمسي ومن قالها في المساء لم يرَ ما يكره حتى يصبح، ضمانة من الحبيب ﷺ، انتهى الإشكال.. لم يعد عندي خوف.

عندي مرض؟ آخذ بالأسباب الظاهرة لأن الله أمرني بالتطبب لكن لا أعتمد عليها، أميل وأقوّي أخذي للأسباب الباطنة.. من قال في مرضه: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيني ويعافيني (سبعاً) ولم يكن قد كتب عليه الموت لا بد وأن يُعافى.. أخبرنا النبي بذلك، ومن قرأها على مريض لم يكتب عليه الموت لابد وأن يعافى.. أبحث عن هذه المعاني من الالتجاء إلى الله.. تحل أنوار الطمأنينة في القلب، هذا الأساس الذي به يُقَوِّم الإنسان تعامله مع الخوف من مجريات القضاء والقدر.

---

(1) سورة: غافر، الآية: 60.

(2) رواه مسلم في (الحديث: 6817)، والترمذي في (الحديث: 3437)، وابن ماجه في (الحديث: 3547).

(3) رواه أبو داود في (الحديث: 5088)، والترمذي في (الحديث: 3388)، وابن ماجه في (الحديث: 3869).

وأخيراً يأتي تساؤل.. ما دامت المسألة على هذا النحو في الأسباب وفي الأقدار.. هل أذهب وآخذ بالأسباب لتحصيل الرزق أو أجلس في بيتي؟ الله لم ينهنا عن الأخذ بالأسباب.. لكن المهم لمن يأخذ بالأسباب أن يراعي آداب الأسباب: يصحح نيته فيها.. يقيمها على قواعد الشريعة.. يثق بعد ذلك أن العطاء من الله ليس من السبب، ومن لم ييسر الله له الأسباب واضطره إلى أن يكون متجرداً يقيم أدب التجرد: لا يطمع في ما في أيدي الناس.. ولا ينتظر منهم شيئاً.. ويرضى بالقليل.. ولا يلتفت إلى زيد أو عمرو.. ويرضى عن الله في الحال الذي هو فيه.. فهو على أدب في التجريد، هذا الأساس الذي ينبغي أن يقيمه الإنسان في الأخذ بالأسباب أو عدمه، أسأل الله أن يحققنا بذلك، وأن يجعلنا من الصادقين فيه.. وأن يسلك بنا في مسالكه على ما يحبه ويرتضيه.

أمهات أمراض القلوب وكيفية العلاج منها

الحمد لله.. الحمد لله حمداً يواجهنا الله تعالى به مواجهة من أحب.. فلا يبقي فينا ذنباً أو عيباً أو سوءاً إلا وطهرنا باللطف منه في الدنيا قبل المنقلب، وصلى الله وسلم وبارك وكرم على سيد العجم والعرب.. وعلى آله وصحبه وتابعيهم، وَمَنْ بالصّدق والإيمان إليه انتسب.

جرى الكلام عن تطهير النفس وهواها.. وتثبيت قاعدة الفهم عن الله في تلقي الرزق وطلبه.. والسلامة من مخاوف القضاء والقدر بنور التفويض والتسليم للمولى ﷻ، ومن صدق مع الله في العمل بأُمَّهات ما مَرَّ وطلب التوسع والزيادة حيث لا منتهى لأمر التخلص من هذه الشؤون.. فالإنسان كلما ترقى وكلما صدق مع الله جلَّ جلاله لاح له وتَكَشَّفَ له من عيوبه ما لم يكن يخطر على باله وهكذا حتى يلقى الله ﷻ؛ لأن صفة الكمال المطلق المطَّرِد محصورة على الله ﷻ، والإنسان مهما ارتقى ومهما ارتفع فإنه يدرك على قدر رُقِيِّه وارتفاعه جوانب النقص التي فيه؛ لأن الارتقاء والارتفاع والقرب من الله ﷻ يقوي إحساس الإنسان ويوسع مداركه.. فيصبح ويمسي وهو يلاحظ المسألة الدقيقة في معاملته لله؛

بل لقد كان أحدهم يحاسب نفسه على الخاطرة التي تخطر على قلبه.

هل يحاسب الإنسان على الخاطر؟

والرحمة المحمدية والحنانة المحمدية أكرمنا الله تعالى بها فخفف عنا، فما عاد يؤاخذنا بالخواطر التي تخطر على قلوبنا ولكن يؤاخذنا على ما يترتب على هذه الخواطر.. ويؤاخذنا على إقرارنا للخواطر السيئة.. أما خطور الخاطر فلا يحاسب المسلم عليه.

في أول الأمر كان الحساب عليه قائماً: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، ولكن بالرحمة خفف الأمر فنزل قوله تعالى ناسخاً لهذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2]، فصار مجرد خطور الخاطر لا يحاسب الإنسان عليه لكن يحاسب على نتيجة الخاطر.. ويحاسب على إقرار الخاطر؛ لأن إقرار الخاطر اكتساب، جاء خاطر سوء ظن في أحد من المسلمين بدل أن يستعيذ الإنسان بالله فإن أقر هذا الخاطر.. نعم صحيح هذا فيه كذا وفعله كذا، فالإقرار هذا ذنب يحاسب الإنسان عليه، ولكن السائر إلى الله والسائرة إلى الله ومن يرغب في القرب من الله ﷻ لا يكتفي بهذا الحد، ويعلم أنه وإن كان الإنسان لا يحاسبه على

(1) سورة: البقرة، الآية: 284.

(2) سورة: البقرة، الآية: 286.

الخواطر غير أن مبتدأ كلّ خير خاطر.. ومبتدأ كل شر خاطر، فيحاسب نفسه على الخاطر قبل أن يتطور إلى فعل.

كيفية إتقان العمل

ثم إن الإنسان في نفسه الأمارة بالسوء قابليةٌ للوقوع في كثير من العيوب والأوصاف الذميمة، هذه العيوب والأوصاف الذميمة إن طرأت على الإنسان كانت سبباً في القدح في عمله؛ أي سبباً في نقص ثواب العمل وأثر العمل على القلب، وربما والعياذ بالله تكون سبباً في إحباط العمل فلا يكون له من العمل إلا التعب والنصب، وفي هذا يقول ﷺ: **«رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الجُوعُ وَالنَّصَبُ»**[1] وفي رواية: **«والتعب»** وفي رواية: **«والعطش»**، لم؟ لأنه أخل بشؤون تتعلق بسلامة العمل لله جلَّ جلاله وخلوصه، وهناك صفات لو أصابت النفوس ولم تتزكى منها ورسخت كانت سبباً في حرمان الإنسان من قبول عمله ومن حصول أثر العمل.

هناك العمل وهناك إتقان العمل وهناك قبول العمل وهناك الأثر المترتب على هذا القبول، أن يعمل الإنسان العمل الصالح هذا مبتدأ السير إلى الله.. ثم يعتني بإتقان هذا العمل حتى لا يداخله ما يكون سبباً في عدم قبوله، ثم بعد ذلك.. بعد أن يعمل ويتقن العمل يبقى خائفاً من عدم القبول؛ لأنها مسألة إلى الله تعالى وحده تؤول؛ لذلك كان السلف الصالح يهتمون بالقبول أكثر من اهتمامهم

---

(1) رواه ابن ماجه في (الحديث: 1690)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 2/ 373).

بالعمل.. بل اهتمامهم بالعمل وإتقانه هو فرع من اهتمامهم بالقبول؛ ولأنهم يهتمون بقبول العمل اهتموا بأن يُتْقَن حتى يكون العمل أقرب إلى القبول، وبعد القبول ثمرة القبول.. وثمرة القبول: نور يقذف في القلب ليس العمل هو الذي استجلبه ولكن قبول العمل كان سبباً في استجلابه والقبول إذا حصل من الله تعالى أثمر في القلب نورانية وفي النفس زكاة، بل الله يزكيكم .. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1]: أي سعى واجتهد في تزكيتها، ثمرة السعي والاجتهاد: القبول.. وثمرة القبول: أن يزكي الله تعالى نفس الإنسان.

أمهات الصفات المذمومة

أولاً: العجب

هناك أوصاف كثيرة يمقتها الله إذا كانت في النفس.. ولا يحب الله من عباده أن يستسهلوها أو يستهينوا بها، غير أن لها أمهات إن اعتنى المؤمن بالتخلص منها كانت سبباً وباباً للتخلص من بقية الصفات الأخرى، فأمهات الصفات المذمومة أربعة: العجب والكبر والرياء والحسد، وعن هذه الصفات الأربعة تتفرع الصفات المذمومة في الإنسان.

أولها: العجب وهو سلم بقية الصفات، العجب: أن يغفل الإنسان عن إحساسه بِمنَّة الله عليه بأن وفَّقه للطاعة، الله أمرنا أن نجتهد في تحصيل الطاعة.. أمرنا أن نجتهد في إتقان الطاعة.. ثم

(1) سورة: الشمس، الآية: 9.

أخبرنا أن الاجتهاد الذي نجتهده والإتقان الذي نوفق إليه والقبول الذي يترتب عليه كله محض مِنَّة من الله تعالى، فلولا توفيقه ما استطاع أحد أن يطيعه.. وما استطاع أحد أن يقبل على الطاعة.. وما استطاع أحد أن يثبت على الطاعة أو يتقنها.. وإذا غاب هذا المعنى وهذا المشهد عن القلب، ولم يعد الإنسان يتذوقه أو يحس به أصيب الإنسان بمرض وهو مرض العجب.. الإعجاب بالنفس.. الاعتقاد أنه عمل الشيء بقدرته هو.. أنه بجهده بتعبه.. أنه استطاع أن يثبت وأن يتقن؛ لأنه هو الذي بذل الجهد.. ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1]، نسبة الأمر إلى ذات الإنسان وغياب نسبتها إلى توفيق الله يُعَبَّر عنه بالعجب؛ لأنه يثمر في القلب إحساساً بالمنة على الله والعياذ بالله.

الشكر محض منة من الله

ما معنى المنة على الله؟ المعنى أن يستشعر الإنسان: يا رب أنا تعبت.. قمت الليل.. صمت النهار.. حفظت القرآن.. تعلمت، علمت، جاهدت.. إذاً أنا أستحق الذي أنتظره منك من الخير، فيغفل عن أن ينتظر الخير بفضل الله وجود الله، ممكن أن يقول بلسانه: نعم أنا آكل بتوفيق الله وجود الله نحن لا نستحق لكن في قلبه يقول: كيف لا نستحق؟! أنا تعبت، أنا بذلت، أنا اجتهدت أنا قمت بالأمر كيف يكون هذا الكلام؟.. هذا المرض من ادعاء الاستحقاق هو المعبر عنه بالعجب؛ لأنه يثمر في القلب شعوراً

(1) سورة: القصص، الآية: 78.

بالمنة على الله: يا رب أنا استحق إذاً لا بد أن تعطيني.. من هذا الذي يقول لربه: لا بد؟ من هذا الذي يلزم الله؟!

ولهذا جاء في الحديث أن رجلاً عبد الله خمسمائة عام لم يعص الله فيها، يؤتى به يوم القيامة، فيوقف بين يدي الله فيقول له الحق ﷻ: قبلت عملك وادخل الجنة برحمتي، فيقول: يا رب، بل بعملي! كيف برحمتك؟ بعملي بخمسمائة سنة أنا ما عصيت، أنا في طاعة وفي عبادة.. بعملي استحق الجنة! هذا لولا رحمة الله به لكان مآله إلى النار، قال له الحق: ما دام الأمر بعملك فلتحاسب، فحاسبوه على طاعته خمسمائة عام وضعوها في كفة، ووضعوا نعمة البصر في كفة أخرى فلم تف بحق شكر نعمة البصر، فقال الملائكة: لم يؤد حق الشكر، لم يف عمله بشكر نعمة البصر، فقال: إذاً اذهبوا به إلى النار، فيقول: يا رب، بل برحمتك، قال: برحمتي اذهبوا به إلى الجنة.

فالمسألة إذاً رحمة الله.

السبب الأول أن الإنسان مهما عمل لن يؤدي حق الله لن يستطيع القيام بشكر الله، لن يستطيع أن يؤدي حق النعمة التي أنعم بها عليه، النعم الحسية يعجز عن شكرها فكيف بالنعم المعنوية التي هي أعظم نعمة الإيمان والإسلام، نعمة التوحيد، نعمة الهداية، نعمة الإستقامة. فلا يستطيع الإنسان أن يؤدي شكر نعم، فكيف يكون استحق؟!

إنسان استدان من آخر وسدد شيئاً أقل من ربع عشر الدين،

فقال: أنا لي الحق عندهم أنا أديت الدين الذي علي والآن أستحق أن تكرموني، الآن أنا أستحق أن تعطوني جائزة، نقول: تعال... جائزة لماذا؟ أنا سددت أنا أديت أنا فعلت حتى لو سددت أديت الذي عليك! وأنت لم تسدد أصلاً فأين الاستحقاق؟ لو أن أحداً اقترض منك مائة ألف ثم بعد ذلك سدد درهماً واحداً وأخذ يقول: المفروض أن تحترمني.. المفروض أن تقدرني.. المفروض أن تكرمني.. المفروض أن تراعي تعاملها معي.. المفروض أن تعطيني جائزة.. أنا سددت لها درهماً، تقول: مجنون مغفل! الدرهم هذا الذي سددته لا شيء أمام الذي عليك! فإذا تعامل الإنسان مع من يحسن إليه بهذا الأسلوب يستحق ماذا؟! يستحق العقوبة نقول! نحن صبرنا عليك.. مائة ألف عندك ما سددت منها إلا درهماً واحداً ثم بعد ذلك تقول لي الحق ولي الحق؟! أنت ما سددت الحق الذي عليك، فأين الذي لك؟! ويحصل بسبب ذلك امتهان لهذا الإنسان وشعور بأنه أساء.. شعور بأنه لم يفقه.. شعور بأنه أحمق.. شعور بأنه لم يصب التصرف.. ويكون ذلك سبباً للاستعداء يقول نعطيك تتشرط أيضاً، هيا سدد المائة ألف التي عليك هاتها!

هذا في الحقوق المجازية التي بين البشر، ونسبة ما نؤديه لله تعالى أمام ما أكرمنا به لا مجال للمقارنة بينهما.. فرق كبير بينها وبين تلك، فكيف بعد أن نفقه هذا الأصل إذا ارتقينا إلى أصل ثانٍ في درء العجب، وهو أنه حتى الأعمال التي نؤديها: الصلاة.. الصيام.. العبادة.. الزكاة.. الإحسان.. الصبر.. الأخلاق.. الزهد.. الرجاء.. الخوف.. اليقين.. المعاملات التي تصدر مِنَّا

لله ﷻ حتى نعتبرها ثمناً نستحق به كذا وكذا.. من أين جئنا بها؟ هل يستطيع الواحد منا لولا توفيق الله تعالى أن يعبد؟ بتوفيقه صار المطيع يطيعه، ما يتأتى أصلاً: عبادتي.. صلاتي.. صيامي.. قيامي.. صدقتي.. بِرّي.. هي أعمال: الله الذي وفقني لها فهي نعمة أخرى تحتاج أن أشكر عليها بدلاً من أن أمنّ على الله بها، مثلاً أقول أنا أستحق لأني عملت.. من الذي أعانك على العمل؟ من الذي وفقك للعمل؟ هو الله.. الله.. ما دام الله، هذا عطاء جديد هيا عطاء جديد يحتاج منك إلى شكر آخر.. والشكر نفسه عطاء يحتاج إلى شكر.. هيا.. إنْ شكر الإنسان. «الحمد لله على هذه النعمة» وتصدق شكراً لله هل صنع شيئاً؟ في الحقيقة لا.. الشكر هذا من أين أتيت به؟ بتوفيق الله.. إذاً هو عطاء الله أعطاك إياه يحتاج الشكر إلى شكر.. إذاً ليس لنا على الله شيء.

كيف نعد الشكر عملاً صالحاً؟ نعم.. لأن الله قبله عملاً صالحاً.. فقط المسألة محض مِنَّة وكرم من الله، هو الذي خلقنا من العدم.. وأفاض علينا النعم.. ثم وفقنا للشكر ثم جعل الشكر ورضي بهذا الشكر ثمناً لعطائه ﷻ من خلقه، رضي بالحمد شكراً له من خلقه، كما قال الإمام علي زين العابدين بن الحسين ﵄، يقول: **الحمد لله الذي رضي بالحمد شكراً من خلقه،** فإذاً المسألة محض منة من الله، حتى الشكر محض منة من الله.

لهذا قالوا: أن سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قام يتفقد آل بيته فوجد في ليلة واحدة مائة من آل داود

يحيون الليل، قال: يا رب مائة من آل داود يحيون لك الليل، فأوحى الله إليه: أن يا داود من الذي أقامهم وأنام غيرهم؟ قال: أنت يا رب، قال: يا داود من الذي وفقهم وخذل غيرهم؟ قال: أنت يا رب، قال: يا داود من الذي دعاهم وخلَّف غيرهم؟ قال: أنت يا رب، قال: أفتمُنُّ عليَّ بنعمة مننتُ بها عليك؟! فخرّ داود ساجداً لله وأناب.

هذا المعنى ينبغي أن يتذوقه المؤمن في طاعته، فإذا علم أن جميع الطاعات التي يفعلها والأعمال الصالحة التي يأتيها هي محض منة من الله بتوفيق من الله.. لم يستطع بعد ذلك أن يرى لنفسه فضلاً أو يرى في نفسه منة على الله أو على خلقه بأنه فعل كذا وكذا، لهذا قال العلماء رحمهم الله: التوفيق: هو خلق قدرة الطاعة عند العبد، فإذاً العجب ـ وهو الامتنان على الله، وأصله نسبة العمل إلى النفس ـ مرض خطير فيه جحود في حق الله، يعطيني ويخلقني ويكرمني ويوفقني وبعد ذلك أقول: أنا يا رب فعلت لك، ماذا فعلت؟! أنت بِكُلِّك مظهرٌ فعله ﷺ.. أنت بِكُلِّكَ مظهرٌ لفعل الله.

فإذا كان هذا الأمر على هذا النحو فَهِمْنا ما معنى أن الله ﷻ يستطيع أن يصنع ما يشاء يوم القيامة، قالوا: لو عذب الأنبياء ـ وحاشاه من ذلك ـ لما ظلمهم.. لم؟ لأنه ليس لهم شيء عنده، المسألة من أولها إلى آخرها بتكريمه وتوفيقه، لذلك قالوا: لو ألقى بالأنبياء في النار لما ظلمهم ـ حاشاه وأعز الله مقامهم ـ ولكن

المسألة رَبٌّ يفعل ما يريد.. رَبٌّ عظيم، متى يكون لي الحق أن أخاطب وأقول: لي.. عدل.. ظلم، لذلك جهل من قال في مسألة: هل الإنسان مسيّر أم مخير؟ إذاً ظلمه الله أو ما ظلمه الله؟ هذا خطأ! كيف ظلمه الله أو ما ظلمه الله؟! ماذا عنده كي يكون له حق في مسألة ظلم أو ما ظلم؟ من الذي يُظلم؟ الذي يُسلب حقه.. فما هو حقك أنت؟! ماذا لك فيك أنت فضلاً عن أن يكون لك في المملكة في الكون، فالمسألة محض منة من الله ولله الحمد أولاً وآخراً.

الكبر لله تعالى

ثانياً: الكبر

هذا المرض الخطير ـ أي العجب ـ هو مفتاح لمرض خطير آخر وهو مرض الكبر والعياذ بالله، والكبر هو: الترفع على الخلق.. اعتقاد ارتفاع المنزلة على الناس.. وهو مرض شديد يبغضه الله جلَّ جلاله وبسببه يقصم صاحبه، جاء في الحديث القدسي: «**العِزّة رِدَائِي وَالكِبْرِيَاءُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِي أَحَدِهما قَصَمْتُهُ وَلاَ أُبَالِي**»[1]، لم عدَّها الله منازعة؟ هي منازعة مَجازية، في الحقيقة ما أحد يستطيع أن يرقى إلى الله فينازعه، لكن منازعة: وهم المنازعة يحصل عند الإنسان.. لمَ يغضب الله هذا الغضب كله من

(1) رواه **مسلم** في (الحديث: 6623).

الكبر؟ لأنه لا يتناسب مع حقيقة الإنسان، من أنت أيها المتكبر؟! من أنت؟ قل لي! أَوَّلُك نطفة مذرة.. أوَّلك ماء مهين لو وقع على الثوب لتقزز منه الإنسان، وقام ينظف ثوبه منه.. هذا الذي تتقزز منه وتنظف ثوبك منه هو أصل خلقتك.. فيا من هذا أصله ماذا فيك تتعزز به؟! بم يتكبر الإنسان؟ نهايته جيفة قذرة.. أحب الناس إليه لا يستطيع الاقتراب منه لو بقي ولم يدفن ثلاثة أو أربعة أيام بغير ثلاجة، وهو بين هذا وهذا مَغْزُوّ بالضعف، بالمرض، بالجوع، ساقط بالجوع.. ساقط بالمرض.. ساقط بالضعف.. ساقط بالخوف، وهو بين هذا وهذا متقلب في حياته في مظاهر العجز مهما توهم القوة والقدرة.

هذا وقالوا: أن بعض الملوك الظلمة أراد أن يمر في طريق من الطرق، وكان في الطريق رجل صالح شيخ كبير شائب يمشي الهوينى لكي يصل إلى منزله، فجاء العسكر إليه وقالوا: تنحى ارجع عن الطريق، قال: منزلي في نهاية هذا الطريق وأحتاج أن أصل إليه، قالوا له: ارجع عن الطريق! قال لهم: لِمَ؟ قالوا: سيمر الملك الآن.. السلطان، قال: يمر السلطان؟ الطريق يسعني ويسع السلطان، قالوا: تقول بمثل هذا! قال: نعم أقول، فتركوه متهيِّبين.. فالرجل كان من الصالحين وكبير في السنّ وله منزلة في قلوب الناس، وعلموا أن السلطان سيفتك به، فلما أقبل السلطان قال: من هذا الذي يمشي في الطريق؟ قالوا: هذا رفض أن يتنحى، وقال: الطريق يسعني ويسع السلطان، قال: أَوَ قالها؟! قالوا: نعم،

فسكت السلطان، ولما اقترب منه ألقى عليه السلام، فرد فقال: ما منعك أن تتنحى عن هذا الطريق حيث أخبروك أني سأمُرُّ به؟ قال: الطريق يسعني ويسعك! قال: أتدري مع من تتكلم؟ أتعرفني؟ قال: نعم أعرفك معرفة جيدة! ألست الذي أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة، وأنت بينهما تحمل في بطنك العذِرة ـ العذرة: الوسخ.. البراز ـ فاستحى.. طأطأ رأسه واستغفر ربه.. أراد الله له الخير.. ومشى في حال سبيله.

التواضع دواء ناجح

ولهذا قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ﷺ: عَجبتُ لمن يتكبر وهو عاجز ضعيف.. تقتله الشرقة.. وتُنْتِنُهُ العرقة.. وتؤرقه البَقَّة، عَجبتُ لمن يتكبر وهو عاجز ضعيف.. يقول: تقتله الشرقة (إن شرق مات إذا ما تداركه الله).. تقتله الشرقة (إذا وقف الطعام في بلعومه مات).. وتنتنه العرقة (إن عرق ولم يغتسل نَتِن ريحه).. وتؤرقه البَقَّة (الحشرة هذه لو جاءت وقرصته وهو نائم في الليل أرَّقته لم يستطع أن ينام.. تؤلمه)، من كان هذا حاله كيف يتكبر؟! كان لا شيء وسيصير بعد قليل لا شيء، كيف يتكبر؟! بم يتكبر؟ الأصل في علاج التكبر التواضع والأصل في تحصيل التواضع أن يتذكر الإنسان أنه لا شيء.. أنه عدم.. فكيف يتكبر؟!

ثم بعد ذلك ينظر بم يتكبر؟ ما السبب في تكبره؟ عنده شيء من المال؟ من الوجاهة؟ من الجاه؟ من المنزلة؟ من بيت كذا أو من

قوم كذا؟ ما هذا الهراء؟! قالوا: الذي يتكبر بشيء من أمور الدنيا فهو غبي؛ لأنه يتكبر بشيء لو كان فيه قيمة لما أعطاه الله، فنعود لما كنا بصدده. هذا من الجهل ومن الحمق أن يعتقد أن الإنسان احترامه ومنزلته وفرحه أن يقوم له الناس أو يقعدوا. . أن يقدموه. . هذا يليق بالمؤمن! المؤمن يبحث عن تقديمه عند الله. . ما فائدة أن يضعنا الناس فوق رؤوسهم ونحن ليس لنا شيء عند ربنا؟! ماذا يفعلون لنا؟ وهذا سبب للوقوع بعد الكبر في المرض الذي بعده وهو الرياء والعياذ بالله. . فينبغي للمؤمن أن يتنبه.

فالأصل في التواضع ونبذ الكبر أن الإنسان لا شيء في أصله. . ثم وإذا تكبر لأمر من أمور الدنيا فهي أحقر من أن يُتكبر من أجلها، بل ينبغي للإنسان أن يستحي من أن يكون من أهل الدنيا، إذا ابتلاه الله بمال أو بوجاهة أو بمنزلة أو برتبة أو بسلطان، يكون خائفاً خجلاً من الله حييًا منه ﷻ. . يخاف أن يكون ذلك حجة عليه يوم القيامة، ويشكر النعمة التي أوتيها ويبحث ويكون دقيقاً مع نفسه. . يحاسب نفسه كيف يوجه هذه النعمة في مرضاة الله. . حتى لا يسائله الله تعالى يوم القيامة.

الدنيا بلاء. . كان السلف الصالح إذا أقبلت يقولون: ذنب عُجِّلَت عقوبته. . وإذا أعرضت الدنيا وجاء الفقر يفرحون ويقولون: مرحباً بشعار الصالحين، فإذا جاءت النعمة فينبغي أن ينشغل الإنسان بالتفكير كيف ينفقها في طاعة الله. . فإذا كان له وجاهة يفكّر ما زكاة الوجاهة؟ زكاة الجاه بذله لمن يستحق. . إعانة الضعيف. . قضاء حاجة صاحب الحاجة. . هذه زكاة صاحب الجاه والمنزلة،

أما أن يجعلها سبباً في تكبره فهذا حمق لا ينبغي أن يتّصفَ العبدُ المؤمن به.

الأدب مع الله هو ثمرة الطاعة

قد يتكبر الإنسان لأمر آخر.. لا يتكبر بالدنيا إنّما يتكبر بالآخرة! كيف يتكبر بالآخرة؟ حفظ شيئاً من القرآن الكريم.. أتقن تجويده.. أتقن ترتيله.. صار يعلم الناس.. رأى نفسه أفضل من غيره.. «هؤلاء جهلة ما يعرفون القرآن!»، عنده شيء من علم الفقه: « هؤلاء جهلة ما هم فقهاء!»، تعرَّفَ شيئاً من علم الحديث..: « هؤلاء لو كان عندهم علم.. ما عندهم علم الحديث.. أنا عندي علم الحديث..!» أنا؟! أول من قال: «أنا» إبليس.. تَنَبَّه! حَصَّل شيء من أسلوب الدعوة وأتقنها وجمع الناس للخير.. وهكذا شعر أنه قد أدى شيئاً.. فيبدأ بالانتقاص للغير.. هؤلاء لا يتحركون للدعوة... لا يخدمون الدين.. ما يعرفون قيمة الدين.. وأصبح يذم بدلاً من التلطف بهم ودعوتهم.. يرى أن لنفسه الفضل عليهم، أو والعياذ بالله تكبر بطاعة.. قام الليل.. صام النهار.. استقام.. يبدأ يقول: ما لهؤلاء الفسقة.. هو لا يقول عنهم فسقة حرصاً على هدايتهم، فرق بين أن تنكر على حال السيئين ولك رغبة في هدايتهم ومحبة لهم وبين أن تنكر على حال الفاسدين شعوراً منك أنك أفضل منهم وهذه مسألة ينبغي التنبه لها، دقيقة.. النفس تحتال بها على الإنسان لتحبط عمله والعياذ بالله بالكبر.

ولا يحصل الكبر بالطاعة والاستقامة وبالأمور المستحسنة شرعاً إلا بسبب خلل فيها لولا وجود الخلل في الطاعة ما اثمرت الكبر، إن الذي يطيع الله بطاعة من الطاعات حفظ القرآن، أو قرآناً أو حديثاً أو سنة أو عبادة أو دعوة ثم تكبر لا شك وأن سبب تكبره أن الطاعة كانت معلولة لم تكن صحيحة مستقيمة.. ولو كانت مستقيمة لأثمرت في القلب تواضعاً لله، أنت يا من حفظت القرآن أفضل ممن نزل عليه القرآن؟ أنت يا من حفظت أحاديث في السنة أفضل من صاحب السنة؟ أنت يا من تفقهت في الدين أفضل ممن تلقى جميع الفقهاء عنه الفقه؟ أنت يا من صليت وصمت وتعبدت أفضل من إمام العابدين صلى الله عليه وآله وسلم؟ أنت يا من دعوت إلى الله أفضل من إمام الدعوة؟

إمام الدعوة وسيد العابدين صلى الله عليه وآله وسلم وإمام أهل العلم قرآناً وحديثاً وفقهاً والكل عالة عليه في ذلك.. إمامهم كلهم كان يقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»[1] والسبب في ذلك أن إمرأة كانت مهذارة بذيئة اللسان تناكف الرجال بلسانها وتجادلهم. مرت فوجدت رسول الله صلى الله عليه وآله على الأرض على التراب يأكل طعاماً من الطعام الخشن الزهيد فقالت: ما لهذا يجلس كما يجلس العبد؟ ويأكل كما يأكل العبد! (أي المماليك) فالتفت إليها وقال: «**نعم إنما أنا عبد**

(1) رواه الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (5/ 214)، (7/ 116).

صلى الله عليه وآله وسلم **آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**».. فاهتَزَّتْ لكن بقي شيء من المكابرة عندها.. قالت: تأكل وحدك ما تعطيني؟! فمَدَّ لها بلقمة.. قال: خذي.. ألقاها إليها، قالت: لا، أريد اللقمة التي في فمك!. زيادة في الجرأة.. وهو ازداد حلماً وتواضعاً فأخرج اللقمة وناولها إياها، قالوا: فما أكلت اللقمة حتى تغير حالها.. تغير حالها فلم تُرَ بعد ذلك تجادل أحداً أو تلاف أحداً، بل قامت على قدمٍ من الأدب العالي.. دخل في جوفها شيء من رسول الله.. بأبي هو وأمي.

فإذا كان سيِّد الخلق.. سيد الكون.. أفضل الخلق على الإطلاق.. حبيب الله.. صاحب الشفاعة العظمى يقول: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ**».. «**لَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ أَحد بِعَمَلِهِ وَلَكِنْ بِرَحْمَةِ الله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَتِهِ**» وبكى ﷺ: «**لَوْ آخَذَنِي الله وَابْنِ مَرْيم بِمَا كَسَبت هَاتَيْن**» يديه، يقول: «**لَعَذَّبَنَا عَذَاباً شَدِيداً**»[1].

فالأدب مع الله هو ثمرة الطاعة.. وكل طاعة أو عبادة أو عمل صالح أثمر تعزُّزاً أو ترفُّعاً على الآخرين فليتفقد الإنسان عمله، سيجد أن عِلَلاً دخلت في العمل.. إما عُجب: مِنَّة على الله من بداية العمل، أو رياء في العمل، أو جهل في العمل، أو خطأ في

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 5673)، و**مسلم** في (الحديث: 7047).

فهم العمل، لذلك قالوا: إن الذين يجانبون طريق أهل السنة والجماعة هم من أكثر الناس تكبراً؛ لأنهم جانَبوا الصواب في عملهم، وإذا جونِب الصواب: تثمر مُجانَبة الصواب شعوراً بالإعجاب أو بالكبر أو بالاحتقار للآخرين، وإذا لم يحصل شيء من ذلك على الأقل تثمر شعوراً بالبغض للآخرين، أو الانتقاص للآخرين أو الكيد للآخرين، أَظْهَرَ ذلك أو لم يظهره، لذلك نجد المتجرئين في منهجهم على رسول الله أو على الصالحين وعلى السلف الصالح يسهل عليه أن يحتقر الناس: هذا كافر.. هذا مشرك.. هذه خرافات.. هذا كذا.. هذا كذا.. يشعر في نفسه أنه أفضل..

بينما لو كان صاحب استقامة وقدم لازداد تواضعاً وأدباً مع الله ﷻ .. وإذا رأى صاحب معصية أو مخالفة يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه، ويشعر بالمنة لله ويستحي من الله، ويقول: أنا كنت أستأهل وأستحق بسوئي أن أكون مثله لكن تداركني الله، ثم ينظر بالرحمة إلى المسيء وإلى المقصر، يقول: لعل الله يهديه على يدي.. لعل الله أن يكرمني به.. لعل الله أن يسوق الخير إليه على يدي.. يا رب استخدمني في هداية هذا الشخص.. يا رب أكرمني بتوبة هذا الشخص.. بإقبال هذا الشخص.. ينظر إلى المسيء نظر إحسان.. ينظر إلى المسيء أن فيه لا إله إلا الله... أساء.. أذنب.. نعم لكن فيه لا إله إلا الله... أوَ ما عنده لا إله إلا الله؟ ولا إله إلا الله: حقيرة هي؟! لا إله إلا الله أعظم ما أقام الله في هذا الوجود.. ربما تتحرك نورانية هذه الكلمة في لحظة فيتوب الله على

هذا الفاسق أو هذا المسيء الذي تكبرت عليه، فيصبح من أكابر المحبوبين.. ويغضب الله عليك بسبب كبرك هذا فتصبح من المبعدين.

وقصة عابد بني إسرائيل وماجن بني إسرائيل دليل على ذلك: رجل ما عصى الله قط من بني إسرائيل.. ورجل ما أطاع الله قط من بني إسرائيل.. هذا نزل من صومعته إلى الساحل وهذا صعد من الساحل إلى الجبل.. فالتقيا، أما العابد فأعرض متكبراً وقال: هذا فاسق لن يفلح، هذا لن يغفر الله له وأعرض عنه محتقراً له.. وأما الفاسق فأعرض عن الصالح حياءً من الصالح وانكساراً.. قال: من أنا حتى أقابل هذا؟ هذا عابد بني إسرائيل.. أستغفر الله، وتنحى أدباً لشعوره أنه الفاسق المسيء المنكسر ما يستحق أن يقابل هذا الصالح، فنظر الله إليهما وقال: لقد أحبطت عمل الصالح وغفرت ذنب الفاسق فليبدآن سوياً... خلاص أصبحوا في مرتبة واحدة.. ما السبب؟ ذاك أقام عبادات كثيرة وهذا أخل إخلالات كثيرة.. لكن ذاك شابَ عبادته شائبة الكبر.. المنة.. العجب والكبر اتحدتا في قلبه، وذاك مع سوئه حصل في قلبه انكسار.. ذلة.. اعتراف.. خضوع.. هذه الذلة والاعتراف حصلت لما قابل الصالح.. وهذه فائدة الاتصال بالصالحين ومقابلة الصالحين.

الصالح هذا في طاعته وأعماله مع أن مقابلته هذه أثمرت سوءاً بالنسبة له.. مقابلته للفاسق ضرته.. الفاسق مقابلته للصالح نفعته، وهكذا مقابلة الفاسقين على غير دعوتهم إلى الله تضرّ ولو الصالحين.. ومقابلة الصالحين على غير بغضهم أو التكبر عليهم

تفيد ولو للطالحين، هذا فاسق ما أطاع الله لما قابل صالحاً بمحبة واحترام كانت سبباً في مغفرة ذنوبه وفي توبة الله عليه فتحول إلى صالح، وهذا صالح عابد لما قابل الفاسق بغير دعوة إلى الله وبغير أدب مع الله كان سبباً في إحباط عمله وذهاب صالحاته أجمع.. فلنتأمل ولنعتبر.

الخشية ثمرة العلم

وأيضاً نعرف أنا إذا تكبرنا بعلم من علوم الدين فهذا جهل، الذي يتعلم ينبغي أن يخاف.. علامة حقيقة العلم ازدياد الخشية.. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(1).. فعلامة حصول حقيقة العلم الخشية.. هناك صورة العلم وهناك حقيقة العلم، صورة العلم: حفظ الآيات.. حفظ الأحاديث.. حفظ الأحكام الفقهية.. إتقانها.. هذه صورة للعلم.. حقيقة العلم: النيّة الصادقة فيها.. أنّا نوي بذلك العمل والتعليم.. القرب من الله، حقيقة العلم: العمل بمقتضى العلم، حقيقة العلم: الخوف من الله تعالى أن يكون هذا العلم حجة علينا يوم القيامة.. يحاسبنا الله.. يحاسب الجاهل مرة ويحاسب العالم ألف مرة.. يقول: ويل للجاهل مرة حيث لم يعمل، وويل للعالم ألف مرة حيث لم يعمل.

فإذاً كلما حصَّلنا العلم نفرح بإكرام الله إيانا بالعلم وإعطائنا نصيباً من الإرث النبوي ونخاف أن يكون حجة علينا، فمن تلقى العلم بحقيقة العلم هذه.. الخوف من أن يكون حجة عليه.. ليس

(1) سورة: فاطر، الآية: 28.

لديه فرصة ليتكبر. . هو خائف يشعر أنه كلما ازداد في علمه كلما ازدادت الحجة عليه وازداد الخطر، فيزداد أدباً مع الله وخضوعاً ومراقبة فلا يتأتى أن يتكبر أبداً، الذي يكتفي بصورة العلم يزداد كبراً، يكون كالبالون المنتفخ كلما أضفت له هواء كلما انتفخ حتى ينفجر. والذي يكون علمه علم حقيقة وصورة هو الذي يثيبه العلم أدباً مع الله وخوفاً من الله، هذه ثمرة العلم التي ينبغي أن يخرج بها الإنسان إذا طلب العلم، لا أن يتكبر بالعلم الذي يأخذه.

وإذا أطاع اللهَ إنسانٌ بعبادة وبِنُسُك يكون خائفاً من عدم القبول إن كانت عبادته صادقة وليست معلولة، ليس في نيته رياء أو سمعة أو حب منزلة عند الناس أو منة على الله أو عجب. . إذا لم يحصل ذلك فإن العمل سيثيبه خوفاً. . أنه يمكن ما قبل الله عملي. . يمكن عملي فيه شوائب. . حتى لو قَبِلَه وما فيه شوائب، قبوله للعمل هذه مِنَّة تحتاج إلى عمل آخر من الشكر. . لأن عملي ما يستحق القبول، يرى عظمة الله ملأت قلبه فيرى أي عمل يعمله قليلاً في حق الله ﷻ فلا يستكثر شيئاً من الأعمال، الكبر بالأعمال الصالحة بسبب الاستكثار. . رؤية أني قد أديت. . لو كانت عظمة الله مِلْء القلب لتضاءلت أعمالنا في أعيننا.

كان بعض السلف الصالح يبيت الليل كله يصلي فإذا أصبح بكى وقال: «**سبحانك ما عبدناك حق عبادتك**»، وإذا كان الملائكة الكرام الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. . فيهم الذي في السماء راكع فلا يعتدل إلى قيام الساعة. . وفيهم الساجد الذي لا يجلس إلى قيام الساعة. . وفيهم القائم الذي لا يقعد إلى

قيام الساعة.. ثم بعد ذلك إذا انتهوا بقيام الساعة رفعوا رؤوسهم وقالوا: «**سبحانك ما عبدناك حق عبادتك**»[1]، فكيف نحن إذا ركعنا ركيعات أو تصدقنا بدريهمات؟! نحن الحمد لله عملنا وعملنا وعملنا؟ ماذا عملت؟! والذي عملته هذا هل عمله أحد قبلك وهل عملته بجهدك أو بتوفيق الله؟ وهل عملته مما عندك أو مما أعطاك الله؟ المال هذا الذي تتكبر أنك أنفقته أو بنيت به أو تصدقت به أو عملت به عملاً من أين جاءك هذا المال؟ أليس من رزق الله؟! أليس من مال الله؟!.. خرج بعض السلف الصالح من الأولياء ولقي صالحاً آخر من الأولياء مستحقاً للصدقة فقال: خذ لا لك، قال الصالح وقد فهم: هات لا منك، (خذ لا لك لله.. هات لا منك من الله). من الله وإلى الله.

فينبغي للمؤمن أن يفقه هذا الأدب إذا تعبد.. فإذا وجد الإنسان في نفسه اعتزازاً أو تكبّراً بالعبادة فهي علامة على أن العبادة لم تُقبل.. في الساعة التي تشعرين فيها بكبر، أو بترفع وبإعجاب بعبادتك، أو باعتداد بها واعتزاز أنك عبدتِ.. راجعي العبادة ستجدين فيها خللاً يمكن أن يحرمك القبول والعياذ بالله، فينبغي التنبه لهذا الأمر.. وعلاجه تذكر الموت.. تذكر الموت.. قالت نفسك: عندي وعندي.. غداً في القبر لا تساوي شيئاً.

علاج التكبر

علاج التكبر بالدنيا تذكر الموت وتذكر الأصل الذي كنا منه

(1) رواه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 173).

وسنرجع فيه. وعلاج التكبر بالآخرة تذكر القبول هل حصل أم لم يحصل، وأيضاً تذكر الخاتمة.. لا إله إلا الله.. كم غفل الناس عن شأن الخاتمة! في الحديث الذي قَضَّ مضاجع العارفين: «**إنَّ أحدكم لَيَعْمَلُ بِعَمَل أَهْلِ الجَنَّة حَتَى ما يَكون بَينه وَبَيْنها إلا ذِرَاع فَيَسْبق عَلَيْه الكتابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْل النَّار فَيَدخلها وَإِنَّ الرَّجل لَيَعْمل بِعَمَل أَهْلِ النّار حتى لا يكون بَيْنَه وبَيْنَهَا إلا ذِرَاع فَيَسْبق عَلَيْه الكتابُ فَيَعمل بِعَمل أَهْل الجَنَة فَيدخلها**»[1] أو كما قال: صلى الله عليه وآله وسلم.. إذاً النبي نبهنا.. لم علمنا هذا الحديث؟ لنكون على وَجَل وعلى خوف من الله ﷻ ولنكون على أدب مع الله.

لا نحتقر العصاة ونتكبر عليهم.. نحتقر معصيتهم لكن هم لا.. لا نحتقرهم.. لا نتكبر عليهم.. العاصي الذي ترينه أو العاصية ربما ينظر الله إليه أو إليها في ليلة فتصبح من الأولياء، من المحبوبين، وقليل الطاعة الذي عملتيه وتكبرت به ربما يمحقه الله ﷻ فتصبحين لا شيء، ربما يُسْلَب منك الإقبال والإيمان والعياذ بالله، قالوا: من أسباب سوء الخاتمة وسلب الإيمان الكبرُ والعياذ بالله؛ لأنها منازعة لله.. ما دامت منازعة لله يقصمها الله.. ما معنى القصم؟ القصم ليس المصائب والأمراض فقط.. القصم أخطره الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله، لهذا ينبغي للإنسان أن يتنبه.. جاء في بعض الروايات: يقول إبليس: قصم ظهري من سأل الله حسن الخاتمة.. يخاف اللعين أن يكون قد فطن.. يعني تنبه للمسألة.. هذا الأمر الثاني.

---

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 3332)، و**مسلم** في (الحديث: 6665)، واللفظ له.

ثالثاً: الرياء

الأمر الثالث الرياء: وهو أن يقصد الإنسان بالعمل مع الله غير الله، حب المنزلة في قلوب الناس، والرياء نقص في العقل ونقص في الإيمان وفي تعظيم الله؛ لأن الذي يرائي وينتظر قبول الناس أو إقبالهم أو احترامهم أو توقيرهم أو انتباههم أو ثناءهم، غاب عنه وغاب عن فهمه أن الناس عاجزون لا ينفعونه ولا يضرّونه، لو أن أهل الأرض جميعهم قد اجتمعوا وسجدوا للإنسان وعظّموه وأثنوا عليه ماذا يزيده ذلك؟ ماذا يزيده في الدنيا قبل الآخرة؟ في الواقع ماذا يزيده؟ ثم ماذا يزيده في الآخرة؟ ثم ماذا يزيده عند الله ﷻ ؟! لا شيء!! ولكن الزيادة التي يتوهمها الإنسان إحساس في نفسه.. هذا الإحساس مرض في النفس.. «أُحِب أن يُثنى عليّ، أن يمدحوني أن يحترموني، أن ينظروا إلي بنظرة الاحترام، بنظرة الإعجاب»، هذا سببه نقص تعظيم الله في القلب.. وإلا لو استولت معاني تعظيم الله في القلب أو على القلب، لما التفت إلى إقبال الناس وإلى إعراضهم.

أصل الرياء وسببه

فالرياء سببه وأصله النظر إلى ما عند الناس.. نقص تعظيم الله، وعلاجه الإخلاص.. طلب الإخلاص.. طلب أن يكون العمل لله خالصاً ليس لأحد فيه مراد، وهذا يرجع إلى قاعدة إدراك أن الناس لا يستطيعون أن ينفعوا أو أن يضروا، وإدراك أن النفس بها مرض وهو الالتفات إلى حب المنزلة في قلوب الخلق.

كيف العلاج من الرياء

قال بعض السلف: تسعة أعشار حجاب القلب سببها الالتفات إلى الخلق.. الالتفات إلى الناس، أي حب المنزلة في قلوب الناس.. وهذا أصل الرياء الذي يحصل، وعلاجه الإلحاح على الله والتضرع إلى الله.. علاجه التفكر في عظمة الله.. علاجه أن يقرأ الإنسان كلام القوم من أهل التربية والتزكية في شؤون الإخلاص وأوصاف أهلها.. علاجه أن يعلق قلبه بالصادقين المخلصين وأن يقرأ تراجمهم وسيرهم وما كانوا عليه.. علاج الرياء والمعين على الإخلاص القيام على النفس بالتهمة.. يعين على الإخلاص تذكر الموت وفناء الحياة.. يعين على الإخلاص لله ﷻ كثرة الذكر لله مع استشعار عظمة المذكور؛ فإن الذكر مع استشعار عظمة المذكور يملأ القلب بنور عظمة المذكور، فإذا ملىء القلب بنور عظمة المذكور لم يبق لأحد أثر على هذا الإنسان.

أنواع الرياء

يعرف الإنسان أن للرياء أنواعاً، منه الواضح الجلي، ومنه المتوسط، ومنه الدقيق الذي عبَّر عنه الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم بالشرك الخفي، الشرك الأكبر كما أسلفنا لم يعد موجوداً في عموم الأمة، لكن الموجودَ المنتشر حتى في كثير من أهل الالتزام وحب خدمة الدين الشركُ الأصغرُ أي الخفي، وهو لا يُخْرِج عن الملة.. يُسَمى شركاً مجازاً لأن الإنسان يعمل ويريد بعمله الله مع الناس، يريد الناس أن يثنوا عليه، قال النبي ﷺ عنه أَنَّهُ: «**أَخْفَى**

مِنْ دَبِيبِ نَمْلَةٍ سَوْدَاءَ عَلَى صَفَاةٍ صَمَّاء في لَيلَةٍ ظَلْمَاءَ»[1] . . خفيف دقيق، ومن دقائق الرياء هذا الدقيق: أن يقول الشيطان للإنسان أو تقول له نفسه: أنت أخلص لله. . اصدق مع الله. . لا تريد الناس بعملك. . اقصد وجه الله والله سيجعل الناس يحبونك ويحترمونك. . كيف؟ كيف؟! قال أنت أخلص مع الله والله سيوصل عملك إلى الناس، سيشعرهم أنك على خير. . أما أنت لا تقصد الناس لا تطلب منهم أن يعرفوا أنك على خير. . اصدق مع الله وهو سيجعل الناس تحترمك وتقدرك وتقدمك. . سيسوِّدك على الناس، سبحان الله! يا نفس السوء تضحكين علي بهذه الكلمة! كم منا يخطر على قلبه مثل هذا الخاطر! هذا من الرياء الدقيق. . كيف من الرياء؟ لِمَ نطلب نحن الإخلاص؟ نطلب الإخلاص لنيل رضوان الله. . الآن صرنا نطلب الإخلاص ليجعل الله الناس يحبونا. . فأصبحنا بالإخلاص الذي به يُطلب رضوان الله أصبحنا نطلب به الناس وهذه مصيبة.

فإذاً يتنبه الإنسان، والذي يقوم على نفسه بالتهمة يكشف الله له مثل هذه الدقائق، لكن الذي يقوم على نفسه بالتبرئة لها: أوه أنا كذا؟ لا أنا الحمد لله أحسن من غيري أنا عادة أفضل من كذا. . لا بد تلعب به نفسه وتعصف به هكذا، لكن الذي يقيم التهمة على نفسه. . يسيء الظن بها ويحسن الظن في الله وفي خلقه يفتح الله له هذا الباب. . بدلاً من أن يتأمل معايب الناس يتأمل معايبه هو. .

---

(1) رواه الإمام أحمد في (الحديث: 4/ 403).

يفتح الله له باب فهم عنه ﷻ . . والرياء شأنه خطير وكبير. . والقوم أفردوا له أبواباً في كتبهم. . ومن أحسن من تكلم عن التوسع في مثل هذه العيوب ومثل هذه الأمراض: هو الإمام حجة الإسلام الغزالي نفعنا الله به، في المجلد الثالث من كتاب: «إحياء علوم الدين». . تكلم عن مثل هذه الدقائق فيما يحصل للإنسان.

رابعاً: الحسد

والمسألة الرابعة والأخيرة من أمهات هذه الأمراض والأوصاف السيئة: الحسد: وهو استثقال رؤية النعمة عند الخلق، وبمعنى آخر: تمني زوال النعمة، تمني زوال النعمة فرع. . الحسد الذي هو تمني زوال النعمة فرع لأصل مرض في القلب وهو استثقال شهود النعمة عند الخلق. . يثقل عليه أن يرى النعمة عند الآخرين. . وهذا فيه أمر جلي أكثر الناس المستقيمي الطباع السليمي التربية يشمئزون منه. . لماذا نحسد الناس؟ الله يعطيهم، لكن هذا المرض فيه جوانب خفية حتى المستقيمين قد يقعون فيها. . استثقال رؤية النعمة. . متى تبرز؟ إذا اتصلت بالأمراض الأخرى: الرياء. . العجب. . الكبر. . هذه أمهات الأمراض الثلاثة تثمر في القلب الحسد.

وإبليس ما طُرِد إلا بسبب الحسد. . وما ناله الحسد ولا تمكن من قلبه إلا بسبب العجب: رأى أنه أفضل من غيره. . العجب مِنَّتُهُ على الله: أنا ما من موضع شبر إلا عبدت الله فيه. . الكبر بسبب العجب شهد أنه أفضل من غيره. . راءى الغير. . أراد أن ينظر الغير

إليه نظرة احترام ومحبة ومنزلة عالية، لذا ما أحب اللعين أن يُرَى ساجداً لآدم، هذه الأمراض الثلاثة أثمرت المصيبة الكبيرة: الحسد؛ لأنه يرى نفسه أفضل من غيره، ويرى أنه مستحق ويحب أن يلتفَّ الخلق حوله فيغضب ويشمئز من أن يرى غيره مجتهداً.. يرى الخلق يلتفون على غيره.. «أنا راءيت أصلاً، ضيّعت الإخلاص من أجل الناس فكيف الناس يذهبون إليه؟» أحسده.. أتمنى أن تزول منه هذه المسألة، ومعجب بنفسي: أنا عملت وعملت ولي منة على الله فكيف هذا ينال؟ أنا الذي أنال لأني أحقّ منه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1]، الكبر.. أنا أفضل منه، وما دمت أفضل منه لِمَ يُحَصِّل هو؟ لِمَ ينال ويكون له ويكون له؟ قالوا: والحسد حُمْقٌ ظاهر وغباوة جلية ومنازعة لله تعالى.

كيف يكون الحسد؟

الحسد منازعة لله.. اعتراض على الله.. الذي يحسد كأنه يقول لله: لماذا تعطي؟ لماذا يا رب تعطي فلان؟ كأنه يتألَّه على الله.. يتحكم على الله، ومن أنت حتى تعترض على الله في عطائه؟! وهناك فرق بين الحسد المعبر عنه بتمني زوال النعمة وبين الحسد (العين)، الناس يخلطون بين الأمرين، العين أمر قد يُبتلى به بعض الناس بأنه إذا نظر إلى أحد باستحسان حصل بسبب هذا النظر من الاستحسان أذى للإنسان الذي ينظر إليه، هذا العين.. وهذا

(1) سورة: الأعراف، الآية: 12.

علاجه الذكر لله عند كل استحسان: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، يعالج الإنسان نفسه من ذلك.. وهذا قد يحصل من بعض الأخيار بطبيعة في أنفسهم بغير قصد منهم، لكن الحسد الذي عليه المدار في أمهات الأمراض: تمني زوال النعمة.. إذا رأى الإنسان نعمة يتأثر منها.

والنعمة نعمتان: نعمة دنيا وهي صورة، ونعمة الآخرة وهي حقيقة، أما نعمة الدنيا فمن الغباء أن تحسد أهل الدنيا.. على ماذا تحسدهم؟! على أمر حلاله حساب وحرامه عقاب؟ على أمر دخوله بحساب وخروجه بحساب؟! الحساب في كل شيء سؤال واحد إلا المال: «من أين اكتسبه وفيم أنفقه»، بالعكس.. إذا رأيت صاحب المال أو صاحب المظهر الدنيوي ترثى له.. ترثى لحاله.. تسأل الله ﷻ أن يشفيه.. أن يعافيه.. تسأل الله ﷻ أن يعينه على الاختبار؛ لأن الدنيا اختبار، إذا رأيتم أهل الدنيا ارثوا لحالهم بدلاً من أن تحسدوهم أو تتمنوا أن تكونوا مثلهم، من الحمق ومن الغباء أن نحسد أحداً على دنيا.. على ماذا تحسده؟ على جيفة؟! على قذارة؟! هذا ابتلاء قد أصابه ينبغي أن نشفق على أهل الدنيا ونسأل الله لهم أن يجتازوا هذا الامتحان.. أن يوفقهم الله تعالى لأداء هذه النعمة بدل أن نحسدهم، ما هناك غبطة، ولا هناك رؤية تمني حال إلا لأهل الخير ولأهل النور.. اغبطي أهل الطاعة.. الدنيا نالها قارون.. كما نالها الصالحون.. أيضاً نالها الصالحون.. نالها أبو بكر فكيف تعامل معها؟ نالها عبد الرحمٰن بن عوف فكيف تعامل

معها؟ فالغبطة ليس للدنيا لكن للتعامل مع الدنيا.. لإحسان التعامل معها.

وقد يكون الحسد على شيء من أمور الآخرة.. فالحسد على شيء من أمور الآخرة أيضاً من نقص الفهم عن الله تعالى؛ فترى أحدهم يحسد الإنسان: لماذا صار من الصالحين.. لماذا صار من المحبوبين.. لماذا صار من المقربين.. لماذا صار من العلماء.. لماذا صار من أهل الاستقامة.. لماذا أفاض الله عليه من العلوم.. لماذا فتح الله على يديه فجعل على يديه هداية الناس؟.. فيحاربونه ويؤذونه ويتكلمون عليه حسداً منهم، هذا غباء! لِمَ؟ لأن الذي يحسد كأنه يظن أن خزائن الله محدودة.. إذا أعطى فلان خلاص سينقص نصيبه من العطاء! العطاء يُنْقِص المحدود.. ولكن غير المحدود لا يُنْقِصُه العطاء.

إن كان شيء محدود مائة ألف قَسَّمناها على اثنين كل واحد خمسين ألف.. لو دخل اثنان آخران سيغضب الأوليان.. لم؟ لأن الخمسين ستتحول إلى خمسة وعشرين.. المبلغ محدود فالكثرة تنقصه، لكن عطاء الله غير محدود، خزائن الله ملأى بالإحسان.. لا يزيدها الإنفاق إلا تَفَيُّضاً.. لا يصيبها الإحسان والإنفاق والإكرام إلا زيادة، والعاقل إذا رأى عند أحد ما يُستحسن ديناً وقرباً من الله يفرح لأخيه المؤمن، ويتمنى له الزيادة، ويسأل الله أن يزيده هو وأن يعطيه، لكن إن رأى غيره نال خيراً قال: لا أحب أن ينال فلانٌ شيئاً من هذا الخير.. يشاركني في هذا الخير.. سبحان الله! وهل هذا الخير محدود حتى يثقل عليك أن يأخذه أحد؟! هذا جهل بالله،

الحسد في أمور الدين جهل بالله تعالى: و«**لا يؤمِنُ أحدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنفْسِهِ**»[1].

وفرق بين هذا الحسد وبين التنافس المحمود، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[2].. التنافس المحمود: أن تتمنى أن تنال أنت وأن تسبقه دون أن تكره أن يسبقك.. تأملي هذا الأمر، يتمنى الإنسان أن يسبق أخاه إلى الله ولا يكره أن يسبقه أخاه، أُحب أن أسبقك ولا أكره أن تسبقني، لا أجعل: أحب أن أسبقك وأكره أن تسبقني.. لا، أحب أن أسبقك ولا أستاء ولا أغضب من أن تسبقني، وإن صحت الأخوة فإن أخي إن نال نلت، لأنه بسبب الأخوة ستعود عليّ بركات أُخُوَّتي معه وسأنال نصيباً بسبب أُخُوَّتي.. وحبي الخير لأخي سينالني بسببه الخير.

وقد جعل الله قاعدة في هذا الوجود.. أن الحاسد ذليل.. دائماً الحاسد ذليل نكد؛ لأنه كلما رأى نعمة يثقل عليه ذلك ويتضايق.. والنعم لا تنقطع من الله لعبيده فدائماً الحاسد في هم وفي غم، أيضاً الحاسد ذليل لأن الله ينتقم منه.. يجعله دائماً دون، والذي تكون نفسه سخية ويفرح للآخرين ويتمنى أن ينال غيره من الخيرات التي تقرب إلى الله فإن الله يُسَوِّدُه.. يجعله فوق الناس.

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 13)، **ومسلم** في (الحديث: 168)، **والترمذي** في (الحديث: 2515)، **والنسائي** في (الحديث: 5032)، **وابن ماجه** في (الحديث: 67)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 3/ 176).

(2) سورة: المطففين، الآية: 26.

الحسود لا يسود

سألتُ أحد أكابر شيوخنا.. بقية السلف وبركة العصر الإمام عبد القادر بن أحمد السقاف نفعنا الله به من كبار الأئمة الصالحين الذين بقوا في زماننا هذا وفي التسعين من عمره.. سألته: سيدي كيف يفوق الرجل أقرانه؟ الإنسان بطبيعة الحال في السبق إلى الله يحب أن يتفوق، لا يحب أن يسبقه أحد.. قلت: سيدي كيف يفوق الرجل أقرانه؟ قال: **لا يفوق الرجل أقرانه إلا إذا تمنى حقيقة أن يفوقه أقرانه**، الله! معنى دقيق.. لا يفوق أقرانه إلا إذا تمنى حقيقةً أن يفوقه أقرانه، ما معنى هذا الكلام؟ هو يبذل غاية الجهد ليتفوق ويتمنى أن إخوانه أيضاً يسبقون وينالون.. يتمنى أن يوفقه الله ويتمنى أن يُوَفَّقُوا أيضاً هم زيادة.. بهذا التمني يحصل في القلب اتساع.. في النفس سخاوة.. هذا الاتساع وهذه السخاوة يحصل بسببها انشراح وقرب من الله ﷻ ، فأحبهم إليه أحبهم لإخوانه في الحديث، أحب الإخوان إلى الله أحبهم لإخوانه، أكثرهم حباً للخير لإخوانه هو أقرب إلى الله ﷻ وأحب إلى الله ﷻ .

فالذي يكون على هذا الحال يكون هو صاحب السخاء وصاحب الاعتلاء، لذلك يقولون عندنا: الحسود لا يسود؛ لأنه دائماً في منازعة لله والذي ينازع الله لا بد يجعله في الأرض.. ويعترض على الله في العطاء.. وهذه من المصائب التي تصيب كثير حتى من الأخيار.. هذه من المصائب التي أصابت الأمة حتى في مجالات الدعوة إلى الله وطلب العلم وخدمة الدين، التحاسد بين

أفراد هذا الخير.. لم الناس أقبلوا على ذاك؟

هل يكون الحسد في الدين

الحسد أحياناً يكون في الدين.. في صورته في الدين وحقيقته في الدنيا.. كيف؟ إنسان دعا إلى الله وأقبلت الناس واحترموه وأحبوه وربما عاملوه بالإحسان وربما أغدقوا عليه بشيء من متاع الدنيا الوسخ القذر الذي هو امتحان له، لو التفت إليه لسقط من عين الله وإن بذله وأنفقه في مصادره كان ذلك خيراً له ولهم، ربما يرى الآخرون هذا المعنى.. يروا في مظهر الدين اجتماع أهل الدنيا عليه فيحسدونه لا على الدين.. لكن للأسف على اجتماع أهل الدنيا عليه.. يكيدون له.. يؤذونه.. لم؟ قال لأنهم يحترمونه، فلان وفلان يقبلون عليه يثقون به لماذا؟ لم؟ نحن أولى! أولى بماذا؟ أولى بالقرب من الله؟ اطلبوا القرب من الله هذا يُقْبَل منكم.. لكن أولى بماذا؟ أولى باحترام فلان وفلان؟ بتقدير فلان وفلان وثقة فلان وفلان ومال فلان وفلان؟! ما أقذر هذا الحال وما أوسخه! أولى بماذا؟ بالدنيا؟!

كان السلف يتقززون من الدنيا كما يتقزز أحدنا من الجيفة، العاقل إذا رأى اجتماع الناس على شخص من أجل الدين يدعو الله تعالى لهذا الشخص بالتثبيت.. يسأل الله له أن لا يُفْتن بالدنيا.. وإذا لم يفتن بالدنيا أيضاً أن لا يفتن بشيء هو أخطر من الدنيا وهو الالتفات إلى الناس، أخطر من أن يُفْتن بأموال الناس أن يفتن بتعظيم الناس له واحترام الناس له، إذا رأينا أحداً من أهل الخير

ومن أهل الدين والصلاح قد ابتُلِيَ بذلك ندعو له بالثبات.. ونتمنى له المعونة والتوفيق بدل أن نحسده.. نعرف أن هذا حِمْل ثقيل قد أُزِيح عنا وحُمِّلَه هو على كاهله.. نعينه وننصحه ونقوم معه بدلاً من أن نحسده، فهذا من الحمق، وأخبث من الحسد على الدنيا أن يُحْسَدَ أهل الدين على الدنيا، أن يَحْسِدَ أهلُ الدين أهلَ الدين على الدنيا، هذه من المصائب الكبيرة.. سببها: أن الإنسان أصبح يأخذ الدين للدنيا، وأن يأخذ الإنسان الدنيا للدنيا لا بأس، مسكين كلب من كلاب الدنيا يلهث.. إذا لم يكن له نية صالحة واستقامة، أما أن يطلب الإنسان الدنيا بالدين هذه قذارة.. هذا انحطاط.. وهي من أسباب الرياء، الذي يحب أن يرائي الناس بعمله الصالح واستقامته، بعبادته بطاعته، لم؟ لأجل أن يقدموه.. يحترموه.. يعظموه.. ويعطوه.. أصبحت تبذل الدين للدنيا، الدنيا مبذولة للدين وليس العكس، فينبغي للمؤمن أن يتنبه لهذا وأن يُخرِج عظمة ما سوى الله من قلبه حتى يقبل على الله إقبالة قبول لدى الله ﷻ.

علاج الحسد

وعلاج الحسد الاستغفار والتوبة والدعاء للذي تشعرين أنك تحسدينه، هذه من أقوى العلاجات، إذا رأيت في نفسك تغيُّظ على أحد أو بغض أو شحناء أو استثقال النعمة عليه وخشيت على نفسك من هذا الأمر الخطير؛ لأنه يحرق الحسنات، يحبط الأعمال والعياذ بالله في منازعة الإنسان لربه بالحسد.. إذا رأيت ذلك وخفت على نفسك ادعي الله تعالى في ظهر الغيب لمن شعرت بهذا الشعور

تجاهها، يا رب زدها من الخير.. يا رب مكن لها من الخير.. إن شعرتِ بحسد لها على الدنيا.. حقري نفسك قولي: هذه مسكينة مبتلاة بدل أن تحسديها ادعي لها: يا رب أعنها.. يا رب لا تفتنها بالدنيا.. يا رب اجعل الدنيا سبباً لرضوانك.. يا رب وفقها للطاعة.. في بداية الأمر سيكون ثقيل على النفس أن تستمري في الدعاء لهذه.. قد تتقبل النفس مرة أو مرتين لكن بعد ذلك يثقُل.. تَحَمُّلك لهذا الثقل وإلحاحك على الله بالدعاء علاجٌ ودواء للحسد الذي في نفسك.

وإذا كان من أجل الدين قولي: يا رب زدها من الخير الذي أعطيتها إياه.. يا رب زدها فتوحاً.. يا رب زدها ثباتاً.. يا رب نوّر قلبها.. يا رب يسّر أمرها.. يا رب أعنها.. يا رب ثبتها.. يا رب أكرمني كما أكرمتها، يكرمك الله تعالى ويزيدك.. وهذا علاج لحصول مثل هذا الحسد.

أيضاً علاج الحسد تذكر أن عطاء الله واسع وأن الاعتراض لا يمنع العطاء عن الغير ولا يفيض العطاء عليك ولكن الرضوان هو الذي يفيض العطاء.

قاعدة الحب في الله والبغض في الله

الحمد لله.. الحمد لله جامع القلوب على حسن معاملته.. ومُفَقّه الأرواح لكمال الأدب مع حضرته.. وصلى الله وسلم وبارك على خيرته من خلقه وصفوته.. القائل ﷺ: **«ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ طَعْمَ الإيمان: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحبُّه إلا لله وَأَنْ يَكْره أَنْ يَعُودَ إلى الكُفْر كَمَا يَكْره أَنْ يُقْذَف في النَّار»**(1)، صلى الله وسلم وبارك وكرم عليه وعلى آل بيته وأصحابه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد جرى الكلام عن طرق بعض قوادح العمل من أمراض القلب التي أمهاتها: العجب والكبر والحسد والرياء، وأم ورأس الجميع، محبة الدنيا أعاذنا الله تعالى من ذلك.. وطهَّر قلوبنا مما هنالك.. وسلك بنا أقرب وأيسر وأرقى وأحب المسالك.. وجنَّبَنا أسباب الزيغ والبلاء والأذاء والمهالك.. إنه ولي ذلك والقادر عليه، والكلام الآن عن أمرين عظيمين جليلين تدور حولهما قواعد

---

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 21) و(الحديث: 6041)، **ومسلم** في (الحديث: 164)، **والنسائي** في (الحديث: 5003)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 2/ 512).

عظيمة من قواعد الإيمان ألا وهما: الحب والبغض.. الحب والبغض: وصفان يتصف بهما قلب الإنسان السوي المستقيم الخلقة، المكتمل النفس شاء أم أبى.

البعض يظن أن وجود البغض في القلب أو وجود مظهر البغض في النفس دليلٌ ـ في كل الأحوال ـ على سوء النفس، وليس هذا صحيحاً.. لأن النفس السوية لا بد أن تحب وتبغض.. لكن الممدوح والمذموم في الحب والبغض: الأساس الذي يتوجه إليه الحب والبغض، فمهما توجه القلب إلى الله ﷻ، وصار إذا توجه إلى الخلق على أساس الحب لله تعالى كان ذلك علامةً ودليلاً وسبباً في ترقي الإنسان وارتقاء نفسه وزكاتها وحسن سيره إلى الله تعالى.

والبغض إذا توجه من القلب إلى أعداء الله تعالى وإلى البعد عن الله ﷻ فيبغض المؤمن معنى البعد والإعراض عن الله؛ فهذا النوع من البغض أيضاً يُمدح ويُستحسن في النفس السوية.. وفي ذلك سر وهو: أن جمع المتضادات لا يتأتى أن يكون للإنسان في سائر الأمور.: لا يتأتى أن أُحب فلاناً وأحب عدوَّهُ في نفس الوقت.. إن كان العدو عدواً ذاتياً.. عدواً كاملاً؛ لأن العداوة التي تكون بين الناس عداوة كاملة ذاتية مستغرقة وعداوة نسبية.. قد يعادي الإنسان إنساناً لأمر من الأمور.. لسبب من الأسباب.. لطارىء.. لعارض.. وقد يعاديه ذاتاً مثل عداوة إبليس للبشر، إبليس لم يظلمه آدم ولم يؤذه ولم يحصل بينه وبينه شيء حتى يعاديه، ولكن عداوته قامت على أساس الحسد والكبر والعجب

والرياء.. فهي عداوة ذاتية ما استطاع أن يزيلها أبداً..

كل العداوة قد تُرْجى إزالتها
إلا عداوة من عاداك عن حسد

من فهم هذا المعنى أدرك صحة القول بأن الإنسان لا يتأتى أن يحب إنساناً ويحب في نفس الوقت عدوه الذاتيّ؛ فلا يتأتى أن نحب الله ونحب عدو الله وهو الشيطان.. ولا يتأتى أن نحب الله ونحب الدنيا عدوة الله.. فبقدر ما يزيد من هذا لا بد وأن ينقص من ذاك، ولأجل وجود هذه الصفة في النفس الإنسانية جعل الله ﷻ توجيه الحب والبغض مربوطاً بحقيقة الإيمان.. لا يتأتى أن يصدق الإنسان في حب الله ورسوله ثم يودُّ من حادَّ الله ورسوله.. لا يتأتى! يرى أمامه من يعاد الله ورسوله.. من يؤذي المؤمنين والمسلمين ثم يجد في قلبه محبة له.. هذا لا يتأتى أبداً أن يتفق والإيمان: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[1] حتى لو كان أباً أو ابناً أو زوجاً أو عشيرة؛ لأن حقيقة المحبة إذا استولت على القلب لم تبق للسوي أو للغير منزلة أو مكانة.

ولأن الحب هو وصف من أقوى أوصاف النفس المؤثرة على الإنسان، الحب إذا ملأ القلب يجعل القلب عاجزاً عن أن يقاوم من أحب، «**حبُّك الشيء يُعمي ويصمّ**»[2]، فإذا أدرك المؤمن هذا الأمر

---

(1) سورة: المجادلة، الآية: 22.

(2) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 5130)، والإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 194)، و(الحديث: 6/ 450).

وأدركت المؤمنة أثر المحبة في الإنسان عرف أن الحب يجعل الإنسان ينشط أو يكسل.. يجعل الإنسان يندفع أو يتراجع.. يجعل الإنسان يقوى على ما كان ضعيفاً عليه من أجل المحبة.. إن الحب يجعل الإنسان يتفانى.. يجعل الإنسان يستطيع أن يقدم حياته إن قويت المحبة في قلبه، فدافع المحبة من أقوى الدوافع في نفس الإنسان، لهذا لا يتأتى أن تُصرف لغير الله تعالى أو أن تكون في غير الله تعالى.. إما لله وإما في الله.. أما أن لا تكون لله أو لا تكون في الله فهي ضياع للإنسان.

معنى أن تُسَلِّم قلبك بالمحبة لجهة.. معنى هذا الكلام: أن تُحَكِّم الجهة في قلبك.. فالإنسان مهما سَلَّم قلبه لجهة حَكَّمَها في هذا القلب، القلب إذا أحب احتكم.. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾[1]؛ فإذاً ثمرة المحبة الاتباع.. والاتباع نوع من التسليم والاستسلام، لهذا إذا أحب الإنسانُ وجد نفسه منساقاً للطاعة لمن يحب.. وجد نفسه ممتلئةً بالانشغال بمن يحب.. وجد نفسه حساسة متأثرةً بكل ما يصدر عن من يحب.. وجد نفسه قد أُسِرَت لمن يحب.. والمؤمن لا يتأتى أن يُسَلِّم قياده لغير الله.

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما

والحب نوع عالٍ من أنواع تسليم القياد واستسلام النفس، لهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ثلاث من كُنّ فيه فقد استكمل**

(1) سورة: آل عمران، الآية: 31.

حقيقة الإيمان»[1]، الأولى متعلقة بأسمى وأرقى وأعلى وأعظم حقائق الحب ومعانيها ومظاهرها، **«أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**.. هذه القاعدة أين منزلتها اليوم من القلوب؟ هل بلغ حب الله وحب رسوله هذا المبلغ من قلوبنا؟ أحب إليه مما سواهما، وتأملي قول الحبيب المصطفى: **«أن يكون الله ورسوله»**.. لم يقل: **«ثم رسوله»** حتى لا يأتي بعض ضعاف الفهم قساة القلوب أُسَرَاء الجهل والعصبية، فيقولون لنا في يوم من الأيام: لا تُكثروا من الثناء على النبي.. لا تقارنوا الرسول بالرب.. لا تعطفوا.. لا تقولوا الله ورسوله.. قولوا: الله ثم رسوله.

نقول: الحديث الذي يُتَشَبَّث به في ذلك إنما كان رسول الله يخاطِب به حديث عهد بشركٍ وجاهلية.. لكن لما استقر نور الإيمان، قال: أن يكون الله ورسوله.. فجعل حب الرسول من حب الله.. وجعل حب الله وحب الرسول شيئاً واحداً، حتى بعد ذلك في الضمير لم يقل: أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سوى الله ورسوله بل قال: **«من سواهما»**.. فجعلهما على ضمير مثنى واحد؛ ليعلمنا أن لا انفصال بين حب الله وحب رسوله.. بين تعظيم الله وتعظيم رسوله.. حتى لا يقول جاهل من الجهلة: لا تبالغوا.. لا تغالوا.. لا تكثروا.. لا تخرجوا الرسول عن حده، وهل تعرف أنت حده حتى تقول: أنَا أخرجناه عن حده؟!

القرآن مليء بهذه المعاني: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2]..

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

(2) سورة: التوبة، الآية: 1.

القرآن مليء بعطف الرسول على الحق ﷺ وفي هذا بيان لبطلان وفساد الفكر الذي يقوم على هذا التفريق.. «**أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُوله أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهما**»، فأين هذا المعنى منّا؟ هل كان الله ورسوله أحب إلينا من أنفسنا؟ أحب إلينا من أولادنا؟ أحب إلينا من أهلينا؟ أحب إلينا من أموالنا؟ أحب إلينا من أهوائنا؟ أحب إلينا من مجتمعاتنا؟ تفهمين هذا المعنى؟ لا يكتمل الإيمان عندك حتى يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما.. وهذه القاعدة لو تَرَسَّخَتْ في باطن المؤمنة صحت لها بعد ذلك قاعدة الحب في الله والبغض في الله؛ لأن الأصل سيطرة وهيمنة واستيلاء حب الله ورسوله على القلب.. فما كان مما عدا الله ورسوله نقيس حبه على أساس حب الله ورسوله.. فلا نحب أحداً بدون هذا المقياس.

لم أحببتِ فلانة؟ لم ملتِ إلى فلانة؟ لم ارتحتِ إلى فلانة؟ قالوا: دمها خفيف.. مجلسها أنيس.. إذا جلسنا معها نستأنس إليها، فلانة هذه تمدحني دائماً تثني علي.. فلانة هذه تهديني الهدايا.. هذه الأسباب النفسية الهوائية الطبيعية موجودة في البهائم وموجودة في الحيوانات، الكلب ـ أعزكم الله تعالى ـ إذا وجد من إنسان حنانة عليه أو إشفاقاً عليه أو إكراماً له أو اعتناءً به أو انتباهاً له أحبه وتعلق به، لكن أنت مؤمنة قد صرفت قلبك إلى الله وربطت فؤادك بالله، ليس حبك وميلك واستحسانك وتقريبك وقربك وإيثارك وارتباطك بمن حواليك.. ليس ذلك بمتصل بشؤون استحساناتك النفسية البشرية.. بهذه الأوصاف قد تكون في فاجرة.. قد تكون في كافرة.. تكون فاجرة أو كافرة دمها خفيف كما يقولون. لطيفة

المجالسة.. يُستأنس إليها.. قد تكون فاجرة أو كافرة تحسن المدح.. تحسن الخدمة.. فلا ينبغي أن نصرف مشاعر قلوبنا إلى استحسانات أنفسنا.

ينبغي أن نصرف حقائق محبتنا إلى التي تحرص على أن تقربك إلى الله تعالى، هذه التي تنصحك نصيحة قد تستثقلها نفسك.. لو تأملت ثمرة هذه النصيحة.. لو تأملت بركة هذه النصيحة.. لو تأملت أثر هذه النصيحة.. لوجدت الثمرة.. البركة.. الأثر.. قرباً من الله.. نجاةً من النار، لو جاءت واحدة تصيح عليك بصوت مرتفع: إيه! إيه! عقرب في ثوبك بسرعة أخرجي العقرب! عقرب في ثوبك! لما لا تنتبهي اسمعي كلامي! ما تسمعي! وإن رفعت الصوت، وإن وبخت،.. إن صَحَّ الكلام أن عقرباً في ثوبك هل ستنشغلين بأسلوبها؟ تقولين: يا أختي انصحيني بأسلوب محترم حتى أقبل نصيحتك.. يحصل هذا؟! لا يحصل! لأن العقرب خطِر، وشعور بالخطر في قلبك تجاهه يجعلك ممتنة لمن نبَّهتك ولو بالتوبيخ.. وما عسى أن تكون لسعة العقرب؟ غاية الأمر ألمٌ إن دام دام أياماً ثم ينقضي وينتهي.. وغاية ما يحتمل أن يصل إليه الموت وهذا نادر حدوثه من العقرب.. فما تكون لسعة العقرب أمام لسعة الذَنْب؟ أمام لسعة المعصية؟ أمام لسعة التقصير مع الله ﷻ التي تلسع في قلوبنا، فإذا ماتت القلوب فأي قيمة للحياة؟! فصارت التي تنبهك والتي تنصحك أحبّ إليك وإن استثقلت نفسك ذلك وإن لم تحب ذلك، وإن مالت إلى التي تزين لك الحياة التي تعيشينها.. الأعمال التي تعملينها.. هذه لن تنفعك

إذا دخلتِ إلى قبرك.. لكن هذه التي قد تستثقلينها ستجدين الثمرة إذا دخلت إلى قبرك.. ستنفعك النصيحة التي نصحتك إياها.. هذه تنقذك.. كم ستكونين ممتنة إذا نبهتك واحدة، وقالت: انتبهي لا تجلسي هنا! هنا عقرب.. هنا ثعبان.. انتبهي هنا شيء سيوسخ ثوبك، أوه جزاك الله خيراً نبهتنا.. تشعرين بمودة ومحبة لها.. تشعرين أنها قد أسرتك بفعلها هذا.. إذا ذكرتها تذكرينها بشعور المنة.. فكيف بالتي تنبهك إلى شأن قربك من الله ﷻ ؟

قواعد المحبة والبغض ينبغي أن تُقَوَّم في قلب السائرة إلى الله.. أنت أردت الله ﷻ فكيف تصرفين مشاعرك.. قلبك إلى غيره؟ «**أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُوله أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهما**».. «**مِمّا سِوَاهمَا**».. «**مِمَّا سِوَاهمَا**».. «**مِمَّا سِوَاهمَا**».

هذه القصة المشهورة التي تُكَرَّر للمرأة الأنصارية التي قُتل أبوها وزوجها وأخوها في معركة مع الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم وأخرى قُتِلَ أولادها، الأولى هذه زوجة عمرو بن الجموح ﷺ لما أراد أن يخرج إلى الجهاد فمنعه أولاده لعَرَجٍ قد أصابه، وقالوا له: إن الله قد أعذرك، فذهب إلى رسول الله يشكوهم وقد أخبروا رسول الله بالخبر قبل أن يصل أبوهم فقال له رسول الله: «**لاَ عَلَيْكَ إنْ جلست فَقَدْ أَعْذَرَكَ الله لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ حَرَجٍ**»، قال: ألعرجتي يا رسول الله؟ ألأني أعرج؟ قال: «**نعم**»، قال: دعني أخرج يا رسول الله.. أما وإني لأرجو أن أطأ الجنة بعرجتي هذه، فقال رسول الله: «**لاَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتْرُكُوه**»(1)، فخرج

(1) رواه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 9/ 24).

وخرج معه أولاده وخرجت زوجته، وخيضت المعركة، وكانت الزوجة جُلُّ اعتنائها في معركة أحد بعد أن انكسر الجيش بسبب مخالفة الرماة لأمر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.. كان جُلُّ فكرها كيف تَذُب الأذى عن رسول الله.. فكانت إذا رأت سهماً أراد أن يصيب رسول الله تلقَّته بيدها أو بكتفها، والدم يسيل منها وهي غير مبالية.. ورأت زوجها وقد صُرِعَ وقُتِل في ساعته تلك فلم تذهب لتنظر إليه انشغالاً برسول الله.. رأت ولدها الأول وهو يُقتَل، فلم تلتفت والثاني والثالث حتى قُتِلَ جميع أبنائها، ولم يبق لا زوج ولا ولد وهي في أثناء المعركة لم تبك.. لم تلتفت.. لم تنشغل.. لم تتوقف.. همها الأكبر: كيف يَسْلَمُ رسول الله.

فلما انتهت المعركة استعانت بمن يضع زوجها وأولادها على بعيرها، وأخذت بخطام البعير عائدة إلى المدينة وعلى بعيرها أحب الناس إليها فطرةً وغريزةً: زوجها وأولادها، ودماؤهم تقطر وقد فارقوا الحياة، فَاسْتَقْبَلَتْها النساء قبل الوصول إلى المدينة بمسافة، وهن جزعات فزعات لَمَّا سمعن أن الجيش انكسر، والقتل قد استحرَّ في المسلمين، فقلن: ما الخبر من ورائك؟ قالت: الحمد لله كل شيء على ما يرام فرسول الله بخير! كل شيء على ما يرام؟ كيف؟ ما الذي وراء ظهرك؟ جمل.. ما الذي على الجمل؟ زوجك وأولادك؟! وكل شيء على ما يرام؟! لأن رسول الله بخير، ما هذا المعنى الذي وقر في تلك القلوب الطاهرة النقية؟ قالوا: لما انتهت من كلمتها برك البعير محله.. كلما حاولت أن تحركه ليواصل السير إلى المدينة برك.. فإذا وَجَّهته إلى أُحُدِ قام.. أعادته إلى المدينة

برك.. وجهته إلى أحد قام.. فعادت به إلى أُحُد ورسول الله قائم على دفن أصحابه وآل بيته الذين قُتّلوا في المعركة، فقالت: يا رسول الله إني رأيت من أمر هذا الجمل عجباً، قال لها: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قالت: كلما وجهته إلى المدينة برك وإذا وجهته إلى أُحُد تحرك، فقال: «**هَلْ سَمِعْتِ زَوْجَكِ عَمْرو يَقُولُ شَيْئاً قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنْ مَنْزِلِهِ؟**» قالت: نعم يا رسول الله، قال: «**فَمَا كَانَ يَقُول؟**» قالت: كان يقول: اللهم إني أسألك أن لا تخزيني بعودتي إلى بيتي هذا.. اللهم ارزقني الشهادة ولا تحزني بعودتي إلى منزلي، فبكى رسول الله.. وقال: «**بَخٍ.. بَخٍ! إِنَّ لله رِجالاً لَوْ أَقْسَمَ أَحَدهم عَلَى الله لأَبَرّه وَإِنَّ زَوْجَك مِنْهِمْ**»، هو سأل الله أن لا يعود إلى المنزل فما أراد الله أن يعيده إلى المنزل ولو ميتاً، ودفن في أحد.

هذا المعنى الذي وقر في قلبها، والآخر الذي وقر في قلب الأنصارية التي خرج زوجها وأولادها وأخوها وأبوها للقتال مع رسول الله فلم يرجع أحد منهم، وخرجت مع النساء عند العودة من المعركة.. خرجت النساء اللاتي في المدينة تستقبل العائدين من المعركة.. وكل امرأة من النساء قلبها مشغول وهي قلقة.. تخيَّلي واستشعري هذا المعنى.. لا تدري هل يعود أبوها أو زوجها أو أخوها أو ولدها الذي خرج للمعركة أو لا يعود.. والنساء شاخصات الأبصار وقلوبهن تخفق: هل يعود محبوبها أو قريبها أو لا يعود، لكن هذه المرأة كان بين حناياها قلب قد امتلأ بالانشغال بمحبة الذي لا يوجد في الخلق من هو أحب منه إلى قلبها.

قال لها أحد الذي تلقوها عند مدخل المدينة: يا هذه احتسبي أباك فقد قُتل في سبيل الله، قالت: الحمد لله الذي شرفني بشهادته فما فعل رسول الله؟ فقال لها هو أو آخر: وكذلك احتسبي زوجك عند الله فقد قُتل، قالت: فما فعل رسول الله؟ قيل لها: لقد قُتِل أولادك كلهم، قالت: فما فعل رسول الله؟ قيل لها: قد قُتِل أخوك، قالت: ويحكم ما فعل رسول الله؟ قالوا: هو بخير كما تحبين، قالت: أرونيه.. أرونيه حتى أنظر إليه، أرونيه.. فإن بين حناياها قلباً قد عرف حقيقة الشوق والذوق.. فلا يقِرَّ قراره حتى ينظر إلى محبوبه.. أرونيه حتى أنظره، قالوا: هو ذاك قد أقبل فانظريه، فأقبل بوجه أضوأ من القمر بل من الشمس في رابعة النهار.. وقد كان وجهه إذا نظر الناظر إليه يحسب الشمس تجري في وجهه، ولله در السيدة عائشة.. السيدة عائشة لما قالت: كنتُ في حجرتي أخيط ثوباً لي فانكفأ المصباح وأظلمت الحجرة وسقط المِخْيَطُ (أي الإبرة).. فبينما كنت في حيرتي أتحسس مِخيطي إذ أطلَّ عليَّ رسول الله ﷺ بوجهه من باب الحجرة.. رفع الشملة وأطل بوجهه.. قالت: فوالله الذي لا إله إلا هو، لقد أضاءت أرجاء الحجرة من نور وجهه.. حتى لقد التقطتُ المخيط من نور طلعته.. ثم التفتُّ إليه فقلت: بأبي أنت يا رسول الله.. ما أضوأ وجهك! فقال: «**يَا عَائِشَة الوَيْل لِمَنْ لا يَرَانِي يَوْم القِيَامة**»، اسمعي. هذا كلام النافذ قوله.. كلام الذي لا ينطق عن الهوى.. إن هو إلا وحي يوحى.. «**الوَيْل لِمَنْ لا يَرَانِي يَوْمَ القِيَامَة**»، قالت: ومن ذا الذي لا يراك يوم القيامة يا رسول الله؟ قال: «**من ذُكِرْتُ عِندَهُ فَلَمْ يُصلِّ**

عَلَيَّ»[1]، هذا الذي ليس في قلبه إحساس.. ليس في قلبه محبة.. ليس في قلبه عاطفة.. ما في قلبه تعلق.. لم يستشعر شرف الصلة بي فلم يصل عليّ.. لم ينبعث هذا المعنى في قلبه.

قالوا: فلما أقبل صلى الله عليه وآله وسلم بوجهه الوضّاء ونظرتْ إلى طلعته هيَّج معنًى دفيناً في قلبها من محبته.. هيجت طلعته وهيَّج فقدها لأحب الناس إلى أمثالها من ولد وزوج وأخ وأب.. هيَّج فيها معنى الحزن، وقابل ذلك تهييج معنى المحبة فأمسكت بطرف ثوب رسول الله وصاحت قائلة: **كلُّ مصيبة بعدك جللٌ يا رسول الله!** يعني: لا شيء، بسيطة هينة ما دمت أنت بخير.

هذا المعنى من إيثار الله ورسوله أين هو الآن في قلوبنا؟ «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»، وإذا أحب الإنسان ربه أحب الخلوة به؛ فإن المحب يحب أن يختلي بمحبوبه، قالت امرأة من الصالحات المتعلقات بمحبة الله تصف مجالستها للنساء على وصف التناصح أو إدارة الحديث النافع مع كون قلبها مشغولاً بالله قالت:

ولقد جعلتُكَ في الفؤادِ محدِّثي
وأبَحْتُ جِسْمي مَنْ أرادَ جُلوسي
فالجسمُ منِّي للجليسِ مُؤانِسٌ
وحبيبُ قلبي في فؤادي أنيسي

إذا أحب الإنسان بصدق أَنِسَ إلى من يحب.. أَنِسَ إلى

(1) رواه **الترمذي** في (الحديث: 3546)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 1/ 201).

الخلوة بمن يحب.. ولم يبالِ بغير محبوبه.. رضي الناس أم سخطوا.. أقبلوا أم أعرضوا.. أحبوا أم بغضوا.. احتقروا أم عظَّموا.. احترموا أم أهانوا.. هو مشغول بمحبوبه، قالت في هذا المعنى رابعة رحمها الله تعالى:

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ
وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينكَ عامرٌ
وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صَحَّ منك الودُّ يا غاية المنى
فكلُّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ

فكل الذي فوق التراب تراب.. أي: إن صح منكَ الرضوان في مسلكي.. في معاملتي لك فلا أبالي بالخلق رضوا أم سخطوا، وذاقت من ذلك معنى فتحولت عبادتها من ثقل تكليف إلى ذوق تشريف.. قالت في معناه:

أحبكَ حُبَّين حُبَّ الهوى
وحُباً لأنكَ أهلٌ لذاك
فأما الذي هو حُبُّ الهوى
فشُغْلي بذكرك عمَّن سِواك
وأما الذي أنت أهلٌ له
فكشْفُكَ للحجب حتى أراك

ثمرة المحبة انشغال من قِبَل المحب بمحبوبه.. (فأما الذي هو حب الهوى): ميل قلبي إليك.. (فشغلي بذكرك عمن سواك)، وثمرة ذلك منك أنت يا محبوبي، (وأما الذي أنت أهلٌ له) أُحِبُّ ما أنتَ أهْلٌ له (فكشفك للحجب حتى أراك)، لذلك قالوا: إنّ أرقى

نعيم في الجنة هو نعيم النظر إلى وجه الله الكريم، أكرمنا الله وإياكن به.

قال: «**وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله**».. بمعنى: أن مقتضى حبي لله ولرسوله أن أجعل مقاييس حبي للناس قائمة على حبي لله تعالى، لِمَ أحببت فلانة؟ لأنها تنصحني، وتقربني إلى الله، لم أحببت فلانة؟ لأنها على صلاح وحسن استقامة، لم أحببت فلانة؟ لأن فيها صفات يُحبها الله تعالى، لم أحببت فلانة؟ لأنها تخدم الدين، لم أحببت فلانة؟ لأنها متعلقة برسول الله ومُحبة له، هذه الضوابط التي ينبغي أن نقيس عليها معاني محبتنا للآخرين.. وأن نغالب بها أهواء أنفسنا، وعلى قدر ما يقوى في القلب من حب الله ورسوله يقوى هذا الضابط في القلب.

البغض في الله

«**وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يُقذف به في النار**»، هذا البغض بغضٌ في الله: بغض الكفر.. بغض الارتداد.. بغض المعصية.. بغض الإعراض.. فأنا أحب فِيَّ إقبالي على الله وصدقي مع الله.. أبغض فِيَّ إعراضي عن الله ومعصيتي لله، أحب في الناس إقبالهم على الله، وإعانتهم إياي على الإقبال على الله، أبغض في الناس إساءتهم الأدب مع الله واجتراءهم على الله وإبعادهم إياي وتغفيلهم لي عن الله، الصاحبة التي تضحكني وتنفّس عليّ وتؤنسني بأمر فيه غضب الله.. من غيبة أو نميمة أو معصية أو مخالفة والعياذ بالله.. أيُّ صاحبة هذه؟ هذه عدوة وإن كانت في

صورة صاحبة.. أرثي لحالها وأدعو لها بالهداية وأجتنبها.. ليست بصاحبتي.. أجتهد على دعوتها على الخير لكن لا أسمح لقلبي أن يُقبل عليها أو يأنس لها.. «علامة الإفلاس الاستئناس بالناس».. لا يكون الإيناس نافعاً إن كان متوجهاً إلى الناس إلا إذا كان بضابط رضوان الرب وطلب ذلك.

هذا المعنى ينبغي أن يقرَّ في المؤمنة.. وأيضاً معه ينبغي أن تفقه المؤمنة أنه لا يوجد شيء في الوجود يُحَبُّ لذاته إلا الله.. قَطّ.. ما نحب شيئاً لذاته إلا الله، ومن أجل الله نحب رسوله أعظم المحبة في الوجود.. فنحن نحب في ذات رسول الله اصطفاء الله تعالى له، ونحب الناس على قدر قربهم من رسول الله وامتثالهم لأمره؛ لأنها علامة محبة الله لهم، كيف نعرف أن الله أحب فلاناً؟ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].. على قدر اتباعه للمصطفى ومحبته للمصطفى نتحقق من محبته لله ومحبة الله له.

كذلك في جانب البغض، هناك اختلاط يحصل للنفس الأمارة بالسوء.. النفس البشرية.. يحصل خلط كبير.. إذا رأت المؤمنة مؤمنةً أخرى في معصية أو في إساءة أو في اجتراء أو في إجرام، فلا يجوز أن نبغض ذاتها.. لا يجوز أن نحتقرها.. لا يجوز أن نترفع عليها أو نتكبر.. لا يجوز أن نُبَكّتَها أو نسيء إليها لمجرد الإساءة والتبكيت.. فإننا لا نبغض الذوات، هذه الذات وإن عصت.. من الذي خلقها؟ الله.. من الذي نفخ فيها من روحه؟

(1) سورة: آل عمران، الآية: 31.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1].. فيها نفخة الروح الإلهية، تقول لا إله إلا الله.. ففيها نور الكلمة الشريفة المقدسة المعظمة، خاتمتها غير معروفة.. ربما هذه التي أحتقرها، أو أسيء الظن فيها، أو أنتقصها، أو أتعالى عليها بسبب طاعتي وعصيانها.. ربما كُتبَ لها أن تموت على حسن الخاتمة.. ربما ينظر الله إليها في ساعة أو في لحظة فيقلب حالها إلى حالةٍ رفيعة عالية بسببها ربما أكون داخلةً إلى الجنة بشفاعتها.. هكذا ينبغي أن يفهم المؤمن والمؤمنة.

نحن لا نبغض ذاتاً أبداً ولو عصت، نبغض معصية العاصي، ولا نبغض العاصي، بمعنى: أنه بمجرد توبته لا ننظر إليه بنظر المعصية؛ بل الكافر بمجرد إسلامه يتحول إلى أخ لنا في الله، كذلك العاصي بمجرد توبته يكون أخانا، كذلك العاصي قبل توبته علينا مهمة دَلّه.. مهمتنا أن نجتهد عليه.. أن نتسبب في استمطار هداية الله له.. هذه مهمتنا مع العاصي، فلا نُفَرِّط بأن نميل إليه ونستحسن مجلسه ونأنس إليه وهو عاصٍ مخالف لله فتدخل ظلمة المعصية إلى قلوبنا.. فلا نُفَرِّط فنميل إليه، ولا نُفْرِطْ فنبغضه أو نسبُّه أو نتكلم عليه.. لكن نتلطف به.. نرحمه.. نرثي لحاله.. حتى لو احتجنا إلى شيء من الجفوة كعلاج.. نجفوه بظاهرنا وقلوبنا محبة الخير له، أما المؤمن لا يجفو بقلبه مؤمناً أبداً، لكن ظاهره قد يحتاج في حالات نادرة من الجفوة.. الأصل: الرفق واللين، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ

(1) سورة: الحجر، الآية: 29، وسورة: صَ، الآية: 72.

﴿لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾[1]، هذا شأننا مع أهل الإيمان إذا عصوا.

والكفار غير الحربيين.. الكفار الذين هم محل دعوتنا ننظر إليهم بعين الشفقة والرحمة لا بعين العداوة، أما الكفار الحربيون هؤلاء الذين يجب أن ننظر إليهم بعين البغض.. هؤلاء الذين يحادّون الله ورسوله.. الذين يذبحون المسلمين ويقتلونهم.. الذين يؤذون أهل الدين.. الذين يكيدون للإسلام.. فلا يبقى فينا إيمان إن أحببناهم.. إن أُعجبنا بهم.. إن عظمناهم.. إن ملأنا قلوب أبنائنا تعظيماً وإجلالاً وإعجاباً وشعوراً بالعجز تجاههم، هذه من الظُّلمات التي تُداخل بيوتنا وقلوبنا وأبناءنا ونجني بها على من نعول، أن نُعَظِّمَ في قلوبهم أحوال الكفار: هؤلاء متقدمون.. هؤلاء متطورون.. هؤلاء عندهم أخلاق أحسن من المسلمين.. هؤلاء عندهم التزام وأدب أحسن، من قال هذا الكلام؟ كذب ورب الكعبة!

ما مقياس حسن الأخلاق؟

ليست الأخلاق صورة المعاملة مع الناس.. الأخلاق الحقيقة التي تنبثق عنها هذه الصورة.. هم إن أحسنوا المعاملة مع الناس فلمصلحتهم.. عندهم قواعد تعودوا عليها وتربوا عليها: أن هذه الأخلاق سبب للنجاح، بدليل: أن الواحد منهم مع أخلاقه العالية في بلاده ومجتمعه يأتي إلى بعض البلدان الأخرى فنرى غرائب من

(1) سورة: آل عمران، الآية: 159.

تصرفاته: النصب.. الاحتيال المغلف الذي لا يمكن أن يمسك الإنسان بطرفه، حتى أن قاعدة في بريطانيا إنجليزية: ترجمة هذه القاعدة: «اسرق ولا تترك للقانون عليك ممسكاً»، فأخلاقهم ليست بأخلاق وإنما صورة أخلاق.. رحمتهم ليست برحمة إنما صورة رحمة.. إنصافهم ليس بإنصاف وإنما صورة إنصاف.. ما معنى رحمة بهرة وبكلب وقهر للإنسانية؟! تشريد لشعوب.. تجويع للأمم، يتكلمون عن رفق بإنسان، ورفق بحيوان، وهم يرمون أطناناً من القمح في البحر حتى يحافظوا على سعر القمح كي لا يرخص، وهم يرون أعداداً وآلافاً من الأمم يموتون جوعاً! أين الكلام عن الأخلاق إذاً والإنسانية؟! كذبة يكذبون بها علينا.. لنُعجب فنقول عندهم أخلاق الإسلام.. لا!

ولا نقر المقولة التي قالها بعض العلماء الذين افتُتِنوا بظاهر أحوال الغرب يقول: وجدتُ إسلاماً بغير مسلمين وعندنا مسلمون بغير إسلام، مقولة غير صحيحة.. غشّ الذي قالها.. اغتر الذي قالها بما رآه من المظاهر، أيُّ أخلاق تبيح للإنسان أن يشتري سيارة باهظة الثمن لكلبه، ويرمي أباه وأمه في دار العجزة؟! ثم يأتي يتفقدهما في يوم واحد من السنة هو الكرسمس، أو إذا انشغل يرسل باقة ورد: العفو هذه السنة ما استطعت أن أزوركما، هذا الإسلام الذي نقول أنه عندهم؟! الإسلام الذي عندهم أن يستمرئوا قبائح الفواحش من اللواط والسحاق والعياذ بالله.. والذي لا يفعلها فلا ينكرها بل يراها أمراً غير مناف للاستقامة للإنسانية، أي أخلاق التي يُتكلم عنها؟! التي تجعل الإنسان يستمر طول أسبوعه وهو يكد

ويتعب في تحصيل الرزق، ثم إذا أراد أن يرتاح يجعل راحته في شرب كأس من الخمر يضيِّع به ويصرف به العقل الذي هو آلة تمتعه وتعامله؟! هذا منتهى الفشل والانحطاط! أي مجتمع ناجح هذا الذي تُسَجَّل فيه أعلى نسبة من الانتحار.. أعلى نسبة من الجريمة.. أعلى نسبة من الاغتصاب.. أعلى نسبة من العنصرية.. أعلى نسبة من الفشل.. أعلى نسبة من التشريد.. مظهر الأخلاق أين هو؟!

يوجد في أكبر دولة وأقوى دولة اليوم في العالم.. يوجد فيها اثنا عشر مليوناً من المشردين الذين لا مأوى لهم، البيض فضلاً عن السود الآخرين.. يسمونهم الهوم لس أي: الذين لا بيوت لهم ـ المشردون ـ الذين لا مأوى لهم.. اثنا عشر مليون مشرد في أمريكا اليوم من البيض.. السود أضعافهم.. لا يجدون مأوى ينامون فيه أو يلجئون إليه.. من أين نعجب بهذا المعنى؟ صورة تقدم.. صورة حضارة.. صورة انضباط.. صورة أخلاق.. ليست ذاتية.. ليست إنسانية.. ليست متصلة بالله، من أين يأتي الإعجاب بها؟ أتْقَنوا؟ حَقَّقُوا؟! نحن نجني على أبنائنا في التربية لما نغرس في قلوبهم هذا الأمر، ينبغي أن نوقف أبناءنا على هذه الحقيقة، وأن أولئك القوم متخلفون يحتاجون إلى مد يد العون لإنقاذهم.. محتاجون إلى من يطورهم إلى حقيقة الخُلُق الذاتيّ النابع.. أمّا أنْ أحبهم.. أعجب بهم.. أقتدي بهم؟! فلا. نعم عند الكثير منهم محبة وتعلقاً بالفضائل من بقايا الفطرة. وهي مدخل لدعوتهم إلى الله ولكن ليس هذا بالحال الذي يُقتدى به. **وإنما حقيقة الأخلاق ما ارتبط صدوره عن الفطرة السليمة بإرادة وجه الله ورضوانه وقام على أساس الاتباع للمصطفى ﷺ**.

ما معنى أن ابنتكِ يعسر عليكِ إقناعها بالحجاب وبالشدة

تلزمينها الحجاب؟ ما معنى أنك كل يوم أنت وابنتك في نزاع.. يا بنت لا يصلح هذا ما هو من الأدب.. التسريحة هذه غير لائقة.. اللباس هذا عارٍ لا يصلح أن تلبسينه.. لم هذه المعركة في المنزل؟ لِمَ لَمْ يعد الأمر ذاتياً في نفس ابنتك؟ لِمَ لَمْ ينشأ في نفس البنت التي بلغت الخامسة عشر والسادسة عشر والعشرين.. لِمَ لَمْ ينشأ في قلبها ناشىء التقويم لما ينبغي ولما لا ينبغي؟ لِمَ لَمْ تقم فيها هذه الإدراكات؟ هذه التمييزات؟ هذا النضج؟

لأني ربيتها على قدوة غير صحيحة.. غير صالحة.. لأني لم أُعَمِّق في قلبها قاعدة البغض في الله مع الحب في الله.. لأني لم أطلعها على حقائق الأمر، أصيح على ابنتي لو لبست ثوباً لا يتناسب مع الثوب الآخر: هذا ما هو من الذوق يا بنت.. ما هو من الإتيكيت.. ما هو من الفن.. لكن لا أعرف أن أربيها وأن أُبكِّتها وأن أُرَغِّب لها أن تكون على الحياء، همي في إلباس الثوب أن يكون ثوباً جميلاً يلفت الأنظار: ياه! ثوبك أحسن من ثيابهن كلهن، أجني على ابنتي وهي طفلة: ثوبك هذا سيكون أحلى ثوب.. ستكونين أحسن واحدة، يترسخ في نفس البنت أن الإحسان وأن التميز وأن التقدم وأن التفوق يرجع إلى الثوب، فستسأل بعد ذلك: ماذا يحب الناس من الثياب ما دام أني سأفوق الناس بسبب ثيابي.. ما دام غُرِس في قلب البنت أن قيمتها وأنها أحسن واحدة ستكون في المجلس بسبب ثوبها وهي طفلة: يا بنت البسي هذا الثوب تكونين أحسن واحدة، البنت ستشعر أن تفوقها وكونها أحسن

الناس يرجع إلى ثوبها، يرسخ هذا المعنى في قلب البنت.. نجني عليها.. تكبر البنت قليلاً ترى ماذا يستحسن الناس من الثياب؟ استحسنوا العاري تعرَّت، استحسنوا غير المحتشم لبسته، استحسنوا البذيء استعملته؛ لأنها بحثت عن الوسيلة التي تكون بها متفوقة.. حب التميز في الإنسان مغروس. لما وجهت إلى الصورة الظاهرة والمظاهر الكذابة صارت هي المقصود.. فتوجهت القدوة إلى الغير، لَمّا لم تمتلىء القلوب بالحب في الله.. لَمْ يُغْرَس في قلب البنت حب فاطمة الزهراء ﷺ سيِّدتنا بنت المصطفى ﷺ.. لم يغرس في القلوب محبة سيدتنا خديجة.. سيّدتنا عائشة.. المحبوبات من الصالحات.. صارت البنت تحب وتعجب بالفاسقات... بالفاجرات تقتدي بهن.. تحاكيهن.. فهذه القاعدة ينبغي أن نقيمها في أنفسنا، فهي قاعدة قوية في السير إلى الله، وهي أيضاً قاعدة قوية في التربية التي ينبغي أن نعتني بها.

ولهذا قالوا: إن الله ﷻ أمر الملائكة أن يخسفوا بقرية من قرى بني إسرائيل لاجترائهم على الله وتماديهم في إغضاب الله، فقال الملائكة: يا رب إن فيهم فلاناً عابد ما عصاك قط، قال: به فابدؤوا.. به فابدؤوا.. إنه لم يَتَمَعَّر وجهه من أجلي قط مرة واحدة، بمعنى: فَقَدَ الإحساس بحقيقة محبتي وهو أن يغار عليّ.. يغار على ديني.. يغار على شريعتي.. يرى المخالفة فلا يستنكف منها.. ما عنده مانع أن يكون له صديق مخالف.. أن يحب المخالف، وأقبح من هذا.. تقول فلانة: أنا لي صاحبة مسيحية،

كيف صاحبة مسيحية؟! صاحبتي أحبها وأستأنس لها.. ماذا فيها؟ لها دينها.. لكم دينكم ولي دين، من قال هذا؟! نعم عامليها بالأخلاق.. عامليها بالإحسان.. تلطفي بها لتدعيها إلى الله ﷻ لكن أن تَوَدِّيها.. لا.

الله ما منعنا أن نَبَرَّهم.. أن نحسن إليهم.. أن نُقْسط إليهم.. لا يمنعكم الله من ذلك. ما منعنا الله من ذلك: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾(1).. نعم ما منعنا الله، لكن ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾(2)، امرأة تقول نصرانية معناها: تقول ربي له ولد.. كيف تكون محبوبتك؟! كيف تكون محل أنس لك إذا جالستيها؟ كيف تميلين إليها؟ كيف تستشعرين انسجاماً بينك وبينها؟ قدر الانسجام الذي بينك وبينها وحشة بينك وبين الله تعالى، لا أقول نسبّهم أو نشتمهم أو نؤذيهم.. تأملي.. المسألة دقيقة.

الناس تَطَرَّفوا إلى طَرَفين: طرف حمل السيف.. آه كفار مشركون أوه نبغضهم نعاديهم.. لا.. اسمع ما داموا ليسوا بحربيين أنت صاحب مهمة فيهم.. مهمتك أن تنقذهم من الذي هم فيه، والطرف الآخر: لا يا جماعة.. الدين دين محبة ووئام ما هو دين عصبية ولا تخلف ولا تطرف ولا إرهاب.. هؤلاء ناس أهل دين

(1) سورة: الممتحنة، الآية: 8.

(2) سورة: المجادلة، الآية: 22.

وأهل كتاب وهم مؤمنون.. لا ليسوا بمؤمنين.. هم كفار في القرآن: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] فجعل أهل الكتاب الذين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام وحَرَّفوا دينهم كفّاراً، ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نص صريح في القرآن، هناك كلام الآن يُبَث في مجتمعاتنا.. المقصود به إزالة بقايا الحواجز التي بيننا وبين الكفار حتى يندمج مجتمعنا ويختلط بهم ويمتزج ويصير كمجتمعاتهم، لا وألف لا، الكافر كافر.. نصرانياً كان أو يهودياً أو مجوسياً أو بوذياً، أُحسن إليه.. أحسن معاملته.. أتخلق معه بالأخلاق الحسنة لكن لا آنس إليه.. أرحمه.. أشفق عليه.. أتمنى له الخير.. أحب له الخير بأن يُسلِم ولا أحبه في كفره، بمعنى لا أرغمه على ديني ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[2]، ولا أكون سيئاً في التعامل معه أيضاً، أشكره على الإحسان وأجازيه، لكن لا يكون قلبي معه كقلبي مع المؤمن.

هذا ينبغي أن يُقَوَّم عندنا، كيف يكون لك صاحبة نصرانية؟! تقولين أنت لا تعرف هذه أخلاقها طيبة وتساعدنا واستفدنا كثيراً منها، واحدة تقول لك والعياذ بالله: أنت ابنة كلب! لعنة الله على أبيك! وأخلاقها معك في الجوانب الأخرى تمام ممتازة وطيبة.. وتحسن إليك وتعلمك.. تقبلين التعامل معها؟ تقبلين؟ قطعاً لا.. لِمَ؟ لأنك تحبين أباك.. تغارين عليه.. وحبك لله؟ إن القول بأن عيسى ابن الله وأن الله ثالث ثلاثة والعياذ بالله، أقبح من شتم أبيك

(1) سورة: البينة، الآية: 1. (2) سورة: البقرة، الآية: 256.

وأمك وقبيلتك كلها! لأنه تجرُؤ على الله.. ولو صدقتِ في حب الله ما استطعت أن توالي من كان هذا حاله مع الله.

فينبغي أن نقيم الأمور في موازينها، لا نحب الذي يعطينا المال؛ لأنه أعطانا المال، لا نحب الذي سهَّل لنا الدنيا وملذاتها.. نحب من أجرى الله الخير له على أيدينا نعم.. نشكر من أجرى الله له النعمة على أيدينا نعم.. لكن نجعل أساس المحبة الاستعانة على طاعة الله، هذا الأمر إذا قُوِّم صَحَّ السلوك إلى الله تعالى، وإذا اخْتَلَّ اختل السير مع الله إلى الله..

المرء مع من أحب

ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم للأعرابي الذي قال: يا محمد.. فقال الصحابة: لا تدع رسول الله باسمه مجرداً فقد نهينا عن ذلك، فقال: لا أناديه إلا هكذا، لم يقصد الاحتقار ولا الانتقاص ولا الاستكثار على رسول الله.. لأننا نسمع أناساً يقولون: لا تقولوا سيدنا.. السيد هو الله.. ما هذا البغي؟! ما هذا الجفاء؟ ما تقرأ في القرآن في حق سيدنا يحيى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[1] ما تسمع قول الحبيب المصطفى في الحديث الصحيح: «**أَنَا سَيِّدُ وِلْدِ آدَمَ وَلاَ فَخْر**»؟[2] ما هو سيدك وحدك.. سيد ولد آدم

(1) سورة: آل عمران، الآية: 39.

(2) رواه **مسلم** في (الحديث: 5899)، **وأبو داود** في (الحديث: 4673)، **والترمذي** في (الحديث: 3606)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 4/ 107.

ولا فخر.. السيد الله ومن سَيَّده الله فهو سيد.. ما تسمع في الحديث الصحيح يقول للأنصار: «**قُومُوا إلى سَيِّدِكُمْ**»[1] يعني: سعد بن معاذ؟ ما المقصود من الانتقاص من قدر النبي ﷺ؟ من غرس الحساسية في نفوس الناس تجاه تعظيم النبي ﷺ؟ يريدون هدم حقيقة الدين في قلوبنا.. زعزعة معاني الإيمان.

جاء الرجل وقال: يا محمد ـ بغير قصد انتقاص لكنه أعرابي تعود على ذلك ـ يا محمد! قال له رسول الله: «**لَبَّيْكَ هاؤم**»، فقال: المرء يحب القوم ولمّا يلحق بهم.. يعني: حاول أن يقتدي بهم.. فعل الفرائض.. ترك المحرمات.. أخذ السنن التي استطاعها وهو يجاهد نفسه مع ذلك مستمراً لكن ما استطاع أن يكون مثلهم في نفس رتبتهم.. المرء يحب القوم ولمّا يلحق بهم، قال: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[2]، قال الصحابة: فلم نفرح بحديث بعد الإسلام كفرحنا بهذا الحديث، تأملي هذا المعنى.. لِمَ ما فرحوا بالجهاد والأحاديث الدالة على الجهاد والشهادة والأحاديث المُرَغبة، النصرة، الصلاة.. كل الأعمال الصالحة نعم فرحوا بها.. لكن لم يفرحوا بحديث مثل هذا؛ لأنهم متيقنون بحبهم.. الحب قد ملك جَنانهم وكلياتهم فهم واثقون من المحبة فلما جاءت الضمانة بالمصاحبة والمرافقة حال المحبة فرحوا بذلك ولم يفرحوا بمثله... «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**».

---

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 3043)، ومسلم في (الحديث: 4571)، والترمذي في (الحديث: 856)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 3/ 22).

(2) رواه **البخاري** في (الحديث: 6168)، ومسلم في (الحديث: 6660)، والترمذي في (الحديث: 2387)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 3/ 104).

وفي الحديث الآخر: «**المرء يُحْشَرُ مَعْ مَنْ أَحَبّ**».. في الحديث الثالث: «**أَنتَ مَعْ مَنْ أَحْبَبْتَ**»[1]، هذه ثمرة المحبة فانظري مع من تحبين أن تكوني؟ أحبي.. أحببت كافرة أنت معها.. أحببت فاجرة أنت معها.. أحببت صالحة أنت معها.. أحببت ولية أنت معها.. أحببت المصطفى ﷺ أنت معه.. فهذه ثمرة الحب في الله.. أن يُحْشَر الإنسان يوم القيامة مع من أحب، فتداركي نفسك وبناتك، تعلقي بقوة بمحبّة السيدة البتول الزهراء تكونين يوم القيامة معها بنص الحديث الصحيح: «**يُحْشَرُ مَعْ مَنْ أَحَبَّ**»، وكيف يكون حشر فاطمة؟ عندما تطأطأ الجباه والناس في خوف وهلع وجزع، ينادي المنادي من وراء الحجاب: «**يا أهل المحشر غضوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد حتى تمرّ**»[2].. احنوا رؤوسكم.. طأطئوا جباهكم، ما الخبر؟ فإن فاطمة بنت محمد تدخل الجنة، فتمر بموكبها. يُحشر معها من عشن على محبتها، فتأملي أين تصرفين وجهة قلبك في الحب والبغض فإن له أثر على سلوكك في الدنيا وعلى أخلاقك فالإنسان يتأثر شاء أم أبى بمن يحب.. وينفصل شاء أم أبى عمن يبغض.. فأقيمي هذا الميزان في نفسك وفي أهلك وولدك ترين عجائب من إكرام الله تعالى لك في سيرك إليه.

أسأل الله ﷻ أن يكرمنا بحقيقة الإيمان، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحُبُّ في الله وَالبُغْض في الله مِنْ أَوْثَق عرى**

---

(1) رواه **مسلم** في (الحديث: 6652)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 3/ 159).

(2) رواه **الحاكم** في «المستدرك» (الحديث: 3/ 153) و(الحديث: 3/ 161)، ورواه **الطبراني** في «المعجم الكبير» (الحديث: 1/ 180).

الإِيمَان»[1]، رزقنا الله تعالى وإياكم ذلك.. وهيأنا لما هنالك.. وجعل حبه وحب رسوله أحب إلينا من أنفسنا ومن الكون أجمع.. وملأنا بالحب في الله والبغض في الله.. وجعلنا من أهل حقيقة المصافاة.. وسلك بنا مسالك أهل سوابق الإسعاد والمداناة.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.. والحمد لله رب العالمين..

---

(1) رواه ابن حجر في «فتح الباري» (الحديث: 10/ 463).

الإهتمام بإحسان العمل أهم من العمل

الحمد لله الفاتح الخاتم.. الأول الآخر.. الباطن الظاهر.. المقدم المؤخر.. بيده الأمر وإليه يعود وهو على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على القدوة العظمى.. والمرتقى الأسمى.. سيدنا ومولانا وحبيبنا وقرة أعيننا محمد عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

تكلمنا عن ترسيخ قاعدة الحب في الله والبغض في الله، ولقد جاء عنه ﷺ: **«مَا تَآخَى اثْنَيْنِ في الله تعالى إِلَّا كَانَ أَقْرَبَهما إلى الله تعالى»** وفي رواية: **«أَحَبَّهُمَا إلى الله تعالى أَحَبَّهُمَا لِصَاحِبِه»**، في الحديث أيضاً: **«إِذَا الْتَقَى الْمُؤْمِنَان فَتَصَافَحَا نَزَلَتْ عَلَيهِمَا مَائَة رَحْمَة تسْعُون لِأَشدهما فرحاً وَبِشْراً لِصَاحِبه وَعَشَرَةَ لِلآخر»**[1]، وفي رواية: **«نَزَلَتْ عَلَيْهِمَا مَائَة رَحْمَة، تِسْع وَتسعُونَ رَحْمَة لِأَشَدِّهِمَا فَرَحاً بِصَاحِبِهِ وَبِشْراً لَهُ وَوَاحِدَة لِلآخر»**، وإذا التقى المؤمنان فتصافحا تحاتت ذنوبهما كما تحاتّ أوراق الشجر.. **«تَصَافَحُوا يُذْهِبُ الغَل عَن قُلُوبِكُمْ»**[2]، نسأل الله ﷻ أن يحقق القلوب بحقائق المحبة..

---

(1) رواه **أبو داود** في (الحديث: 5211) و(الحديث: 5212)، **والترمذي** في (الحديث: 2727)، **وابن ماجه** في (الحديث: 3703)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 4/ 289).

(2) رواه **ابن حجر** في «فتح الباري» (11/ 55).

وأن يجعلنا من خواص الأحبة.. وأن يسقينا من شراب القرب منه أعظم شربة.. إنه ولي ذلك والقادر عليه..

والكلام الآن يرجع إلى أمر عظيم.. يترتب عليه شأن السلوك والسير إلى الله تعالى وهو: تصحيح قاعدة الفهم لأمر التكليف لنا بالأعمال، الله جلَّ جلاله خلقنا لمقصد.. وكلفنا بأعمال ينبغي أن نعتني بها ونهتم ونقوم بها ولها ارتباط بتحقيق المقصد، المقصد الذي خلقنا الله من أجله كما مر مراراً وتكراراً هو: العبادة، وفسرها بعض أهل التفسير: المعرفة.. ومن المقاصد في وجودنا في هذه الأرض: الخلافة عن الله تعالى فيها... ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، ولكن هذه المعاني التي أساسها قلبي باطني يرجع إلى وجهة القلب إلى الله بالتحقق بالعبودية.. وبعضها له ارتباط بالجانب الظاهري في عمارة هذه الأرض وإقامة أسس الخلافة فيها.. هذان المقصدان جعل الله تعالى إليهما سبيلاً وجعل لتحصيلهما سبباً ألا وهو: العمل الصالح الذي أمرنا الله تعالى به.

مهمتنا أن نقوم بالعمل لا أن نعرف ثمرة هذا العمل

الناس في فهمهم لمعنى الأعمال الصالحة تشعبوا، وافترقوا فمنهم من تطرف إلى جهة، فقال: الأعمال الصالحة لا تزيد الإنسان ولا تنقصه.. فإن الإنسان إن كُتِبَ عند الله سعيداً فلا يضره نقص العمل.. وإن كُتِبَ شقياً فلا ينفعه كثرة العمل.. فإذاً فلا داعي

(1) سورة: البقرة، الآية: 30.

للتركيز على العمل، نكتفي بشيء من الأعمال الضرورية كالواجبات، ولا نجعل للأعمال أهمية، وهذا كلام فيه خلط كثير للحق بالباطل.

في الجانب الآخر نسمع من يرى أن الأعمال هي الأساس.. ويرى أنه بدون الأعمال لا يتأتى لإنسان أن يحكم المعاملة مع الباري ﷻ .. لا يتأتى لإنسان أن يرقى في رتبة الاتصال بالله.. مهما كان الأمر، لا يتأتى إلا بالأعمال، فالأعمال هي التي تجلب القرب، وهذا أيضاً خلط شديد كبير بين حق وباطل.

أما القول بأن الأعمال لا حاجة لها؛ لأن الله تعالى إن كتب الإنسان سعيداً فلا يضره نقص العمل، وإن كان بالضد فلا ينفعه كثرة العمل.. صحيح هذا الكلام من جهة الحق، وغير صحيح من جهة الخلق، بمعنى: هذا الأمر يرجع إلى الله.. إن كان أراد السعادة لفلان أو الشقاوة لفلان.. فهل اطلع الإنسان على لوحه المحفوظ ليعرف أُريدَ به أمر السعادة أم أريد به أمر الشقاوة؟ لا، ثم هل كلفه الله بالبحث عن هذه المسألة؟ لمّا خلق الله الإنسان وأمره بعبادته هل كلفه بأن يعرف أولاً هل هو شقي أو سعيد ليعبد أو لا يعبد؟ ليس هذا من الخطاب الذي وجهنا الله إليه.. بل هذا من شأن الربوبية، أما الخطاب الذي وُجِّه إلينا: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1]، فعلمنا من هذه السورة العظيمة أن

---

(1) سورة: العصر.

الخسارة مُطَّرِدة في العالم الإنساني إلا مَنْ جَمَعَ بين الإيمان والعمل الصالح.. ومع الإيمان والعمل الصالح سنة التواصي بالحق والتواصي بالصبر؛ لأن الثبات على العمل الصالح بالإيمان من الأمور الصعبة التي تحتاج إلى مؤازرة المؤمنين بعضهم البعض.. بسبب العوارض.. بسبب الشياطين.. بسبب الأنفس الأمارة بالسوء.. بسبب الغفلة التي تطرأ على الناس..

فإذاً مهمتنا أن نقوم بالعمل وليس من مهمتنا أن نعرف ثمرة هذا العمل.. هل رضي أو لم يرض.. هل قبل أو لم يقبل.. هل نحن سعداء أم أشقياء.. هذه المعاني ينبغي أن نخاف من فقد السعادة ومن الوقوع في الشقاوة.. ينبغي أن نخاف من أن لا يقبل عملنا.. لكن لا نجعل هذا الخوف ينحرف عن مقصوده.

ثمرة الخوف

هي الجد في العمل.. ثمرة الخوف: التذلل بأن لا يغتر الإنسان بعمله، الذي يخاف أن لا يقبل عمله.. الذي يخاف أن يكون شقياً مع أعماله الصالحة.. ثمرة ذلك: أن يزداد ذلاً لله.. خضوعاً لله.. انكساراً لله.. إلحاحاً على الله.. بكاء من خشية الله.. تأدباً مع خلق الله.. هذه ثمرة هذا المعنى وليس ثمرتها أن يترك العمل أو يهمله، هذا المعنى الصحيح لحقيقة الخوف من الشقاوة أو من الرد للأعمال وعدم قبولها، ثمرةٌ حسنةٌ لهذا المعنى: أن يجتهد الإنسان في معرفة قوادح الأعمال التي تحول بينه وبين القبول، كالعجب والرياء والحسد والكبر وغيرها.. هذه المعاني ثمرة لشعور الإنسان بالخوف من عدم القبول أو للخوف من الشقاوة.

ولهذا كما مرّ أن جبريل عليه السلام لما لاحظ أن رجلاً يتفانى في العبادة ليل نهار من بني إسرائيل ووجده مكتوباً في اللوح المحفوظ أنه شقي، تأثر جبريل عليه السلام من هذا المعنى، واستأذن من الله بأن يخبر الرجل بذلك فأذن الله له وكان الرجل في صومعة من لَبِن ـ من طين ـ معرضاً عن الدنيا، فنزل عليه جبريل وأخبره. . . فقال: الحمد لله على كل حال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. . وعاد إلى عبادته لم ينقص ذلك من همته شيئاً، تعجب جبريل. . نزل إليه مرة أخرى قال له: أخبرتك أنك في اللوح المحفوظ شقي، قال: نعم، علمت ذلك، قال: فعلام استمرارك في العبادة وترك الدنيا هلا تلذذت وتنعمت بها ما دمت شقياً، فقال: يا جبريل إن الله خلقني وأمرني أن أعبده ولم يُعَلّق عبادتي له بشقاوة أو بسعادة فعليّ أن أقوم بما أمرني به والأمر بعد ذلك موكول إليه، مهمتي أعبد. . أما المسألة الأخرى فهي إليه عائدة. . أسأله أن لا يشقيني. . أخاف من الشقاوة. . لكن عملي هذه مهمة كلفني بها والثمرة ترجع إليه، فصعد جبريل وهو متعجب غاية العجب فوجد اسمه قد بدل في اللوح: سعيد. . سعيد. . سعيد. . ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾(1).

الجانب الثاني وهم الذين رأوا أن العمل هو الأساس. . ولم يلتفتوا إلا إلى الأعمال. . وجعلوا نقص الأعمال سبباً للحكم على الناس بالإساءة. . كما جعلوا أن قوة الأعمال وصورة اكتمالها

(1) سورة: الرعد، الآية: 9.

والإكثار منها سبباً لشعورهم بالإعجاب بأنفسهم والكبر على الآخرين.. وهذه من الظلمات، نعم، الله أمرنا أن نعمل.. واشترط علينا العمل ليسعدنا وليقربنا لكنه لم يأذن لنا أن نعتمد على العمل. والفرق بين الاعتماد على العمل وبين الأخذ بالعمل مع الاعتماد على الله تعالى: أن الذي يعمل الأعمال الصالحة، والمجتهد فيها كلما ازداد شعوراً بالاستحقاق.. كلما ازداد احتقاراً للآخرين.. كلما ازداد تشنيعاً على المقصرين.. ربما ينظر إلى إنسان أو إلى إنسانة أحدهما يعمل عملاً هو كان يعمل مثل العمل الذي يعملانه من السوء.. يرى عاصٍ أمامه.. ترى المؤمنة عاصية أو مقصرة.. ترى امرأة غير متحجبة مثلاً، وهي متحجبة حجاباً شرعياً كاملاً.. يوماً من الأيام كانت هي غير محجبة ثم تحجبت نصف حجاب ثم رأت كمال الحجاب والاحتياط فيه.. فلما شعرت أنها اجتهدت وبلغت سقف العمل وكماله نظرت إلى الآخرين بعين الانتقاص.. فإذا بها تُحَقِّر المتبرجة.. تزدريها.. تحتقرها.. تنتقصها.. ليس فقط بلسانها بل بلسانها وبقلبها.. ترى أنها أفضل من تلك، هذه المعاني علامة على أن الإنسان قد اعتمد على العمل ولم يعتمد على الله تعالى في العمل، علامة على أن العمل قد جَرَّ على صاحبه الاغترار.. اغتر بعمله فصار ينظر إلى غيره بالإحتقار.

حق المؤمنة إذا رأت مقصرةً أن تحمد الله تعالى على أن سلمها من هذا التقصير.. أو على أنه خلصها من هذا التقصير إن كانت وقعت فيه من قبل، ينبغي للمؤمنة إذا نظرت إلى مسيئة أو مذنبة أن تشعر أنها من الممكن أن تكون مثل تلك المسيئة

والمذنبة.. لكن فضل الله تعالى وهدايته وتوفيقه هو الذي أكرمها الله تعالى به.. فثبتت على الصلاح، لا تنظر أن صلاحها بجهدها، لكنه بتوفيق الله تعالي وهدايته.. فإذا نسبت العمل لتوفيق الله تعالى ورأت أيضاً أن العمل ليس جَزْماً بحصول السعادة.. لا يتأتى للمؤمنة ولا للمؤمن أن يرى أحدهما العمل، ويرى من نفسه الإتقان للعمل، فيعتقد بذلك أنه قد نجى وأنه قد صار من الصالحين وأنه من أهل الجنة، ولا يرى أن هناك مبرراً لعذابه ولا لخطئه ولا لسوء خاتمته فيغفل ويأمن مكر الله والعياذ بالله.

مهما اجتهدتِ في العمل الصالح والعبادة فقد اجتهد إبليس أكثر منك، جاء في بعض الأخبار أن ما من موضع شبر في الأرض إلا وقد سجد إبليس فيه لله سجدة.. وكان كثير العبادة الظاهرة غير أن قلبه لم يكن يتذوق هذه العبادة.. لم يكن يبحث عن روح العبادة.. لم يكن يبحث عن أثر العبادة ونورها في قلبه.. أغفل أمراض قلبه.. أغفل أوصافه القبيحة فلم يطهِّر نفسه منها.. لم ينسب الأمر إلي الله.. نسب الأمر إلى جهده.. فأخذ يُرَقَّى بكثرة أعماله هذه من مرتبة إلى مرتبة حتى أذن له فأُصْعِد إلى السماء ثم رُقِّي حتى وصل إلى السماء السابعة ثم رُقِّيَ حتى أدخل حظيرة المقربين ثم رقي حتى صار رئيساً للمقربين.. كان يلقب بطاووس الملائكة مع أن المعتمد أنه من الجن.. ومع هذه المراتب شعر إبليس أنه يستحق هذا الأمر وأنه ناله بجهده وبعمله وأنه لا يمكن أن يشقى أو أن يطرد وأنه لا يمكن أن تصدر منه الإساءة، فأحسن الظن في نفسه في غير محله فجاء الاستدراج والعياذ بالله؛ لأنه

رضي أن يخون الله بوجود الأمراض في قلبه ويكتفي بمجرد الأعمال، فكان ذلك سبباً في طرده والعياذ بالله؛ لأن أمراض نفسه قد تحركت ورأى في نفسه أنه عَبَدَ الله كثيراً وأن آدم لم يعبد الله قط.. هو من نار وآدم من طين.. ورأى بعض القياسات التي اغتر بها في حاله هو من أنه رئيس المقربين ومن حقه أن يرفض أو أن يقبل.. فأبى أن يسجد.. فلما وبخه الله بدل أن يعتذر.. بدل أن يتوب.. أخذ يسيء الأدب على الله تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾[1] ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2].. طيب، والله ما كان يعرف هذا كله لما أمرك بالسجود؟! يعرف! له الأمر من قبل ومن بعد.. لكنها النفس إذا لم تزكى لعبت بصاحبها فصار اجتهاد الإنسان بالصلاح يجني عليه بدل أن يكون ثمرة له.. بدل أن يجني به صار هو يجني عليه.. وبدل أن يعتذر لما طرد: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3].. يهدد الله: أبقني إلى يوم القيامة ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[4].

هذا الكلام الشديد الذي يهدد به ربه ما سببه؟ سببه أنه اغتر بأعماله الصالحة.. بصور أعمال... ولم يبحث عن حقائقها.. لم يستشعر بأعماله ذوق التوفيق.. لولا توفيق الله ما استطاع أن

(1) سورة: الإسراء، الآية: 61 ـ 62.
(2) سورة: الأعراف، الآية: 12.
(3) سورة: صٓ، الآية: 79.
(4) سورة: صٓ، الآية: 82، 83.

يعمل.. لم ينسب الأمر إلى الله ونسبه إلى نفسه فكان سبباً لما حصل له من الطرد.

المؤمن يأخذ بذلك عبرة، لا يغتر بأعماله كما مرّ، لا يستهين بالأعمال فإنها السبيل للوصول إلى الله.. فإنها الطريق التي سَنَّها الله لنا لنصل إليه، إن كان أحد يَدَّعي أنه مشتاق لأحد: أريد أن أزورك.. أنا مشتاق إليك.. مشتاق إليك أريد أن آتيك.. أريد أن أصل لعندك، قال له: الطريق إلى عندي من هنا إلى هنا إلى هنا حتى دله على الطريق، بعد أن دله على الطريق لم يتحرك، قال له: مالك لا تتحرك؟ قال له: هكذا فقط أنا مشتاق.. مشتاق.. أريد أن أصل إلى فلان وهو طيب ولو يريدني بسرعة أصل إليه، طيب.. أَرسل لك السيارة إلى عندك، ودلك على الطريق وتسير محمولاً إلى عنده... ما عليك إلا أن تمشي خطوات وتركب السيارة، لا لا لا.. يكفي أنا أحبه إن شاء الله محبتي تجعلني موصولة أنا وإياه، قال: ولكن ذلك علامة على عدم وجود صدق المحبة، لا لا.. محبتي تذهب بي إليه.. أنا صادق.. أنا قلبي طيب.. أنا قلبي طاهر.. الأعمال ليست لازمة.. الله ينظر إلى القلوب، وليس إلى الأعمال.

نقول: لا يُحْتَجُّ بكلام رسول الله وبكلام الله على الله، هذا الكلام نأخذه حجة علينا ليكون يوم القيامة حجة لنا.. نحتج به على أنفسنا في الدنيا ليُحاج لنا عند الله في الآخرة، يتأمل المؤمن هذا المعنى، يفهمه في العبادة، الله ينظر إلى القلوب، لكن الذي ينظر إلى القلوب أمرك بالعمل.. أمر المرأة أن تتحجب.. أمرها أن

تكف لسانها عن الحرام.. شَوِّقها إلى السير إليه.. أمرها أن تخالف نفسها في محبة الظهور والأمور التي لا تليق.. شَوِّقها إلى معاني السير إليه.. فما معنى أن يُشَوِّق الله عباده إليه ثم لا يسيرون إليه اتكالاً على أن المسألة تعود إلى إرادته؟ هو لا يعلم أن المسألة تعود إلى إرادته جل شأنه؟! يعلم ﷺ وهو بكل شيء عليم، الذي يعلم أن كل شيء بإرادته أمرنا أن نعمل.. أن نسير إليه.. ثم أمرنا أن لا نغتر بالعمل ولا نعتمد عليه، والأساس الذي ينبغي أن يُبْنى عليه العمل أنه سبب من الأسباب ووسيلة من الوسائل وليس هو المقصود.

العمل وسيلة وليس بغاية

المشكلة أن بعض الناس أضاع الوسيلة والبعض الآخر أضاع الغاية.. جعل الوسيلة غاية، والصحيح كما قال الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى ونفعنا به.. قال يخاطب العمل: **لا بد منك وبك لا نصل**، ما معنى هذا الكلام؟ أي: لا بد منك.. لا يتأتى أن نسير إلى الله إلا بالأعمال الصالحة.. وبك لا نصل يعني: أنت يا أعمال يا صالحة لست ثمناً للوصول إلى الله.. الوصول إلى الله غالٍ.. لا يعتقد الإنسان أن ببذله للجهد استحق الوصول إلى الله.. لكن ببذلنا للجهد نسترحم الله.. نستعطف الله.. نطلب نظر الله.. نطلب توفيق الله.. نطلب إحسان الله.. هذا معنى العمل الصالح، أن تبذل سائر ما في وسعك وفي جهدك.. تبذلين سائر ما في وسعك وفي جهدك ثم تنتظرين بعد ذلك من الله النظر.

رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً

هذا الأساس الذي ينبغي أن يُقام عليه العمل، إن أقيم عليه العمل أثمر العمل نوراً لأصحابه، وإن أقيم العمل على غير أساس ـ أن المقصود من العمل إقامة سبب بالامتثال لأمر الله ـ كان العمل أول ما يجني على صاحبه، ولهذا جاء في شأن الفرق بين المغتر بعمله وبين الذي إن قصر بغير قصد ولا تعمد في العمل انكسر وتاب ورجع إلى الله.. قال الإمام ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى في حِكَمِه: رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

المعصية لا ينبغي للمؤمن أن يُقِرَّ نفسه عليها ولا أن يستسهلها ولا يقول: أعصي ثم أتوب فهذا استهزاء بالله.. واحد يقول: أنا سأخالفك وسأعتذر لك... استهزاء.. انتقاص.. إساءة للأدب، لكن إذا وقع المؤمن في المعصية، فوقوعه في المعصية إن صح إيمانه يثمر حياء من الله.. خوفاً من الله.. اعتذاراً لله.. توبة.. ذلاً.. انكساراً.. أشعر دائماً أني أسأت.. أنا أخطأت.. كلما رأى أحداً وحدثته نفسه بأنه ناقص أو كلما حدثته نفسه بأن يستبشع أعمال الآخرين السيئة يقول: اتقي الله يا نفس! أنت عندك! عملت كذا وكذا من السوء! بالأمس أذنبت كذا وكذا كيف تستحقرين ذنوب الآخرين؟ انظري إلى ذنبك كيف هو وماذا سيصنع بك! لن تحاسبي عن الآخرين ستحاسبين على نفسك! نعم: يجب عليك أن تقومي

بدعوة الآخرين بنصيحتهم، لكن لا تحتقريهم لذنوبهم.. فيزيد الذنب قلب المؤمن ذلة وانكساراً.

المقابل: الظلمة التي هي من أبواب النفاق إذا حصلت مع العمل تجعل الإنسان كلما عمل العمل الصالح ازداد كبراً.. ترفعاً.. شعوراً بأنه أفضل من غيره.. احتقاراً للمقصرين.. استمراءً لنفسه.. آمناً من مكر الله.. استبعاداً لأن يطرد أو يبعد.. وهذا المعبر عنه بقوله: رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

والدليل على ذلك ما حصل لآدم وما حصل لإبليس، أبونا آدم عليه السلام لما عصى بغير تعمد المعصية نسي فأكل.. لما عصى المعصية أورثت قلبه ذلاً وانكساراً لله واستغفاراً وبكاءً، وعبادةً كانت ثمرة ذلك أن الله قد ألبسه خلعة الخلافة في هذه الأرض.. وكَرَّمه وكرّم ذريته الذين يسيرون على قدم الإيمان، وإبليس صاحب طاعة لكن طاعته أورثته عزاً واستكباراً فكانت سبباً في طرده وإبعاده.

لهذا ينبغي للمؤمن أن يُحْكِم المعاملة مع الله في شأن الأعمال على هذا الأساس، على أساس أن يكثر من العمل ويتفانى في العمل، مع حرصه على إتقان العمل.. ومن الحرص على إتقان العمل: طلب تذوق القلب وحضور الروح مع العمل.. استشعار الخشية أثناءه.. ومع إتقانه وتفانيه في العمل لا يرى أنه بعمله استحق شيئاً.. بل يطلب من رحمة الله ومن جوده أن يتكرم فيتقبل العمل ثم يتكرم فيثيب على العمل، ثم يتكرم فيرتضي صاحب

العمل، مَن كان هذا حاله مع الله ﷻ كان شأنه شأن محبوبية عند الله.. شأن قرب من الله ﷻ ، فتنبَّهي يا مؤمنة إلى هذا المعنى.. لا تتهاوني بالأعمال فإن كل عمل له ثواب وله أثر وله قربة، ولا تغتري بالأعمال فإن الإنسان لا يدري ما يُصنع به.

روي أن جبريل وميكال بكيا لما طرد الله إبليس بكاءً شديداً.. فقال الله: ما يبكيكما؟ قالا: يا رب ـ وأنت أعلم ـ هذا إبليس قرَّبته وارتضيته حتى جعلته طاووساً للملائكة وجعلته رئيساً للمقربين، وفي ساعة واحدة أصبح مبعداً مطروداً وصار عدواً لك متوعداً بالنار، وإنا نخشى أن يصيبنا ما أصاب إبليس، فقال لهما تعالى: هكذا فكونا، أي: شأن المؤمن أن يجمع بين الاجتهاد والفرح بنعمة الله عليه بالاجتهاد، ليس الفرح باجتهاده.. والفرق دقيق بين فرح الإنسان بعمله وبين فرح الإنسان بتوفيق الله له في العمل، توفيق الله تعالى للإنسان إلى العمل: أن يخلق في القلب القدرة على الطاعة، افرحي أن الله أكرمك بأن أقدرك على الطاعة، هذا الفرح ماذا يثمر؟ حياءً من الله.. شكر لله.. ذلة بين يدي الله.. أدب مع الله ومع الناس، تقولين: أنا لولا توفيق الله ما قدرت أن أعمل شيئاً من هذا، في المقابل احذري من أن تفرحي بعملك فإن الفرح بالعمل وليس بتوفيق الله للعمل.. الفرح بالعمل يورث الكبر.. الفرح بالعمل يورث إساءة الظن في الآخرين.. يورث التألّي على الله.. المنّة وهو العجب.. المنة على الله بالعمل. هذه المعاني السيئة هي

ثمرة الفرح بالعمل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[1].. ولكن ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

فينبغي للمؤمنة أن تعتني بهذا الأمر، ومما يعينها على ذلك أن يكون لها تعلق قوي بقبول العمل، أي بعد بذلها الجهد في إتقان العمل الظاهر تعلّق الأمر على قبول الله تعالى للعمل... ومرّ معكنّ أن إتقان العمل الظاهر أن يكون على وفق الأحكام الشرعية.. تصلِّ، تضبط أركان الصلاة.. شروط الصلاة.. سنن الصلاة.. هيئات الصلاة.. أبعاض الصلاة.. آداب الصلاة.. تبتعد عن مبطلات الصلاة.. عن مكروهات الصلاة.. هذا الإتقان الظاهر.. أي الحكم الشرعي.. الوسيلة.. الأسلوب في الأداء الظاهر، ويطلب أيضاً الإتقان الباطن وهو الاعتناء بصرف محبطات الأعمال والتخلص منها: كالرياء والعجب والكبر، والاعتناء بالتحقق بالأمور القلبية التي تجعل الأعمال تتضاعف وتؤثّر وتُقْبَل عند الله وهي الإخلاص وإرادة وجه الله تعالى.. التواضع.. الذلة.. شهود المنة لله تعالى، ومع هذه وتلك.. مع إتقان الظاهر والباطن.. ينبغي أن يبقى القلب متعلقاً بالقبول.

إنما يتقبل الله من المتقين

آية نزلت أبكت الصحابة.. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ

---

(1) سورة: القصص، الآية: 76.

(2) سورة: يونس، الآية: 58.

مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]، هذه الآية رجَّت قلوب الصحابة.. صدعت أفئدتهم.. ﴿إِنَّمَا﴾: للحصر.. يعني الله لا يقبل إلا من المتقي.. هل أنا متقٍ؟ إذا تأمل الإنسان هذا المعنى عمل الأعمال وهو خائف أن لا يقبل منه؛ لأن الله يتقبل من المتقين، نحن ما تحققنا بحقائق التقوى فنخشى أن لا يتقبل منا، فيحصل في القلب خوف من عدم قبول العمل، ثمرة هذا الخوف إلحاح على الله: يا رب تقبل.. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]، هذا المعنى الراقي من خوف عدم القبول هو سوط يُلْهِب ظهر النفس الأمارة بالسوء حتى لا تطغى بالأعمال الصالحة.

فربما إذا شعر الإنسان أنه محتاج إلى القرب من الله ثم اجتهد وعمل العمل الصالح.. شعر بعد ذلك أنه استغنى بعمله الصالح.. أنه صار مستحقاً أي غنيًا.. أصبح غنيًا.. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[4]، هذا شأن الصادقين في نظرتهم إلى العمل.. كانوا أشد اعتناء بطلب القبول من اعتنائهم بالعمل نفسه، يجتهدون في العمل ثم يبكون هل يُقبل أو لا يُقبل، أخاف أن لا يقبل الله أعمالنا.. أخاف أن يكون فيها من القوادح.. أنخاف أن يكون فيها من القوادح؟ بل يقين أن أعمالنا ملأى بالقوادح التي تحبط العمل.. لم يبقَ لنا إلا فضل الله.. أعمالنا كَسِير العُرج.. ولكن نعمل مع

(1) سورة: المائدة، الآية: 27.
(2) سورة: البقرة، الآية: 127.
(3) سورة: البقرة، الآية: 128.
(4) سورة: العلق، الآيتان: 6، 7.

ذلك.. (سيروا إلى الله عرجاً ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فإن انتظار الصحة بطالة)، لكن يعترف الإنسان بتقصيره وإساءته ويذكر نفسه دائماً بذلك.. وهذا النوع من الفكر والتذكير ثقيل على النفس.. أن يخاطب الإنسان نفسه بعد أن تجتهد وتتعب في الأعمال.. تريد أن تفرح وتفتخر.. يقول: حرمتك حظك من الراحة بأن أجهدتك في العمل ثم حرمتك حظك من الافتخار ومن المباهاة ومن الاعتداد والاكتفاء بالعمل بأن أجريت لك التخويف من عدم القبول عند الله ﷻ ، فالذي تقوم على هذا المعنى تكون أقرب إلى القبول لدى الله ﷻ وتعالت عظمته.

ولهذا قال الإمام الحداد في ما يخبر به من قصة الإمام الحسن البصري لما وقف في يوم عرفة على دابته يسأل الله تعالى في وضح النهار وفي وسط النهار.. لما زالت الشمس ولما صارت الشمس إلى الجهة التي وقفوا فيها وانتزح الظل عنهم سارع الناس ابتعاداً من الشمس إلى الظل.. والحسن البصري لم يتحرك.. حتى عرق عرقاً شديداً بحيث لو عصر ثوبه لسال عرقاً، نبهوه ونَحَّوه إلى الظل.. قال: ما لكم قطعتم عليَّ دعائي؟ قالوا: أشفقنا عليك من الشمس.. قال: أوَ في الشمس كنت؟ قالوا: ما شعرت بحرارة الشمس؟! لقد عرقت عرقاً شديداً حتى لو عُصر ثوبك لسال، قال: تذكرت ذنباً أو معصية بيني وبين الله فأنستني حرارة تذكارها حرارة الشمس التي أنا فيها، قال الإمام الحداد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ربما تكون هذه المعصية أو يكون هذا الذنب خاطراً خطر على قلب هذا الإمام، لو خطر على قلب أحدنا لعدَّه من الطاعات التي يمتن بها ويتقرب بها إلى الله تعالى!

هذه المعاني يزداد الإنسان بها أدباً مع الله، وخوفاً من الله، وحياء من الله إذا طالع سِيَر أهل الصدق في الإقبال على الله كيف كانت.. كما روت خادمة رابعة، كانت رابعة العدوية تصلي الليل كله، حتى إذا صلت الصبح وذكرت الله جالسة في مصلاها، وأشرقت الشمس وصلّت الركعتين.. هجعت في مصلاها هجعةً خفيفة لا تلبث أن تقوم بعدها فزعة وهي تقول: يا نفس إلى متى تنامين؟ كم ذا تغفلين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تستيقظي بعدها أبداً إلا إلى الجنة أو إلى النار... مطالعة همةِ السابقين في الأعمال الصالحة تزيد الخوف والحياء من الله ﷻ.

إن تصدّق المؤمن وأنفق مالاً ينظر كيف أنفق الصادقون قبله.. كيف أنفق الصدِّيق ماله حتى لم يبق معه إلا الثوب الذي عليه.. فجاءه مسكين يسأل.. فقال: لم يبقَ معي شيء في المنزل، ولا في البيت أعطيك إياه، فقال: أتردني هكذا صفر اليدين؟ قال: لا، إني أستحي من الله أن أردك صفر اليدين.. وكان قد وزع جميع ماله الذي جاء للتجارة على الفقراء والمساكين، ثم أنفق ما في بيته حتى لم يبق له إلا الثوب.. قال: إني لأستحي من الله.. بعد هذا كله.. أين هذا من إنسان فتح الله عليه وأوسع له رزقه، فإذا أنفق دريهمات رأى أنه فعل شيئاً كثيراً وثقل عليه أن ينفق مرة أخرى، قال له: إني لأستحي من الله أن أردك صفر اليدين قف محلك، فأوقفه خارج البيت ودخل الصدِّيق إلى المنزل، وخلع الثوب الباقي الذي على بدنه.. الذي يستر عورته.. وناوله للمسكين من عند الباب.. وأخذ شملة (شملة: هذه التي يصنعون منها الجونية كما

يسمونها: الخيش).. أخذ شملة واتزر بها ليستر عورته وخاطها بالشوك، وفي رواية بالعظم، ولما كان رسول الله ﷺ في مجلسه قال: «**أَيْنَ أَبَا بَكْرٍ؟**» قالوا: لم يأت، قال: «**ادْعُوهُ لِي**»، فدَعَوه.

قال الراوي: فأقبل الصديق يمشي على استحياء يخشى أن تنكشف عورته.. وجلس جلسة العذراء (أي جلسة الافتراش جلسة التورك؛ لأن العذراء أشد الناس حياء إن صحت تربيتها، فلا تكاد تجلس إلا مفترشة من شدة الحياء)، فجلس جلسة العذراء يخشى أن تنكشف عورته.. قالوا: فبينما نحن كذلك إذ جاء أعرابي يلبس كما يلبس أبو بكر، فلم ننكر ذلك عليه لشدة فقر الأعراب وجوعهم وقد يلبسون مثل هذا، فأكَبَّ الأعرابي على رسول الله وسارَّه في أذنه ثم انصرف الأعرابي، فلما غاب التفت رسول الله، وقال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَدْرِي مَنِ الرَّجُلُ؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**إِنَّهُ جِبْرِيل جَاءَنِي السَّاعَة وَقَالَ: أَقْرِىء أَبَا بَكْر مِنْ رَبِّه السَّلامَ.. وَقُلْ لَهُ: إِنَّ الله يُقْرِئك السَّلامَ وَيَقُول لَكَ: هَل أَنْتَ رَاضٍ عَنْ رَبِّكَ؟ هَلْ أَنْتَ رَاضٍ عَنْ رَبِّكَ فِي فَقْرِكَ هَذَا؟ فَإِنَّ الله قَد رَضِيَ عَنْكَ**» فبكى الصديق وحُقَّ له أن يبكي فرحاً وحياءً من الله.. حيث أن الله الذي خلق الكون كله يطلب رضاه، صار يخاطب الصديق ويسأله عن رضاه! فإذا حدثتني نفسي في نفقة أنفقتُها بأني أكثرت أستحي من الله وقد أنفق الصديق ثوبه الذي عليه.

إذا حدثتني نفسي إني أحييت الليلة وعملت وعملت.. فأخاطب نفسي: إن لم يُقابَل هذا العمل بالقبول فإبليس قد عمل أكثر مني، وإن قوبل بالقبول فكرامة من الله؛ لأن الصادقين قبلي

فعلوا أضعاف ذلك، إن اغترت نفسي بصلاة ركعتين أو أربع أو عشر في جوف الليل إن صليتها، فقد قامت رابعة العدوية بألف ركعة في اليوم والليلة.. وقبلها إمامنا الإمام سيد التابعين في المدينة زين العابدين علي بن الحسين كان يصلّي ألف ركعة في اليوم والليلة.. ثابت البناني الإمام التابعي الشهير: ثلاثمائة ركعة في الليلة.. الإمام أحمد بن حنبل: ثلاثمائة ركعة في الليلة.. الإمام محمد بن عنان: خمسمائة ركعة في الليلة.. الإمام الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي: ألف ركعة في اليوم والليلة.. فلا أغترُّ إذا قرأت أحوال الصالحين وعباداتهم.

إن حدثتني نفسي بأني قد تعلمت وصار عندي من العلم ما صار.. فماذا يكون علمي أمام علم إبليس إن لم يقبله الله ﷻ، ما من مسألة من مسائل العلم هذا إلا وإبليس يعلمها، لكنه لم يعمل بها ولم يَصْدُق مع الله فلم يقبله الله تعالى، ثم إن قَبِلَه الله تعالى هل أنا الوحيد صاحب العلم؟ وما مقدار علمي أمام مقدار علم من قبلي؟ الإمام أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث.. الإمام الحاكم يحفظ ألف ألف حديث.. فكيف أغتر بحفظ بعض الأحاديث وأنا لم أعمل بها ولم أحكم العمل؟! الإمام الشافعي حفظ القرآن وهو في السابعة من عمره.. حفظ الموطأ بأسانيده وهو في العاشرة من عمره.. أُجْلِس على كرسي الإفتاء بأمر من شيوخه وعلى رأسهم الإمام مالك وهو في الثانية عشرة من عمره لم يبلغ بعد.. حتى كان لنُحول بدنه يحتاج إلى الشرب في نهار رمضان، ولم يكن قد كُلِّف بالصوم؛ لأنه لا يطيقه وهو دون سن البلوغ،

فكان يشرب في نهار رمضان وهو على كرسي الدرس؛ لأنه في سن صغير لم يُكَلَّف بالصوم، ما يكون علمي أمام علمهم؟ أمام ما أعطاهم الله تعالى؟ فلا أرى لنفسي اعتداداً أو اغتراراً بباب من أبواب الخدمة، إن جاهدت فما يكون جهادي وأنا أجاهد آكلاً شارباً، وقد جاهد قبلي الصادقون وطعامهم تَمرة أو نصف تَمرة، ثم لا يجدون التمرة ولا نصف التمرة، فالمؤمن إذا طالع أعمال الصالحين قبله لم يغتر بعمله ورأى حقيقة الإقبال على الله بأن يزيد من العمل ومع ذلك يرى الفضل لله تعالى عليه في العمل.

وبهذا يُختم الخوض في معالم السلوك، نسأل الله ﷻ أن يكرمنا جميعاً بكمال الصدق في الأخذ بما سمعنا.. وأن يجعله حجة لنا لا حجة علينا.. وأن يرزقنا كمال الصدق معه والإخلاص.. وأن يجعل إرادته بنا بما أسمع وبما أنطق أن يلحقنا بركب المحبوبين، وبعد أن قرأنا ما قرأنا فينبغي للمؤمنة أن تقف مع نفسها وقفة صدق بعد هذه القراءة.. أن تنظر في أحوالها في صباحها ومسائها.. لا ترضى أن تمر عليها الأيام هكذا دون أن تصدق في سيرها إلى الله.. لا ترضى بأن تضيع وقتها في غير طاعة الله، تحرص على أن تجالس من إذا جالستها أعانتها على الطاعة وحركت فيها معنى الإقبال.. وتعرض عن مجالسة من إن جالستها زادت غفلتها وإعراضها فإنها عدوة وإن كانت في صورة صديقة.

تحرص على أن تكون صاحبة مهمة مع زوجها ومع أولادها بحسن الطاعة للزوج في غير معصية الله.. وحسن أداء حقه من حسن التزين له وإدخال السرور عليه والقيام بما أمرها الله به تجاهه.

تشتغل بما عليها ولا تشتغل بما لها وهو يشتغل بما عليه ولا يشتغل بما له.. فتقوم أسرة في هذا المجتمع يصح فيها معنى إقامة لسُنَّة الحبيب، تعتني بأولادها وأبنائها.. لا تشتغل بالتُّرَّهات.. بكثرة الخروج والدخول إلى الأسواق وإلى أماكن الغَفَلة، ولكن تعلم أن عليها مهمة ينبغي أن تعتني بها في منزلها وفي بيتها بحسن تربية أبنائها كما يحبه الله تعالى ويرضاه.

ينبغي لها بعد مثل هذه المجالس أن تحرص على أنها إن جلست مجلساً أن تحوّل المجلس إلى مجلس ذكر أو مذاكرة بأسلوب لطيف يتناسب مع حسن المقصد في الدعوة إلى الله.. تحرص على أن تبحث عن من تقيم بينها وبينها سنة النصيحة.. أكثرن من التناصح بينكن البين، فإن أخوة الإسلام قد جمعتكن في هذا المجلس ولهذا المجلس، وللحاضرات فيه بينهن البين صلة خاصة في عموم الصلة الإسلامية وهي الأخوة في الطلب، فكلكن أخوات في طلب العلم الشريف وفي تلقي الدروس المباركة، وهذه الصحبة التي حصلت بينكن تُسْألن عنها يوم القيامة.. «إن الإنسان ليسأل عن صحبة ساعة»، فينبغي أن تقيم كل واحدة منكن بينها وبين أخواتها اللاتي اجتمعت معهن في مجالس الخير أخوة في الله صادقة تؤثرهن على نفسها وتصدق مع الله في محبتهن وفي إسداء النصح لهن.

وينبغي للواحدة إن ساق الله لها نصيحة على لسان أخت لها أن لا تنظر إلى الناصحة ولا إلى أسلوب النصيحة ولكن تنظر إلى

النصيحة، من الظلمة في القلب ومن عدم أداء حق النعمة أن الإنسان إذا وُجِّهت إليه نصيحة يقول: من هذه التي تنصحني؟! ترى نفسها هي، عندها من الأخطاء كذا وكذا! أول تنصح نفسها! هذا من سوء الأدب مع الله، أو تقول: أسلوبها لم يعجبني كان المفترض أن تنصحني بطريقة أحسن، صحيح المفروض أن تنصحك بطريقة أحسن.. صحيح المفروض أن تنصح نفسها كما تنصحك.. لكن هذه المهمات عليك أو عليها؟ أن تنصح نفسها.. أن تحسن أسلوب النصيحة.. هذه واجبات عليها وليست عليك.. إذا صدرت النصيحة هناك واجب عليك وهو أن تقبلي النصيحة.. أن تتعاملي معها معاملة جد بأن تأخذي بها وتتأمليها وتحاسبي نفسك وتعاتبيها وتخاطبيها بالعمل.. هذا واجبك، واجبها: أن تنصح نفسها معك.. واجبها أن تحسن أسلوب النصيحة.. واجبك: أن تتلقي النصيحة، كيف تنشغلي بواجبها عن واجبك؟ هذا من الكبر الخفي.. المؤمنة تتقبل النصيحة.. تفرح بالنصيحة.. ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[1].

كثير من نساء المسلمين يجهلن كثيراً من الأمور التي سمعتموها في مجالس العلم فكيف تؤدين هذه المهمة؟ الله تعالى سيخاطبكن بعد أن أسمعكن بالعمل وبالتعليم.. عليكن أن تعملن وفي نفس الوقت تُعَلِّمن، لا تقل واحدة: أولاً أعمل ثم أُعلِّم..

(1) سورة: العصر، الآية: 3.

اعملي وعلّمي في نفس الوقت وأثناء تعليمك خاطبي نفسك بما تخاطبين به الناس، إن نصحت واحدة انوي النصيحة لنفسك أولاً وللأخت التي تنصحينها ثانياً؛ لأن الشيطان يدخل على الإنسان.. يقول له: أنت لا تبلغ الدعوة، لا تنصح الآخرين، لا تجتهد.. أولاً أصلّح نفسك وبعدها أصلّح الناس، نقول: لا.. الله أمرنا بثلاثة أشياء أن نتعلم وأن نعمل وأن نُعلّم، من تعلم ولم يعمل ولم يعلّم عمل بفرض وترك فرضين.. ومن تعلَّم وعلَّم الآخرين وقَصَّر هو في العمل عمل بفرضين وترك فرضاً، فالعمل بفرضين مع ترك الفرض أفضل من العمل بفرض مع ترك الفرضين، والأولى والأفضل والذي ينبغي العمل بالثلاثة، ولهذا ينبغي أن تقمن هذا المعنى بينكن.

وأسأل الله لكنّ كمال التوفيق

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وعلى صحبه وسلم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أسئلة متفرقة

أسئلة متفرقة

عقوق الوالدين من الكبائر

إذا كان هناك من عقَّ والديه وتوفاهما الله ثم اهتدى وندم فهل تقبل توبته في مثل هذا الذنب الكبير؟ وكيف السبيل إلى برِّهم؟

بلا شك نعم.. الله تعالى لم يغلق باب التوبة على عبد من العبيد.. لله الحمد على ذلك.. لك الحمد والشكر، لا شك أنها مصيبة كبيرة عقوق الوالدين.. وموتهما على حالة العقوق لهما أمر كبير.. لكن إن صدق الإنسان في الندم.. واحترق قلبه وبكى، وتوجه إلى الله ودعا وسأل من الله أن يغفر له، فلا شك أنه باب للمغفرة، هناك أبواب للبر بعد الوفاة: منها كثرة الدعاء للوالدين.. بالرحمة.. بالمغفرة.. برفع المراتب.. بالرضوان.. فكثرة الدعاء لهما باب كبير للبر، أيضاً الأعمال الصالحة وإهداء ثوابها إليهما، مثل قراءة القرآن، وإهداء ثواب القراءة إلى الوالدين.. التهليل.. الصلاة على النبي.. الاستغفار.. الحج.. العمرة.. الصدقة.. هذه الأعمال الصالحة.. القيام بها ثم بعد ذلك إهداء ثوابها إلى روحي الوالدين باب كبير لحصول البر، أيضاً بر الرحم من أجل

الوالدين: أهل الوالد.. أهل الوالدة.. أقارب الوالد.. أقارب الوالدة.. الإحسان والصلة لهم، والقيام بهم باب كبير لإدخال السرور على الوالدين، بر أصدقاء الوالدين.. هذا له أثر كبير في إدخال السرور إلى الوالدين، الاعتناء بالإخوان إن كان للإنسان إخوان.. في نصحهم بالاستقامة والإقبال على الله، وتقويم المعوج منهم؛ لأن اعوجاج الأبناء إن كان بسبب تقصير الآباء في التربية يُعاتب ويُعذب ويُحاسب عليه الآباء في قبورهم، فإذا حصل اجتهاد على الإخوان والأخوات في الاستقامة والطاعة كان ذلك سبباً في التخفيف عن الآباء والأمهات مما يصل لهم من العذاب في القبور، فإذا صدق الإنسان مع الله في ذلك لا شك أن الصفح قريب، من ذا الذي يغلق الباب بين الخلق وبين ربهم؟!

التصدق أفضل أم بناء المساجد؟

التصدق على المساكين أفضل من بناء المساجد في حالة من الحالات تكون المنطقة التي فيها الإنسان لا تحتاج إلى مساجد.. ملأى بالمساجد ومغطية للعدد المطلوب، وفي نفس المنطقة فقراء محتاجون حاجة كبيرة.. في هذه الحالة إعطاء الفقراء أفضل من الصدقة الجارية التي هي المسجد، أما إذا كانت المساجد لا يزال هناك حاجة إليها يستمر في بناء المساجد وفي الصدقة، والأفضل من هذا وهذا أن يبني الإنسان المسجد وأن يتصدق.. يجمع بين الخيرين.

يروى عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله الإمام الكبير.. أنه كان في الصحراء يسير يتعبد الله عز وجل.. يتفكر في عظمة الله.. وكان يمر عليه

وقت طويل وهو في هذا الحال، كان في سياحته فاستقبله رجل مسافر في الطريق في الصحراء.. فألقى عليه السلام فرد عليه السلام.. قال: فرأيت فيه أثر النور والصلاح.. فقلت له: يا هذا إني أرى عليك أثر الحال مع الله.. ألك حال مع الله؟ قال: فالتفت إليّ وقال: يا إبراهيم بن أدهم نعم لي حال مع الله، قال: فقلت: من أين عرفت اسمي؟ فقال: ما جهلت مذ عرفته ﷺ، وفي الحديث: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[1]، فقلت له: هل لك أن تريني شيئاً من حالك مع الله؟ قال لي: حباً وكرامة، فقام واستقبل القبلة وقال: الله ومد بها صوته، ثم خر ميتاً من ساعته، قال: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! كنا سبباً في موت صالح.. وليّ من أولياء الله، قال: فدخلت إلى البلدة القريبة منا، فقلت لهم: إن هناك رجلاً من الصالحين قد توفي فأعينونا بشيء من الحنوط ومن الكفن، واخرجوا معنا لنجهزه ونغسله ونكفنه وندفنه بعد أن نصلي عليه، قال: فخرجنا وأخذنا عامة النهار نبحث عن الرجل فلم نجده.. (مع أنه قد ضبط المكان الذي قد وضع فيه).. قال: فبينما أنا في حيرتي.. ماذا أقول؟ هل سيكذبني هؤلاء؟ أين ذهب الرجل؟ من أخذه؟ قال: سمعت هاتفاً يهتف بي ويقول لي: لا تتعبوا أنفسكم في البحث، فإن هذا الرجل قد آلى الله على نفسه أن لا يتولى تغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه إلا ملائكته الأبرار، قال: فتعجبت وقلت: ماذا كان حال هذا الرجل؟ بم نال ذلك؟ قالوا: إنه

---

(1) رواه الترمذي في (الحديث: 3127).

قد خرج ذات يوم، ولم يكن معه شيء يأكله فوجد كسرة يابسة ليأكلها فبلها بشيء من الماء، ولما قربها من فمه أقبلت عجوز ترتعد من الجوع، فقالت: يا بني، أطعمني أطعمك الله! قال: فلم يقسم اللقمة، وإنما أخرج اللقمة التي وضعها في فيه بجميعها وقال: خذي يا أماه.. ناولها العجوز.. فأخذت العجوز الكسرة وبسملت وأكلت.. فلما انتهت من الأكل وشعرت بالسكون في جسدها من بعد شدة الجوع، رفعت يديها وقالت: أعتقك الله من رق نفسك كما أعتقتني من رق الجوع! قالوا: فتقبل الله دعوتها فكان سبباً في ولايته.

فتفقُّد المحتاجين والالتفات إلى حاجاتهم له أثر كبير في قرب الإنسان من ربه ﷻ ، قد يفكر الإنسان في شيء من الطاعات أو الصدقات، أو إطعام الفقراء، أو تفطير الصائمين في بلدة تحتاج إلى مسجد.. هنا المسجد يُقدَّم، وإن كانت الصدقة مراتب والجارية لها أثر، والفقراء وإشباع الجائعين له أثره.. لكن المسألة في الهوى.. أن يخرج الإنسان من هوى نفسه حال الصدقة.. أن لا يجعل صدقته بمزاجه.. أن يبحث بالفعل ما هو الأقرب إلى رضوان الله.. ما هو الأحوج في تلك الساعة فعله.. ما هو الأقرب إلى البعد عن المظاهر.. ما هو الأقرب إلى خدمة الدين.. ما هو الأقرب إلى الأمر الذي يحتاج الإنسان إليه، فهذا الضابط: أن يخرج الإنسان من هوى نفسه في صدقته التي يتصدق بها فإن حظ النفس يُضعف أجر العمل.

ما معنى الإجازة التي تحصل من الشيوخ للتلاميذ؟

الإجازة هي إذن خاص في رواية سند في حديث أو في فقه.. في رواية علم من علم الحديث أو الفقه أو التفسير أو العقائد أو التصوف، بمعنى: الإذن كما تلقى الإذن عمن قبله، وقبلُه تلقى عمن قبله، حتى يوصل السند إلى رسول الله ﷺ القائل بإذنه وإجازته لأصحابه: «**بلغوا عنّي ولو آية**»(1)، وهذا معنى الإجازة وهي نوعان: إجازة تبرك وإجازة تحقيق، إجازة التحقيق العلمية لا يعطاها الطالب ولا تعطاها الطالبة إلا بعد أن تقرأ الكتاب كاملاً على الشيخ ويتأكد الشيخ من فهمها له وتحقيقها إياه.. بعد ذلك يجيزها لتُعَلِّم الآخرين، وإجازة التبرك يُجاز فيها من لم يحقق أو لم يتعلم بنية دخوله في السند في الرواية فيصير ممن يروون السند، إذا قرأ البخاري يقرؤه بسند متصل.. إذا قرأ شيئاً من الكتب يكون مربوطاً فتعود عليه بركة السند الذي يقرؤه على أساسه.

وهناك الإجازة في الأذكار والأوراد والسير إلى الله تعالى وهي أيضاً اتصال بإذن خاص في تلقي هذه الأوراد والأذكار بسندها إلى من رويت عنهم من أئمة السلف الصالح، والذكر لا يحتاج إلى إذن من حيث جواز القراءة، ولكن من حيث حصول بركة القراءة وسرعة الثمرة في القراءة فهذا المقصود به من الإجازة وهو أمر قد تعارف عليه السلف الصالح بداية من الصحابة، قال ﷺ مجيزاً سيدنا معاذ

(1) رواه **الترمذي** في (الحديث: 2669)، و**الدارمي** في (الحديث: 1/ 136)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 2/ 159).

ابن جبل: «**يا معاذ إني أحبك**» وفي رواية: «**إني والله لأحبك فلا تدعن أن تقول عقب كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[1]، سمع معاذ هذه الكلمة فعمل بها، ثم أجاز من بعده فصار يقول لبعض التابعين: إني أحبك فلا تدعن أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، والتابعي قالها لمن بعده حتى سمي هذا السند المسلسل بالمحبة؛ لأن كل من رواه قال لمن يسمعه: إني أحبك، وكذلك من قبله إلى النبي ﷺ وصارت مسلسلة في الأمة وهي نموذج للإجازة في الأذكار وفي الأوراد.

كانت الإجازات العلمية محل الشهادات الآن، الإجازات مرجعها إلى الحبيب ﷺ في نهاية السند.. الشهادات لا ندري إلى أين مرجعها في نهاية السند.. دكتوراه أو غيرها.. لا نسفِّهها.. هي تُخَرِّج مثقفين.. تعلِّم الإنسان أسلوب البحث لكنها لا تنتج محققين، كثير من الدكاترة محققون علماء أجلاء، لكنهم لم يستقوا تحقيقهم وعلمهم من الشهادة التي أخذوها، وإنما من الجثي على الركب بين يدي الشيوخ نفعنا الله بهم ـ إلا النوادر ـ

أهمية المحافظة على أذكار الصباح والمساء

من أذكار الصباح والمساء الورد اللطيف للإمام الحداد نفعنا الله به ولم يكن له فيه ـ كما قال ـ إلا جمعه من عيون السنة. جزى الله

(1) رواه **أبو داود** في (الحديث: 1522)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 5/ 247).

عنا الإمام الحداد خير الجزاء، حيث أنه بحث في كل كتب السنة التي تُقرأ عليه وانتقى منها ما ورد عن الحبيب ﷺ، خلاصة ما ورد عن الحبيب في ما ينبغي للمؤمن أن يقرأه في الصباح والمساء، فجعلها لنا في الورد اللطيف وختمها ببعض الأذكار، قال: سبحان الله وبحمده (مائة مرة)، سبحان الله العظيم وبحمده (مائة مرة)، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (مائة مرة)، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (مائة مرة)، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير (مائة مرة)، هذه الأذكار وردت عن النبي ﷺ فضائل في قراءتها بهذه الأعداد، ولكن لكثرة انشغال الناس دأب بعض السلف الصالح على ربطها ببعض المضاعفات التي حث عليها النبي ﷺ، فالتي لا تستطيع الإتيان بها مائة مرة تقول: عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، عدد ما خلق في السماء، عدد ما خلق في الأرض، عدد ما بين ذلك، عدد ما هو خالق.. عدد كل ذرة ألف مرة.. هذه المضاعفات تختصر الوقت لمن لا تستطيع القراءة مائة مرة، وفيها الأجر الكبير عند الله ﷻ كما ورد عن الحبيب ﷺ.

وأيضاً نوصي المسلمة بالمواظبة على الاستغفار قبل الفجر، وقبل المغرب، فمن فاتها قبل الفجر تأتي به بعد الفجر ولو في أثناء النهار، ولو فاتها قبل المغرب تأتي به بعد المغرب ولو في أثناء الليل، والمواظبة فيها سر وهو حصول الأثر، من أسرار حصول الأثر في الأذكار: الاستمرار والمواظبة، «**أحب الأعمال إلى الله**

أدومها وإن قل»[1] أيضاً نحب لها المواظبة على قراءة سورة يسٓ في الصباح والواقعة في العصر، وتبارك في المساء، فقد وصلت أحاديث في الحث على قراءة هذه السور، فلا ينبغي لمؤمنة أن تهمل قراءتها، ويجوز للحائض أن تقرأ هذه السور أيام حيضها بنية التحصين، ليس بنية التلاوة ولكن بنية التحصين، فيجوز لمن لديها عذر مانع الصلاة أن تقرأ القرآن لا من المصحف، وإنما من حفظها أو من كتاب غير القرآن فيه أكثر.. أي حروف الكلام الذي غير القرآن في هذا الكتاب أكثر من حروف الكلام الذي في القرآن، مثل كتب الأذكار والأدعية التي فيها غير القرآن حروفه أكثر، فيجوز لمن لديها مانع الصلاة أن تمسك بالكتاب فتقرأ مثل يسٓ ومثل الواقعة وتبارك بنية التحصين، أو مثل آية الكرسي.

الورد اللطيف له من الأجر ـ إن واظب عليه الإنسان ـ شيء كبير؛ لأن كل ذكر من الاذكار الموجودة في الورد اللطيف وردت فيه أحاديث عظيمة في المحافظة عليه، لذلك ينبغي للمؤمنة أن تحافظ عليه، وهناك كتب أُلّفت في شرح الورد اللطيف، مثل كتاب الوَرْد القطيف في شرح الوِرد اللطيف للإمام أبي بكر بن شهاب، نفعنا الله تعالى به.

(1) رواه البخاري في (الحديث: 6465)، مسلم في (الحديث: 1825)، وابن ماجه في (الحديث: 4237)، والإمام أحمد في (الحديث: 6/ 40).

ما يعين على قيام الليل

الذي يعين على قيام الليل: حفظ القلب عن المعاصي في النهار.

سُئِلَ بعض العارفين: سيّدي نحاول قيام الليل، فلا نستطيع، قال: أصلح فيما بينك وبينه في النهار يدعوك لمائدة تكريمه وتشريفه وأنسه وإجلاله في الليل... ومما يعين أيضاً: المجاهدة للنفس في ذلك والاستعانة بمن يوقظ وعدم السهر في غير حاجة؛ فإن من المكروه كراهة شديدة أن يسهر الإنسان بعد العشاء في غير طاعة، كان رسول الله ﷺ لا يسهر بل ينهى عن السهر بعد العشاء، فلا يبقى بعد العشاء إلا لذكر أو لمذاكرة أو لتعليم، ويتناول عشاءه وينام مباشرة، من البدع التي انتشرت في الأمة: تغيير سنة الليل والنهار، فصار الليل نهاراً والنهار ليلاً عند كثير من المسلمين، إذاً التقليل من السهر.. مباشرة النوم بعد العِشاء، والعَشاء، وعدم الانشغال بشيء إلا إن كان ذكراً لله، أو مجلس تعليم، أو دعوة لله تعالى، أو خدمة من يُتَقَرَّب إلى الله بخدمته، كالزوج والأبناء، والمرأة لا تقوم الليل إلا بعد أن تتأكد من عدم حاجة زوجها إليها.. هذا أدب من الآداب.

كيف نحافظ على أثر مجالس العلم؟

استمرار الأثر للحاضرات مثل هذه المجالس يرجع إلى العمل بما يسمعن، ابدئي بكل ما قرب منك من العمل، وتابعي نفسك على العمل، داومي على سماع الأشرطة أو قراءة الدروس التي مرت في

المطالبات واجعليها محل تحقيق منك.. طالبي نفسك بالعمل وتناصحن مع بعضكن البعض.. لو كل مجموعة من النساء الحاضرات تعرفن على بعضهن، وحصل بينهن ألفة في الله ومحبة في الله يتعاونن.. يسألن عن بعضهن البعض.. ينصحن بعضهن البعض.. يذكرن بعضهن البعض، إذا اجتمعت النساء بدل التذاكر في الأمور غير النافعة، يتذاكرن في مثل هذه المسائل، في السير إلى الله تعالى، وكذلك الإلحاح على الله في طلب المعونة باب كبير في حصولها.

ما معنى «من سَمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»؟

«من سَمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»[1].. هذا حديث صحيح ورد في البخاري وفي مسلم وفي الطبراني وفي ابن أبي شيبة وفي غيرها من كتب الحديث، وذكر الشرّاح أن له عدداً من المعاني من أظهرها وأقربها: أن من راءى أي: جعل مقصوده من أعماله الناسَ، ومن سَمَّع أي قام على السمعة.. طلب السمعة عند الناس في فعل الطاعات وجعل ذلك عوضاً عن طلبه رضوان الله.. راءى الله به وسَمَّع الله به يوم القيامة: أي فضحه على رؤوس الأشهاد ـ والعياذ بالله ـ برد عمله وفضحه أنه لم يكن لله.. وأيضاً بمعنى آخر ـ والعياذ بالله ـ وهو كشف عيوبه.. إماطة ستر الله عنه ـ والعياذ بالله من ذلك ـ ومن معانيها أيضاً: التسميع به في الدنيا

(1) رواه البخاري في (الحديث: 6499)، ومسلم في (الحديث: 740)، والترمذي في (الحديث: 2381)، وابن ماجه في (الحديث: 4207)، والإمام أحمد في (الحديث: 3/ 40) و(الحديث: 5/ 45).

قبل الآخرة والعياذ بالله من ذلك.

وأيضاً من معاني الحديث التي ذكرها أهل العلم.. أن من سَمَّع: أي سَمَّع الناس بعيوب إخوانه.. في رواية من الروايات: «**من سمَّع بأخيه المسلم سمَّع الله به يوم القيامة على رؤوس الأشهاد**».. يعني الذي يذكر عيوب الآخرين من المسلمين.. ويفضح عيوب المسلمين الذين سترهم الله تعالى يفضحه الله يوم القيامة، من ستر مسلماً ستره الله ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه على رؤوس الأشهاد والعياذ بالله من ذلك، إلا ما استثناه أهل العلم من إجازة فضح من تجرأ على المعصية المتعدية.. الذي ينشر المعصية بين الناس ويزينها للناس فلا بأس من الإخبار عنه لردعه والعياذ بالله من ذلك.

هل زيارة القبور للمرأة محرمة؟

يقولون: أن زيارة القبور للمرأة محرمة والنبي ﷺ يقول: «**لعن الله زوّارات القبور من النساء**»[1]، صحيح.. هذا حديث صحيح، لكن المشكلة أن هؤلاء الإخوان ـ هدانا الله وإياهم ـ يقفزون إلى الأحاديث دون أن يرجعوا إلى كلام أهل العلم في فهم الأحاديث، لا يكفي أن يكون الحديث صحيحاً حتى يأخذ الإنسان به، قد يكون الحديث صحيحاً، لكنه منسوخ بحكم آخر.. بحديث آخر مثل هذا الحديث، الذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة أن حديث:

(1) رواه أبو داود في (الحديث: 3236)، والترمذي في (الحديث: 320)، والنسائي في (الحديث: 2042)، وابن ماجه في (الحديث: 1575)، والإمام أحمد في (الحديث: 2/337).

«لعن الله زوارات القبور» منسوخ بحديثين آخرين.

الحديث الأول: قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة»**[1]، **«نهيتكم»** هذا الخطاب يشمل الرجال والنساء، و**«كنت نهيتكم»** معناه أني ألغيت النهي السابق كله، الدليل الآخر وهو الأوضح للعامة الذي ورد في صحيح مسلم: أن السيدة عائشة رضوان الله تعالى عليها قالت: يا رسول الله إن أنا مررت على القبور فماذا أقول؟ (يعني كيف أزورهم إذا مررت بهم، أمر ساكتة خلاص؟ أم أقف وأزور؟) قال: **«إذا مررت بالقبور فقولي: السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون»**[2]، فاتضح بذلك أن النبي لم يمنعها.. ما قال: لا، لا، لا .. لا تقفي.. لا تزوري.. لا تكلميهم.. امشي ممنوع زيارة القبور.. لا.

فهذا الحديث منسوخ.. النهي عن زيارة النساء للقبور منسوخ، لكن يشترط في زيارة القبور للمرأة: أن لا يكون في ذلك اختلاط بالرجال.. أن لا يكون في ذلك تبرج.. أن لا يكون في ذلك نياحة أو رفع صوت.. هذه كلها أشياء محرمة إن دخلت على زيارة المرأة للقبور أصبحت مَفْسَدَة تُمنع المرأة بسببها عن زيارة القبور حتى تتوب من مثل هذه الأشياء، وقد جاء في بعض الروايات أن

(1) رواه **مسلم** في (الحديث: 2257)، و**أبو داود** في (الحديث: 3698) بنحوه و**النسائي** في (الحديث: 2031).

(2) رواه **مسلم** في (الحديث: 584)، و**أبو داود** في (الحديث: 3237)، و**النسائي** في (الحديث: 149)، و**ابن ماجه** في (الحديث: 4306)، و**الإمام أحمد** في (الحديث: 2/ 300).

السيدة فاطمة عليها رضوان الله كانت تذهب إلى أُحُد لتزور ضريح عم أبيها سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وكانت إذا جاء السيل تخرج إلى أُحُد وتقف على قبره وتُسَلِّم عليه، ثم تجمع التراب وتُطَيِّن القبر. تَحُدُّ القبر حتى لا يندثر ولا يذهب مكانه ولا أثره.

وجاء أنها لما دُفن أبوها ﷺ وعاد الصحابة من دفنه أقبلت على الحجرة وهي تبكي.. بأبي هي وأمي.. فرأت أنس وهو عائد من الدفن فقالت: يا أنس! (لما رأته) قالت: يا أنس.. أطابت أنفسكم أن تهيلوا التراب على رسول الله؟!(1) فبكى ثم وقفت على القبر الشريف وأخذت قبضة من ترابه وشمتها وأنشدت باكية:

ماذا على مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدَ
أَنْ لها يَشُمَّر مَدى الزَّمانِ غَوالِيا

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصائِبُ لَوْ أنَّها
صُبَّتْ على الأَيَّامِ عُدْنَ لَيالِيا

الاستشهاد بالحديثين الصحيحين: الأول: «**كنت نهيتكم..**» والثاني: حديث عائشة في زيارتها للقبور يبيّن جواز ذلك بشروطه.

ماذا عن دعاء ختم القرآن؟

أما دعاء ختم القرآن فهو مستحب؛ لأن ختم القرآن من

(1) رواه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 3/ 140) و(الحديث: 3/ 197)، وأخرجه **الطبراني** في «المعجم الكبير» (الحديث: 22/ 1029).

الأعمال الصالحة والتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة من أرجى أسباب القبول، وجاء في الحديث الحسن أنه يحضر عند ختم القرآن ستون ألف ملك يؤمِّنون على دعاء من يدعو، وهذا الجاهل الذي يقول الدعاء بعد ختم القرآن بدعة يحتاج إلى أن يتوب إلى الله، نقول: من فضلك إذا أردتنا أن نصدقك ائتني بحديث يقول لا تدعو بعد قراءة القرآن.. هاتوا نص هيا! ائتونا بنص يقول ممنوع الدعاء بعد قراءة القرآن، ما وجدنا هذا لا في القرآن ولا في السنة، وجدنا في القرآن: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾(١) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾(٢) ما قال في الآية: إلا عند ختم القرآن، أطلق الله الدعاء في سائر الأوقات فمن هذا الذي سيتجرأ على شرع الله بما لم ينزل ليحدد ما أطلقه الله؟

ثم الذين يقرؤون القرآن ويقرؤون ختم القرآن بعد قراءة القرآن كانوا أئمة من سلفنا الصالح، من أكابرهم الإمام علي زين العابدين بن الحسين.. له دعاء.. دعاء الإمام علي زين العابدين في ختم القرآن من أعظم ما نُقِل من أدعية ختم القرآن، وعدد ممن تلوا من السلف الصالح، أما كيفية ختم القرآن كما هو الآن موجود في رمضان في صلاة التراويح في الحرمين وفي غيرها من بلدان المسلمين نعم هي بدعة لم ترد عن النبي ولا عن الصحابة ولا عن التابعين، لكنها بدعة حسنة.. لِمَ بدعة حسنة؟ لأن لها أصل في كتاب الله وفي سنة نبيه وهو الدعاء والتوجه إلى الله تعالى.. وإذا

---

(1) سورة: غافر، الآية: 60.

(2) سورة: البقرة، الآية: 186.

كان الدعاء محبوب مندوب في كل وقت فمن باب أولى عند ختم كتاب الله وعند الفراغ من عمل هو من أفضل الأعمال وأرجاها للقبول عند الله وهو عمل قراءة القرآن، نعم، قد لا يستحب الإطالة في دعاء ختم القرآن إن كان في الصلاة حتى لا يخرج المصلي عن نَسَق الصلاة هذا صحيح، الفقهاء لا يرون استحباب الإطالة في ختم القرآن أثناء القيام في الصلاة، لكن في خارج الصلاة فلا بأس ادع كما شئت حتى لا تكون الإطالة.. قال الفقهاء: الإطالة في دعاء ختم القرآن أثناء الصلاة يُخْرِج الصلاة عن نَسَقها.. يعني عن هيئتها المعروفة الواردة، خصوصاً أنه لم يرد عنه ﷺ فعل ذلك، لكن هي ليست باطلة على المعتمد وليست منهي عنها، بل هي من المستحبات لكن ينبغي أن تخفف ولا يطال فيها وبعد الصلاة يدعو كما شاء.

هل يصل ثواب قراءة القرآن إلى الأموات؟

ذهب جمهور السلف إلى القول بوصولها، الإمام أحمد بن حنبل قال بوصول قراءة القرآن.. وورد عنه أنه وقف على قبر رجل ووجد أعمى يقرأ القرآن على القبر وهم يدفنون.. فقال: أسكتوه فإن هذه بدعة لم ترد، فلما خرج الإمام أحمد بن حنبل حدثه أحد الأئمة الحفاظ الذين كانوا من أئمة الحديث الذين كانوا بجانبه قال: ما تقول في فلان؟ (ذكر له أحد الرواة).. قال: مقبول الحديث.. حسن الحديث، ما تقول في فلان؟ قال: ثقة، ما تقول في فلان؟ قال: ثقة، قال: حدثني فلان عن فلان عن فلان (ذكر هؤلاء الثقات): أن عبد الله بن عمر أوصى أن يُقرأ القرآن على قبره عند

وفاته، وهذا نص صريح في قراءة القرآن عند القبور.

وأيضاً ذهب عامة جمهور الشافعية إلى وصول الثواب، كما ذهب المالكية إلى ذلك، كما ذهب الأحناف إلى ذلك، خلاف بعض الأئمة في ذلك على أساس: هل يصل أو لا يصل؟ ولم يقل أحد من أهل السنة والجماعة من الأئمة الأربعة وأتباعهم بتحريم إيصال ثواب القرآن إلى الأموات، لا خلاف في أنها جائزة.. لكن الخلاف هل يصل ثوابها أو لا.. والجمهور على أنه يصل، وأما الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] فهي آية تتكلم عن شرع سابق، وشرائع من قبلنا هل هي شريعة لنا أم لا؟ محل خلاف بين أهل الأصول، وما كان محلاً للخلاف فلا يصح الاستدلال به.

أيضاً ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ﴾ أي: ليس من حقوقه، أما القراءة وإهداء الثواب إليه لا نراها أنها واجب، ليست حقاً له، لكن تفضلاً من الله عليه أن يذكّر أحداً من الأحياء بأن يتلو شيئاً من القرآن ويهدي ثوابه إليه.

وأما استشهادهم، هداهم الله بقوله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**»[2] إلى آخر الحديث.. قلنا الحديث

---

(1) سورة: النجم، الآية: 39.

(2) رواه **مسلم** في (الحديث: 4199)، و**الترمذي** في (الحديث: 1376)، و**النسائي** في (الحديث: 3653)، و**أبو داود** في (الحديث: 2880)، والإمام **أحمد** في (الحديث: 2880).

صحيح لكن فهمكم سقيم، انقطع عمله هو، وليس عمل الناس له، لو قلنا انقطع عمله يعني: لم يعد ينتفع بعمل أحد إذاً لا يجوز الصدقة عنه، وثبت في السنة الصدقة عنه: أنَ رجلاً قال: يا رسول الله، إنّ أمي توفِّيت، أفينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: «**نعم**»(1)، إن قلنا: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله**» إذاً لا ينتفع بالحج.. لا ينتفع بالعمرة.. وهذا وارد في السنة أنه ينتفع بالحج والعمرة: أأحج عن أبي؟ «**حُجَّ عن أبيك**»، أأحج عن أمي؟ قال: «**حجي عن أمك**»(2).

إن قال الحديث بظاهره كما يفهمونه انقطع عمله أي: لا يستفيد أبداً، هذا يعني أن صلاة الجنازة باطلة! وأنها عبث وحاشا لله أن يُشَرِّع لنا عبثاً، في صلاة الجنازة ينتفع المسلم بصلاة الجنازة أو لا ينتفع؟ ينتفع.. ندعو له.. ينتفع بقراءة الفاتحة التي نقرأها أو لا ينتفع في صلاة الجنازة؟ ينتفع، فإذاً هو ينتفع بعمل غيره له، المقصود من الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**»(3) أن لا يتّكل الإنسان.. يقول: أنا سأموت وسأوصي بأن تعطوا خمسة مليون للفقراء والمساكين، واجعلوهم يقرؤون سنتين، ثلاث سنين قرآناً علي إلى روحي فيقبلني الله.

---

(1) رواه **البخاري** في (الحديث: 2770)، **وأبو داود** في (الحديث: 2882)، **والترمذي** في (الحديث: 669)، **والنسائي** في (الحديث: 3656).

(2) رواه **البخاري** في (الحديث: 1513)، **ومسلم** في (الحديث: 3238)، **وأبو داود** في (الحديث: 1809)، **والنسائي** في (الحديث: 2633)، **وابن ماجه** في (الحديث: 2906) و(الحديث: 2907).

(3) تقدم تخريجه سابقاً.

أو يقول الإنسان: أنا أعمل ما أشاء وفي القبر أعبد الله. نقول: لا إذا مات ابن آدم انقطع عمله، فهذا الذي ينبغي أن يُفهم وبالله التوفيق، أسأل الله تعالى أن يفهمنا الصواب والرشد وأن ينزع عنا الهوى والعصبية، وإذا لم يقتنع الإنسان لا يقرأ، لكن لا ينكر على الآخرين، المصيبة ليست في عدم القراءة.. حَرمت أباك وأمك.. لا تقرأ، لكن ليس لك أن تعترض على الآخرين، أيضاً الذي لا يقول بجوازها لا ينبغي أن يعتبرها بدعة، البدعة جريمة كبيرة، أن يتهم الإنسان المسلم بالبدعة أشد من أن يتهمه بالزنى؛ لأن الزنى معصية يتاب عنها.. البدعة معصية في الاعتقاد والزنى معصية في العمل، ومعصية الاعتقاد أكبر من معصية العمل، فينبغي أن يُقال: يجوز أو لا يجوز، لا يُقال أنها بدعة ويُحارب أهلها لا سيما وأنها عمل السواد الأعظم من الأمة لقرون طويلة.

ما يعين على قوة الحافظة

ممّا يعين الإنسان أولاً: غض البصر عن المحرمات.. ثم بعد ذلك عن المكروهات، ثم عن كل ما لا ينفع؛ فإن كل ما ينظر الإنسان إليه ينطبع منه صورة في قلبه، ومن نظر إلى الظلمات انطبعت الظلمات في قلبه، فلم تقوَ حافظته في أمور دينه، ومن أدمن النظر في المباحات التي لا تنفع شُوِّش قلبه بكثرة صورها، أيضاً من المجربات: قراءة سورة الأعلى مرة واحدة في اليوم

والليلة، فإذا وصلت إلى قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾(1) تكرر هذه الآية سبع مرات ثم تكمل السورة.. تقرأ السورة مرة واحدة حتى إذا وصلت إلى الآية تكرر نفس الآية سبع مرات ثم تكمل بقية السورة.

هل للوضوء أذكار؟

أثناء الوضوء لم يصح عن النبي ﷺ أذكار معينة في الوضوء، لكن استحب ذلك كثير من السلف الصالح، ووردت بعض روايات ضعيفة لا بأس أن نعمل بها مع هذا الاستحسان للسلف مثل التي ذُكِرت في بداية الهداية، ولها أثر قوي على حضور القلب مع الله في الوضوء، والقاعدة: ما أعان على الطاعة فهو طاعة ما لم يكن فيه مخالفة لأمر الله، فجاءت بعض الأذكار في كتاب اسمه بداية الهداية للإمام الغزالي يُنصح كل صادق في السير إلى الله بأن يعمل بما في هذا الكتاب، كان الشيوخ عندنا لا يأذنون لطالب العلم بلبس العمامة حتى يحقق كتاب بداية الهداية لما فيه من آداب وأخلاق، ذكر آداباً للوضوء وأذكاراً يحرص الإنسان عليها أثناء الوضوء تعينه على أن يحضر قلبه مع الله في الوضوء، ومن حضر قلبه مع الله في الوضوء، حضر قلبه مع الله في الصلاة غالباً.

(1) سورة: الأعلى، الآية: 6.

هل تجوز صلاة الوتر عند أذان الفجر؟

أثناء الأذان؟ الأصل أنها قبل طلوع الفجر وينتهي وقت الوتر بطلوع الفجر، لكن تُعَد قضاء إذا أذن الفجر، إذا أذَّن أثناء أداء الوتر فلا بأس، لا إشكال.

أسأل الله التثبيت لكل من صدق في وضع قدمه على أول الطريق.. نحن نضع أقدامنا على أول الطريق لكن نسأل الله ذلك.. نسأل الله التوفيق للأبناء والثبات والأخذ باليد.. نسأل الله تحقيق مطالب من كتبن ذلك وكل من لها مطلب يرضيه تعالى.

إذا خُيِّر الإنسان بين حضور مجلس خير وبين قضاء حاجة لوالدين ماذا يفعل؟

نقول: إن كان حضور مجلس الخير سيفَوِّت حاجة الوالدين.. ومجلس الخير ليس من تعلم الواجبات.. فحاجة الوالدين مُقدَّمة على ذلك إذا كان حضور المجلِس سيفوِّت حاجة الوالدين... وإذا لم يكن سيفوت حاجة الوالدين تجمع بين الأمرين.

نسأل الله أن يملأ القلوب محبة في الله.

الإصابة بالعين

إذا نظر شخص إلى إنسان فأصابه بالعين فهل عليه إثم؟ ليس عليه إثم إن لم يقصد ذلك، لكن عليه أن يعتني بالمحافظة على الأوراد والأذكار، فإنها تقلل من أثر العين إذا اعتاد الإنسان من نفسه أنها تضر الآخرين بالعين، وأيضاً إذا استحسن شيئاً، فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. فإن هذا يصرف الأذى.

هل يجب على المسلمة حفظ سورة البقرة؟

لا يجب على المسلمة حفظ سورة البقرة، لا. . الواجب فقط من القرآن سورة الفاتحة، وما عدا ذلك فهو من المستحبات، يتأكد على المؤمنة أن تحفظ قصار السور ثم جزء عمَّ، ثم تبارك، إن استطاعت بعدها أن تحفظ البقرة وآل عمران فهو أمر عظيم وأجره كبير، وله مراتب عالية، لكن التي لم تستطع لا إثم عليها، ويُقَدَّم تعلم الواجبات من الفقه على حفظ السور من القرآن الكريم، ويُقَدَّم تعلم الواجب من العقيدة، والواجب من التصوف وهو معرفة أمور الرياء والتخلص منها والكبر وغيرها من أمراض القلوب، مقدم على حفظ الكثير من القرآن خصوصاً إذا كانت الإنسانة قد كبرت في السن، أما الأطفال الصغار فقبل البلوغ يحفظون القرآن، وقبيل البلوغ يعلَّمون الأحكام الشرعية، فإذا بلغوا يتوسعون بعد ذلك في الأحكام وفي العلوم الشرعية بالعمل والتعليم، نسأل الله كمال التوفيق.

هل ورد مسح الوجه باليد بعد الدعاء؟

ورد عن الحبيب ﷺ بروايات مختلفة، وورد عن كثير من السلف الصالح فلا بأس به، البعض حصره على مواضع معينة واستحسنه في مواضع دون مواضع والمسألة فيها سعة.

اللّهم ردنا والمسلمين إليك مرداً جميلاً، واجعلنا ممن أحببتهم وسبقت لهم سوابق السعادة. . فإنك إذا أحببت يا مولاي قربت. . وإذا أحببت أدنيت. . وإذا أحببت لاطفت. . وإذا أحببت حفظت وأعنت، وإنا نشكو إليك من عجزنا ومن إساءتنا ومن تقصيرنا ومن

قبح أحوالنا ما لا يخفاك، وجله يخفى علينا. . نسألك اللهم نظرة منك تعود بها على إساءاتنا وعلى قبائحنا وعلى ذنوبنا وعلى نقصنا بعائدات فضلك وجودك وكرمك، فلا تبقي فينا بقية إلا وقد حُشيت وكُسيت وبُطنت بأنوار جودك وإحسانك وفضلك وامتنانك.

يا أكرم الأكرمين أكرمنا. . يا أرحم الراحمين ارحمنا. . يا متفضل يا محسن يا جواد. . واجعلنا من خواص أهل المراتب العوال. . واغفر لنا يا ذا الجلال، اللّهم تب علينا توبة نصوحاً. . طهرنا بها جسماً وقلباً وروحاً. . اللّهم إن لنا قلوباً تشتاق إلى التطهير. . وإن لنا أنفساً تأبى أن تصدق معك في المسير. . فنسألك اللّهم إلا ما أنلت قلوبنا ما أمَّلتْ وفوق ما أملت من معاني قربك، وتحققها بمعاني التنوّر والطهارة، وإلا ما نظرت إلى أنفسنا العاصية المسيئة المقصّرة المُعرضة بعين رحمة من عندك تجبر بها الكسر. . وتغفر بها الوزر. . وتأخذ بأيدينا إليك أخذ المحبوبية، اللّهم اجعل أنفسنا مطمئنة راضية مرضية تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك، اللّهم أكرمنا بما أكرمت به الكامل من هذه الأمة مع كمال اللطف والجود يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين. وصلِّ اللّهم على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

مقدمة الحبيب عمر بن حفيظ 3
الإقبال على الله .5
وقفة صدق مع النفس 6
أوصاف الله قديمة أزلية 7
كيفية التقرب إلى الله 8
الباعث نفحة من الله 10
لَمْ أخلق لأعيش هذا العبث 13
المرء يصلحه الجليس الصالح 14
رسول الله ﷺ علمنا المحاسبة 16
ثمرة قراءتي للقرآن 20
في ساحة العرض 23
الاستجابة لهذا الخاطر 24
المحافظة على هذا الباعث 26
كيف يقوى هذا الباعث 31

الأصل في السلوك اتباع السنة 39
التوبة أول مقام من مقامات الإحسان 39
استغفارنا يحتاج إلى استغفار 42
كيف السير إلى الله؟ 44
تطهير القلوب من الأمراض 45
طريق الاتباع لأمر الله 46
مجاهدة النفس 49
الاتباع نوعان 55
كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة 58
ما هي قاعدة تلقي الأحكام الشرعية؟ 62
ما معنى الصوفية؟ 67
ما هو دعاء قضاء الحاجة؟ 73
كيف يميز بين العلم النافع وغير النافع؟ 74
كيفية الخشوع في الصلاة 75
السبيل للخشوع عند تلاوة القرآن 76
كيف نستطيع التجاوز عن إساءة الآخرين؟ 76
كيف نتجاوز المعوقات الأربعة 78
الإقبال على العلم بالعمل 80
المعوقات التي تواجه الإنسان في سيره إلى الله 81

العائق الأول: الدنيا 81
التعامل مع الدنيا 82
الدنيا ملعونة ملعون ما فيها 83
الدنيا عدوة الله 86
الزهد في الدنيا له معان ومقاصد 88
غاية ما تخرجين به من الدنيا 90
العائق الثاني: الشيطان 96
العائق الثالث: النفس 98
العوارض التي تعرض للسالك 108
من أهم العوارض التي تعرض للسالك 108
المراتب التي تترقى فيها النفس 111
ميزان ضبط الخواطر 112
تكليف النفس الطاعة 114
مجاهدة النفس 116
كيف نزكي أنفسنا 118
﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ 124
الأسباب الغيبية 128
الرزق المعنوي 133
الخوف من مخبآت القضاء والقدر 136

أمهات أمراض القلوب وكيفية العلاج منها 140
هل يحاسب الإنسان على الخاطر؟ 141
كيفية إتقان العمل 142
أمهات الصفات المذمومة 143
أولاً: العجب 143
الشكر محض منة من الله 144
الكبر لله تعالى 149
ثانياً: الكبر 149
التواضع دواء ناجح 151
الأدب مع الله هو ثمرة الطاعة 153
الخشية ثمرة العلم 158
علاج التكبر 160
ثالثاً: الرياء 162
أصل الرياء وسببه 162
كيف العلاج من الرياء 163
أنواع الرياء 163
رابعاً: الحسد 165
كيف يكون الحسد؟ 166
الحسود لا يسود 170

هل يكون الحسد في الدين 171
علاج الحسد 172
قاعدة الحب في الله والبغض في الله 174
أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما 177
البغض في الله 187
ما مقياس حسن الأخلاق؟ 190
المرء مع من أحب 197
الاهتمام بإحسان العمل أهم من العمل 201
مهمتنا أن نقوم بالعمل لا أن نعرف ثمرة هذا العمل 202
ثمرة الخوف 204
العمل وسيلة وليس بغاية 210
رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة 211
إنما يتقبل الله من المتقين 214
أسئلة متفرقة 224
عقوق الوالدين من الكبائر 225
التصدق أفضل أم بناء المساجد؟ 226
ما معنى الإجازة التي تحصل من الشيوخ للتلاميذ؟ 229
أهمية المحافظة على أذكار الصباح والمساء 230
ما يعين على قيام الليل 233

كيف نحافظ على أثر مجالس العلم؟ 233
ما معنى «من سَمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»؟ 234
هل زيارة القبور للمرأة محرمة؟ 235
ماذا عن دعاء ختم القرآن؟ 237
هل يصل ثواب قراءة القرآن إلى الأموات؟ 239
ما يعين على قوّة الحافظة 242
هل للوضوء أذكار؟ 243
هل تجوز صلاة الوتر عند أذان الفجر؟ 244
إذا خُيِّر الإنسان بين حضور مجلس خير 244
الإصابة بالعين 244
هل يجب على المسلمة حفظ سورة البقرة؟ 245
هل ورد مسح الوجه باليد بعد الدعاء؟ 245
فهرس المحتويات 247

معالم السلوك

مجموعة دروس عقدت للقائمات على شؤون الدعوة في جمعية نهضة المرأة الظبيانية بدولة الإمارات العربية المتحدة. تحدث فيها الحبيب علي الجفري عن جوانب وشؤون تصفية القلب وتزكية النفس والتخلص من الأمراض الباطنية التي تعرقل سير الإنسان الى الله وأهمية ذلك في حياة المرأة المسلمة.

موقع الحبيب علي الجفري : www.alhabibali.org

التوزيع

- مكتبة أسامة بن زيد ـ حلب ـ اقيول ـ سوريا ـ هاتف: 3639140 - 21 - 00963
- المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ المغرب ـ هاتف: 307651 - 22 - 00212

دار المعرفة
للطباعة والنشر
شارع البرجاوي ـ قرب قصر بلدية الغبيري
هاتف: 834301 - 834332 - 858830(01)
فاكس: 835614(01) ـ ص.ب: 11/7876 بيروت ـ لبنان
البريد الإلكتروني e. mail: info@marefah.com
http://www.marefah.com

ISBN 9953-420-96-3
9 789953 420967 >